علوية صبح

اسمه الغرام

رواية

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

دار الآداب

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

دار الآداب
هاتف ٠١/٨٠٣٧٧٨ - ٠١/٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

حين جلس قبالتها في المقهى يحدّق في عينيها، ارتعش جسدها. ارتجفت يداها وساقاها وأحسّت بأنّ النار تخرج من رأسها. يداها الباردتان والمثلّجتان دومًا هبّتا بالنار، وصارت كفُّها متوهّجةً شديدةَ الاحمرار، ظهرها كأنّه انقسم إلى نصفين.

ثمّة شيء غامض كان يحدث في جسدها، شيء يشبه الوجع، لكنّه ليس وجعًا. شيء يشبه زقزقة الفرح، لكنّه ليس فرحًا خالصًا. سألتني وعيناها دامعتان عمّا إذا كان الذي تحسّ به يسمّونه الغرام.

...وائيّة لبنانيّة، لها: «نوم الأيام»، و«مريم الحكايا» و«د... دار الآداب). تُرجمتْ أعمالُها إلى لغاتٍ عدّة. حائزة جائزة السلطان قابوس للإبداع الروائيّ عام ٢٠٠٦.

THAT ALSALASIL
اسمه الغرام
2208 4.00

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

اسمه الغرام
علوية صبح/ روائية لبنانية
الطبعة الأولى عام 2009
ISBN 978-9953-89-115-6
حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

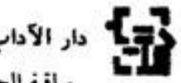

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
Website: www.adabmag.com

ـ ١ ـ

هزّتني برفق.

خُيّل إليّ أنّي غاطسة في النوم، وهذا ما يحدث معي دائمًا. كثيرًا ما تأتيني وتفعل ذلك، وخصوصًا منذ بدأت حرب تموز، فواصلتُ نومي.

مرّة أخرى شعرتُ بيدها تعود وتهزّني بعنف. بدون شعور منّي، خطر في بالي لمّا فعلت ذلك، أن أقوم وأتّصل بسعاد وأطمئنها إلى أنّ نهلا عادت وظهرت، لشعوري بأنّ قلق العالم كان موجودًا في صوتها، لمّا جاءتني وسألتني عنها.

انتبهت هذه المرّة إلى أنّ هذا لا يحدث في النوم، مثل المرّة السابقة التي هزّتني فيها برفق وعدتُ وغطستُ في نومي.

لم أكن مضطرّة إلى رفع رأسي والتطلّع في وجهها لأدرك من هي، لأنّني عرفتها من صوتها. كان شديد الوضوح عندما قالت لي: «قومي يا عمّي اكتبي وخلّصي. شو بدّك ياني موت قبل ما تكتبي، حتى تكتبي على ذوقك وتغيّري بالقصّة متل ما بدّك».

صوتها في أذنيّ كان عذبًا، ومخدوشًا ببحّتها التي طالما كانت تثير هاني، فيمتلئ صدره بتيّار ساخن يُذيبه عشقًا بها.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

تحفّزتُ وتأهّبتُ بعدما جلستُ على سريري متّكئة إلى جنبي الأيسر، ومديرةً ظهري لها.

الدفتر أمامي على «الكومود»، والقلم أيضًا، لكنّ يدي لا تطاوعني على الكتابة كما في المرّات السابقة، التي جاءتني فيها وهزّتني لأكتب. فجأة، وجدتُ نفسي أحكي حالي، وأقول: «طيّب، شو بدّي إكتب وأنا ما بعرفك منيح، وما بعرف إلاّ إللّي حكيتيلي إياهن، وما بكفّو لأكتب حياتك».

سمعتُ صوتها الساخر يقول لي: «مين قلّك حتى لو عرفتيني وقت طويل حتعرفيني بالكامل لتكتبي عنّي. قومي اكتبي، وإنت وعم تكتبي رح تصيري تستهدي، ويمكن بتصيري تعرفيني. وما تنسي إنّه الكتابة دايمًا ناقصة».

اكتسى صوتها بنبرة حزينة لمّا قالت ذلك، ثم ساد سكون. وسطه، أحسست أنّه سكون مشبوه وليس حقيقيًا، لأنّ رأسي كان يضجّ بكلّ صخب الأفكار.

رجعتُ من جديد أحاول تهدئة حالي. أمرتُ جسدي بأن يسترخي على السرير بعد أن صرختُ بعقلي أن يكفّ عن القفز والرقص وهذا الجنون كلّه. ثم لوهلة سألت نفسي ما الذي حدث؟ هذا ليس منامًا. كنت متأكّدة من أنّي لست غافية، لكن لا أعلم لماذا كنت ممدّدة على السرير بثيابي وحذائي. وكنت على يقين بأنّي لا أحلم أحلام يقظة. الكتابة لا تشبهها، وشياطينها لا أؤمن بها. تأتيني في لحظة تفكّر وتركيز، وإن كنت أرى أبطالي في

مناماتي أحيانًا، وأحلم بأنّي أكتب مرّات أخرى. لم أكن في هذه الحالات أبدًا، ولا أعرف ماذا أسمّي الذي حدث.

نهضت من سريري واتّجهتُ إلى مكتبي. أسندتُ كوعيّ فوق طاولة المكتب، وأغمضتُ عينيّ أمام أوراقي البيضاء، وضغطتُ بأصابع يديّ على جبيني، ورحت أفكّر في نهلا. ثم بحركة عفويّة وضعتُ يدي اليمنى على كتفي في المكان عينه الذي أحسست بأصابعها وهي تلكزني، حين طلبت منّي أن أكتب.

حاولتُ أن أبدأ بكتابة قصّتها، لكنّي ما استطعت. لم يكن ثمّة إمكان للكتابة. كنت مرهقة أهذي من التعب. منذ بدأت حرب تمّوز لم أذق النوم. والمعارك اليوم بين المقاومة والجيش الإسرائيلي في وادي الحجير، وفي قرى عدّة. منذ أسابيع وأنا مسمّرة أمام شاشة التلفاز، أقلّب الأقنية وعيناي كأنّهما انقلبتا وصار حجراهما داخلهما، ولون الدم صبغهما وأعماني. متابعة الأخبار شلّت قواي ودماغي. إحساسي بجلدي الذي يجمعني لم يعد موجودًا. أوصالي أحسبها مقطّعة أمامي مثل الضحايا الذين أراهم على الشاشة، ودماغيَ طحنته نشرات الأخبار، ومشاهد الأطفال الذين يُلوّحون مثل الخرق وهم يحملونهم، ثم يتحوّلون إلى أسماء مكتوبة على أكياس نايلون تفترش الأرض مصفوفة بانتظام. وجسدي أحسّ به أشلاء تحت الأنقاض، أنتظر من ينتشلها، مثل الناس الذين قضوا تحت منازلهم.

التبست عليّ الأشياء كلّها لمّا حاولت أن أبدأ بالكتابة، ولم أعد أدرك إن كنت أعرف امرأة اسمها نهلا حكت لي حكايتها لأكتبها،

أم أنّي أتخيّل حياة امرأة من بين الذين رأيتهم ينتشلونهم من تحت أنقاض منازلهم.

هي حرب مدمّرة أخرى تقتلعني من وحدتي وأوراقي وأبطالي، ومن عالم الكتابة، كما تقتلع الناس من بيوتهم. تردّني إلى الواقع وتهدّ العالم الذي بنيته. كأنّ الحرب تهدّ البناء الروائي، وليس أبنية البشر فحسب. ثمّ، كان من الصعب الدخول إلى رأسي والالتقاء بأفكاري ومواجهتها وجهًا لوجه، فالحرب تجعلها تنسحق، تمّحي أو تنطحن. ويدي كانت كأنّها مقطوعة مثل يد طفلة شاهدتها على الشاشة، ولا قدرة لي على الكتابة، ونهلا تلكزني كي أكتب حكايتها.

لم يكن أمامي سوى أن أطاوع نهلا لأقاوم موتي بالكتابة، حتى لا تتحوّل الرواية إلى اسم على أوراق بيضاء. ثم إن لم أكتب حياتها، ألن أجعلها تتحوّل إلى مجرّد اسم مكتوب على كيس نايلون مثل مصير وحيوات أولئك الأطفال والضحايا الأبرياء؟

وجدتُ نفسي مدفوعة إلى الكتابة والانغماس في عيش قصّة نهلا المليئة بالحبّ والحياة. ثم إنّ ما فاجأتني به سعاد من اختفاء نهلا ولّد لديّ رغبة غير طبيعيّة لأتابع قصّتها، وأعرف مصيرها.

لم تتّصل بي نهلا بعد عودتها من باريس حيث التقت حبيبها هاني ليقرّرا مصير علاقتهما، منذ بدأت الحرب. حاولتُ مرارًا الاتّصال بها على هاتفها النقّال لأطمئنّ عليها، والجواب كان دائمًا أنّه ليس في الخدمة بعد، أو يرنّ ولا أحد يجيب. والغريب أنّني وجدتُ على هاتفي مرّتين «مِسْد كول» منها، لم أنتبه لهما من قبل،

لشرودي الدائم عن سماع رنين الهاتف. ثم حين أعدت الاتّصال برقمها لاحقًا، لم يردّ عليّ أحدٌ. توقّعت مرارًا أن تعيد الاتّصال بي، لكنّ توقّعاتي كلّها لم تتحقّق. والأغرب أنّني كنت قد صادفت صديقاتها، عزيزة وهدى ونادين، في المقهى، مرارًا من دونها ومن دون سعاد، وانتبهت حينها أنّهنّ كنّ يحاولنَ أن يتجنّبنَ النظر إليّ. وما زادني استغرابًا أنّهنّ صرنَ فجأة يلاحقنني بعد فترة، ويسألنني إذا كنت أعرف شيئًا عن مصيرها.

إنّها سعاد التي خربطت أوراقي.

لم يخطر في بالي أن تأتيني والحرب دائرة، وتسألني إن كنت أعرف أين نهلا. في زيارتها الأولى لبيتي، لم تسألني سعاد الصامتة دائمًا غير هذا السؤال.

كانت الساعة الثامنة صباحًا عندما رنّ جرس بابي، ذات نهار من نهارات الحرب، ارتعبتُ وبوغتُّ. خفتُ أن يحمل الطارق خبرًا سيّئًا يخصّ أحدًا من أهلي أو أصدقائي، ولا سيّما أنّ الوقت مبكّر، وليس من العادة أن أستقبل زوّارًا في مثل تلك الساعة، والحرب الدائرة تحصد المزيد من القتلى والشهداء. ركضت إلى الباب. وقفتُ خلفه، وسألت: «من الطارق؟»، فجاءني صوت مخنوق، يقول:

ـ أنا...

ـ مين إنت؟

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ـ سعاد، صديقة نهلا.

فتحتُ الباب وتفاجأتُ بها. منظرها كان مرعبًا، كأنّها لم تنم منذ دهور. وجهها أسود أكثر من العادة، ولفتني أنّ عينيها بدتا بلا رموش. أمسكتُ بيدها وأجلستها على الكنبة، وطلبتُ منها أن ترتاح لنشرب القهوة معًا. نبّهتها رائحة القهوة وصوت دعساتي حين عدت من المطبخ حاملة الصينيّة وعليها ركوة القهوة وفنجانان، استعادت تركيزها وأزاحت عينيها الذاهلتين المسمّرتين على فراغ الحائط. ما إن جلستُ على الكنبة إلى جانبها، بادرتني بالسؤال عمّا إذا كانت نهلا قد اتّصلت بي. وبسرعة خاطفة حملت حقيبتها في يدها، وفي عينيها دمعتان، ثم خرجت لمّا قلت لها إنّها لم تتّصل، وإلى أين ذهبت وأين هي ولماذا ستتّصل. سؤالها لي عن نهلا أثار دهشتي وفضولي، وفي الوقت نفسه جعلني أرتاب بها. مستحيل ألاّ تعرف سعاد أين هي نهلا، فهما لا تفترقان أبدًا، ونهلا لا تُخفي عنها أسرارها، فلماذا تجهل سعاد هذه المرّة أين ذهبت توأم روحها؟ ثم إنّي استغربتُ أن تسألني شخصيًّا سعاد، وأنا التي لا أعرفها كثيرًا ولم ألتقِ بها سوى مرّات قليلة عند نهلا أيّام كانت تروي لي بحضورها نتفًا من حكايتها.

لم يكن قد مرّ أسبوع على مجيء سعاد إلى بيتي، حتى عادت واتّصلت بي تليفونيًّا، وطلبت منّي أن أراها. انشغل بالي، واعتبرتُ أنّ الموضوع جدّي، فطلبتُ منها أن نلتقي في مقهى «لينار» في الحمرا، فوافقت فورًا.

عبرت الشارع في اتّجاه المقهى عند الساعة الخامسة بعد الظهر

كما تواعدنا. كان الشارع شبه خالٍ على عكس ساعات النهار، حيث زحمة سيّارات وتجمّعات بشريّة من المهجّرين غيّرت من مظاهر الحياة العاديّة فيه، بينما القصف على الضاحية الجنوبيّة لبيروت يهزّ الفضاء والأبدان.

في «الليناز»، أخبرتني سعاد أنّها لا تعرف أين نهلا، وأنّها تفتّش عنها منذ أيّام. وأضافت وهي دامعة العينين:

ـ أنا إللّي قاهرني إنّه مستحيل تختفي نهلا بهالطريقة، ومش وجّا هالوجّ. بس ليش مختفيّة مش عارفة. هيدا شي مجنّني.

قالت ذلك ثم بلّعَت دموعها وكلامها، واكتفت بأن طلبت منّي مساعدتها على معرفة مصير نهلا ما دمتُ أنا من يكتب حكايتها، وأن أُخبرها في حال اتّصلتْ بي.

هدّأتها وطمأنتها إلى أنّه لا داعي للخوف. وبرغم شعوري بأنّها كانت تخفي تفاصيل اكتشفتها لاحقًا، كان لديّ إحساس بأنّ نهلا ستعود وتظهر قبل انتهاء الرواية، لكنّي لا أعرف متى، وكيف. ثم أعدت قراءة ما دوّنته على الأوراق وهي تحكي لي حكايتها، ربّما تكشف لي تلك الأوراق شيئًا، ولعلّي أستهدي أيضًا على مصيرها من حكايتها، فازداد إحساسي بظهورها ثانية من دون أن أعرف متى، أو في أيّ ظرف أو حالة. لكنّ الوساوس والأسئلة أخذتني من جديد لمّا عادت سعاد وصديقاتها يتّصلنّ بي ليسألنني عنها: ماذا لو أصابها مكروه في الحرب، أو راحت تحت القصف وبقيت مجهولة الهويّة؟ ترى أيمكن أن تكون قد ذهبت إلى قريتها في الجنوب قبل بدء الحرب، و«علقت» هناك وقُتلت؟ فأخبار المعارك

تقول إنّ قريتها دُمّرت بالكامل؟ وماذا لو قتلها سليم زوجها وأخفاها بعدما عرف بقصّة علاقتها بهاني، وبذهابها إلى باريس لمواعدته هناك؟ أو ماذا لو أنّها هربت مع هاني، وتريد أن تُختَبِر معه، كما قالت له مرارًا، وهي تضحك؟

ثم راحت أفكاري الشرّيرة تغزل في رأسي، وسألتُ نفسي هل يمكن أن تكون سعاد قد شاركت في قتلها، ولديها الآن إحساس بالذنب على فعلتها؟ سرحت هذه الفكرة الشرّيرة في رأسي، لمّا تذكرتُ أنّ نهلا قالت لي يومًا، وهي تضحك، إنّها تشعر بأنّ سعاد تغار عليها من هاني ومن زوجها أكثر ممّا تغار على زوجها سليمان. وحين كانت تتلقّى مخابرة حميمة من هاني، وتروح تنفرد في غرفتها لحالها لتحكي معه، كانت تشعر بغيرتها، ولا تعرف إن كانت غيرة منها، أم عليها.

لم يكن أمامي سوى البدء بالكتابة، لأتأكّد من جميع هذه الأسئلة، ولأستهدي على حياتها ومصيرها، لكنّي طمأنت حالي إلى أنّها لن تختفي طويلاً. المهمّ ألاّ تكون قد قضت في الحرب.

كانت نهلا قد اتّصلت بي قبل سفرها إلى باريس، ولقائها بهاني هناك، وسألتني متى أنتهي من كتابة الرواية. لم أفهم إذا ما كان سبب توتّرها هو السفر، أم شيء آخر. جُمَلُها لم تكن كاملة. خربطَت باسمي أكثر من مرّة وهي تناديني، ثم اختفت بعد ذلك ولم تتّصل بي.

قبل أن أبدأ بكتابة القليل الذي رَوَته لي لأستهدي على حياتها

ومصيرها، تذكّرتُ آخر ما قالته لي في لقائنا الأخير: عندما نكتب عن الآخر، نمسك بسلطة حياته، كأنّ الكاتب يحدّد تاريخ مولده ونهايته.

لو أستطيع أن أبدأ.

هل أبدأ كيف استعادت علاقتها بهاني أوّل مرّة بعد زواجها، أم كيف استعادته أكثر من مرّة، قبل أن تستردّه في منتصف خمسينيّات عمرها؟ أم أبدأ بالكلام على طفولتها وطفولة صديقاتها سعاد ونادين وعزيزة وأخيها جواد؟ أم أحكي سيرة جسدها في الحبّ والأمومة في كلّ أعمارها؟ أم أبدأ من مصيرها ومصير صديقاتها؟

لا أريد أن أطاوع لعبة البدايات.

البدايات يمكن أن تكون من المكان الذي نقرّرها فيه. قد يكون ما نفترضه بداية نصف الطريق، أو قبل أن تنتهي بقليل، لأنّ الكتابة ليست كالحكي. في الكلام طاوعتْ نهلا متعة الحكي، وفي الكتابة أبدأ حيث تطاوعني الكتابة، وهي التي توصلنا إلى البدايات، وهي التي تجعلنا نستهدي أين نجدها، وأين تنتهي إن أرادت أن تنتهي. في الحكي نستطيع أن نمسك الخيط من أوّله إلى آخره، ونستطيع أن نغيّر ونستدرك، وذلك ما لا نستطيعه في الكتابة، لأنّ الكلام عندها سيكون محكومًا بالمحو حتمًا، وبالخوف من النسيان الذي كان يُرعب نهلا. نهلا التي لفتني، منذ اللحظة الأولى للقائي بها، إحساسها الكثيف بجسدها. شعرت بذلك في مشيتها وحركة جسمها وجلستها وطريقة كلامها، وهي تحكي لي حكايتها.

أوّل ما حدّثتني عنه نهلا هو النسيان.

قالت لي مباشرة يوم التقيتُ بها، وهي تميل برأسها وحركة عينيها، إنّها نهضت صباحًا من السرير وقفزت في اتّجاه الحمّام. راحت وهي واقفة مغمضة العينين تحت الدوش، تتذكّر منامها في الليل، تفرك شعرها المبلّل بالماء والشامبو بقوّة، كما لو أنّها تحثّ دماغها على التذكّر، لكن عبثًا. يداها كأنّهما لا تحيطان إلاّ بجمجمة عظميّة في داخلها ما يشبه غيمة بيضاء وقع منامها فيها وتاه عنها. فتحتْ عينيها فحسبت أنّ البخار الذي يملأ الحمام بدا مثل ضوء صباحي مشرق وناصع قياسًا إلى لون الضباب الكثيف الذي يغبّش ذاكرتها.

ـ لستُ أدري لماذا أنسى كثيرًا، ولم تعد ذاكرتي تفور بالحياة كما جسدي. أنا الآن في هذا العمر، أشعر بأنّ الواحد منّا يدخل هذه الدنيا بذاكرة بيضاء، ويخرج منها كذلك مثلما يدخلها على الأكفّ، ويخرج محمولاً عليها أيضًا. يدع ذاكرته في الدنيا ويرحل بدونها. ومحظوظ إذا ما أودعها بين يدي كاتب ليحفظها، حتى لا تنزوي وتضمحلّ، وتلقى مصير جسده وعظامه.

وماذا عنك، هل بدأتِ تنسين أيضًا؟

هززتُ لها رأسي وابتسمت ابتسامة ساخرة تؤكّد لها أنّني للأسف صرتُ مثلها أنسى. أخذَتْ مجّة عميقة من سيجارتها، ثم سألتني وهي ترفع طرف غرّتها الملتصقة شعيراتها بجبينها لكثرة تعرّقها:

ـ ألا يُخيفك الأمر، خاصّة أنّك كاتبة؟ وكيف ستكتبين إذا بدأت الذاكرة تخونك؟

سألتني ذلك، وكلّها خوف أن أنسى ما سترويه لي من حكايتها،

وما تستطيع أن تتذكّره. طلبت منّي أن أكتب قصّتها وحكاية عشقها الأبدي لهاني، وعن المفاجآت التي يحملها الزمن مع التقدّم في العمر، الزمن الذي قالت عنه إنّ له رائحة كالمكان تمامًا. تشتمّه في رائحة الشيخوخة المخمّرة، وفي رائحة أحفادها الطازجة والشهيّة، وفي جميع الأجساد والأشياء. وكانت تقطع حديثها بين الحين والآخر لسؤالها لي، بعد تنهيدة عميقة تطلقها:

ـ هل ينتهي الحبّ حين تنتهي الحكاية؟

سألتني أشياء كثيرة يوم دعتني أوّل مرّة إلى شرب القهوة في منزلها. يومها تفاجأتُ بدعوتها لأنّ معرفتي بها كانت عابرة. لم أتردّد في زيارتها، كانت رغبتها في لقائي شديدة الإلحاح في صوتها الدافئ الذي تجرحه بحّة رفيعة وحنونة جدًّا. حين سألتها لماذا لا تكتب هي حكايتها، ارتبكَتْ قليلاً قبل أن يتوه صوتها ويضيع في الكلمات التي تبحث عنها. قالت إنّها لا تستطيع أن تكتب قصّة حبّها لهاني لأنّها متزوّجة. وقالت إنّ للنساء أسرارًا لا يستطعنَ البوح بها بصراحة.

ثم قالت إنّها شاعرة وليست روائيّة، وإنّها كتبت بعض المذكّرات أيّام طفولتها أخفتها مع قصائدها تحت التراب في حديقة منزل أهلها وهي طفلة.

وأخبرتني أنّ ثمّة بعض القصاصات والاعترافات، لكنّي لم أفهم ما إذا كانت قد كتبتها وأخفتها مع سعاد، أم أنّ صديقتها هي التي كتبتها. لكن بعد تردّد وصمت، قالت لي إنّها تحلم بأن يروي

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

حكايتها أحد غيرها لتكتشف حياتها من جديد. وكانت تلمع عيناها وتستعيد إشراقها حين تحكي عِن جسدها، وكيف تكتشفه في منتصف العمر مثلما اكتشفته في جميع أعماره. وهو الآن ملكها كما كان دائمًا، وليس ملك الخوف الذي حاربته وعزلته عنه طوال حياتها.

لا أدري لماذا حكّت كثيرًا عن النسيان. بعدما شبّهته بالبياض، عادت وسألتني: لماذا يظلمون البياض ويشبّهونه بالنسيان؟ كيف يمكن أن يكون مؤشّرًا إلى الموت، والثلج الشهي أكثر ما أحبّ أن أفرشه تحت أسناني؟ أشعر حينها بمتعة لا توصف. الثلج الذي يُنعش الروح ويطفئ النيران أبيض. ضوء الفجر، أوّل خيط من خيوطه أيضًا أبيض. رائحة الصابون بيضاء. لماذا لا يتحدّثون عن سواد الذاكرة، وشريط كاميرا أسود محترق؟ لماذا لا يُقال سواد الذاكرة أو أيّ لون آخر؟ لمَ يكرّر الناس ما يقوله الآخرون؟

وأكثر ما صرتُ أنساه هو الأسماء. أفعل ذلك مثلما كانت تفعل أمّي، قالت لي.

حين كانت في منتصف العمر، وكانت نهلا لا تزال طفلة، لم تكن تفهم لماذا كلّما نادتها تتوالى على لسانها أسماء خالاتها، حتى تعثر على اسمها ويستهدي لسانها إليه. كان الأمر يُثير استغرابها. يجعلها تشعر بأنّها لو كانت تحبّها لما نسيَت اسمها كما لو أنّها غريبة عنها. وأمس، خُيّل إليها، وهي واقفة أمام المرآة عارية، أنّها ترى أمّها في جسدها، وأنّها تكتشفها فيه في هذا العمر.

لا شيء يقاوم الشيخوخة غير الحبّ، على رأي هاني، قالت وهي تبتسم. ثم خفّتَ صوتها وشابَهُ بعض الحزن لمّا أضافت: بسّ، الحبّ بدُّه صحّة وبدُّه جسم. والجسم إلُه وقت للأسف. جهاز غامض بأسراره، وما متعرف أيمتى بتوقف ساعتُه.

سأروي لك هذا الحبّ كلّه، فهاني هو دنياي وغرامي، واليوم الذي لا أراه في منامي أمرض. لكن لا تغيّري شيئًا في كتابة القصّة، فأنتم الكتّاب تكذبون وبتدخّل خيالكم في الحكاية. وأعرف أنّك غيّرت مصير «دنيا» في رواية «دنيا». لا، أنا أريد قصّتي كما هي. وصدّقيني حين تكتبين حكايتي ستروين ما هو حقيقي وليس ما هو روائي، ليعيش غرامنا أبدًا في الحكاية، قالت.

وقبل أن تبدأ بالحكاية، أضافت أنّ أشياء كثيرة سيقرأها هاني، فثمّة كلام كثير لم أقله له بعد.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

ـ ٢ ـ

أنا مشوّشة.

أشياء كثيرة أنساها، ثم أعود وأتذكّرها في أوقات أخرى. أتذكّر هاني وأنساه، لكنّه لا يغادرني أبدًا. يختبئ في مكان فيّ، صامتًا أحيانًا، وهادرًا في أحيان أخرى، لذا، بقيت أحبّه.

تزوّجت برجل آخر، وظللت أحبّه.

كأنّ حبّنا وُلد قبل أن نولد.

خضت في وحول الشعر والعهر واشتهاء رجال كُثر، وبقيت أحبّه. وُلد أناس كثر، ومات أناس أكثر وبقيت أحبّه. يحدث أن يقع الملايين من البشر في الغرام بأناس جدد في كلّ لحظة، وأن تُرتكب ملايين الخيانات في اللحظة ذاتها، وأبقى أحبّه. أنجبت صبيًّا وبنتًا، وصار لي أحفاد وحفيدات... وظللت أحبّه.

يغيب هاني عنّي أحيانًا. أقصد، كنت أحيانًا أنساه، ولا أعود أتذكّره أبدًا لأيّام وأسابيع، وربّما لشهور. لكنّه كان دائمًا يعود. يأتي إليّ كأنّه لم يُفارقني سوى البارحة. يحضر أمامي فيتأهّب جسدي، يرتعش محمومًا من شهوة، شهوات فاتتني. تلفحني أنفاسه. أحسّ بأنّها تطلع من كلّ عرق في جسده. ويرقّ قلبي... يرقّ مثل ورقة سيجارة، ويعتريني للحظة ذهول لذيذ ممتع وسخيّ،

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

بشبه ذهول الأمّ لحظة يشرق عليها ابنها بعد غياب.

أشعر كأنّني أمّه، أمّه التي ولدتْه وربّته وكبّرته وأحبّته حُبّها لجزء منها. هاني ليس جزءًا منّي. بل هو كلّي، كلّ أجزائي. هو ليس حبيبي وحسب، بل رفيقي وعشير روحي، وابني، وشيء آخر، شيء لا أعرف له اسمًا ولا صفة، سوى أنّ اسمه الغرام. يُرعشني التفكير فيه مثلما يُرعشني لقاؤه، سواء أتلامسنا أم لم نتلامس. ويصير قلبي يزغرد بأنواع من الحبّ، لكلّ نوع لون ورائحة وصوت.

لمّا يعانقني تعود إليّ روحي، وأشعر بأنّها المرّة الأولى التي يتعانق فيها جسدانا. ليتني عانقته أكثر بكثير ممّا فعلت. ليتني شبعت منه عناقًا، حتى لا أحسّ بمثل الوجع الذي أشعر به الآن. ليتني سرقته أو ليته سرقني، ولم يعد ممكنًا أن نفترق.

استعادة الحبّ الذي حُرمتُ منه وهبتني سعادة لن أدع أحدًا ينتزعها منّي، لا ثانيةً، ولا ثالثةً... ولا عاشرة. لم أُغرم بأحد سواه في حياتي. العلاقات العابرة القليلة التي أقمتها، علّمتني أنّ الجنس بلا حبّ هدر للجسد، وتضييع له، بينما الحبّ يجعلنا نعثر عليه ونجده. وأنا لا أحبّ هدر جسدي، ولا هدر الكلام، ولا إهدار أيّ شيء، حتى إنّني أحبّ حوافّ الخبز، وحوافّ كلّ الأشياء.

قلت ذلك مرّة لسعاد، لها وحدها أحكي كلّ شيء. عداها، أشعر برغبة في أن أحكي لأطباق الورد على شرفتي، المضمومة أوراقه. الأسبوع الماضي ذهبت إلى القرية لأقرأ الفاتحة على

ضريحَي أمّي وأبي. مررت على دارنا. نادتني الرمّانتان المتجاورتان بمحاذاة البركة، واحدة تحمل أكوازًا حامضة، وأخرى أكوازًا حلوة. تملّكتني الرغبة في أن أحكي أوراقهما أيضًا، لشعوري بأنّني أستطيع أن أخبّئ الحكي فيهما، لأنّ أوراق الرمّان مضمومة وغير منبسطة مثل أوراق الشجر. ثم إنّ تحت إحدى الشجرتين مدفونة قصائدي، التي كتبتها وأنا يافعة خوفًا من أمّي وأخي جواد. ضمّنتها مشاعري كلّها تجاه حسّان، يوم وقعت في حبّه. هذه اللحظة أحسُّ بأنّ كلّ مشاعري السابقة لم تكن آنذاك إلاّ تمرينًا على ما أحسّ به تجاه هاني.

لن أخسره هذه المرّة، ولا يهمّني إن طلّقني سليم، زوجي، أو قتلني. لن يقف في وجهي شيء بعد. ولداي تزوّجا، وحياتي وجسدي عادا إليّ، وعلاقتي بسليم صُوريّة منذ وقت طويل، وقبل أن يتزلق جسده إلى محيطات الشيخوخة ويغرق فيها. لقائي بهاني في باريس لن أفوّته. ومن يدري ما الذي سيحصل بيني وبينه هناك. ربّما نتّخذ قرارات، وربّما نُحدث انقلابًا في حياتنا. ولا يهمُّ إن كنّا قد بلغنا منتصف العمر.

قبل أن يتّصل بي منذ يومين، كان مضى حوالى عشرين يومًا لم أره خلالها بسبب انشغالاته بفحوصاته الطبّيّة بعد خروجه من المستشفى. كنت وحدي جالسة على الشرفة أتأمّل البحر. كم عمره هذا البحر، وهل يتغيّر مثلنا؟ فكّرتُ. كم تبدّلتُ في هذا العمر، وقد شارفت على نهاية خمسينيّاتي، لم أعد أحتمل الضجيج ولقاء

أناس كُثُر. ولم أعد قادرة على التنازلات. صرت أعرف ما يُريحني وما يزعجني، لكنّي كلّما وشوشت سعاد، أصير أتذكّر جدّتي وصديقتها جميلة اللتين كنت أراهما وأنا صغيرة تتوشوشان وتضحكان. تهزّان أكتافهما بدون صوت. لم أكن أعرف ماذا تحكيان. كان صوتاهما يذوبان وسط السكينة والصمت، لم يكن يقطعهما سوى أصوات الزيزان. وأمامي على الشرفة ارتسمت وجوه النساء الوحيدات ونظراتهنّ التي تسأل وهنّ جالسات على مصطبة القرية في الساحة، ما الذي بقي لهنّ بعدما تزوّج أولادهنّ، ومات أزواجهنّ؟ لا أدري أيضًا لماذا تذكّرت زوجة الراعي. كانت تزورنا أيّام طفولتي وقد صارت وحيدة إثر رحيل زوجها وزواج أولادها. أتذكّرها تجلس على الطرّاحة إلى جانب أمّي وتمدّ رجليها، تمسّد عليهما، ثم تقول: «آخ، آخ»، وتسكت. تفعل ذلك مرّات عدّة، قبل أن تعود إلى بيتها. سألت أمّي مرّة، لماذا تأتينا كلّ مساء من بيتها البعيد القائم على أطراف البلدة لتفعل ذلك، فأجابتني بأنّ البشر يشتهون رائحة بعضهم البعض ليتونّسوا، وهي تأتي إلينا لتشمّ رائحة الناس، ثم تعود إلى بيتها حاملة معها صرّة من رائحة الأنس.

لاحت صور أولئك النسوة أمامي، وخفت حين فكّرت في أنّ الرغبة في الانسحاب من العالم، والتوحّد، قد بدأت بالانقضاض عليّ في هذا العمر، وليس هذا إلاّ انزلاقًا نحو الموت. وخشيت أكثر حين تملّكني الشعور، الذي ينتابني أحيانًا، بأن لا ذاكرتي ولا جسمي يطاوعانني، ثم أنتبه فجأة إلى أنّهما معي، لكنّي أعجز عن

الإمساك بهما. لست أدري إن كانت الشيخوخة أرحم، لكنّ عبء متوسّط العمر يكون أحيانًا مرعبًا. أستعيد حالي أيّام شبابي لأبدّد الرعب، أحاول أن أتقمّص جسدي الماضي، أن ألبسه من جديد، فأشعر بأنّه لم تعد في وسعي استعادة الأصل، وأنا حين أفعل ذلك أصير مجرّد ظلّ: ظلّي الذي كنت أراقبه تحت الشمس وأنا صغيرة، وألعب معه بمتعة لامتناهية. أراقب كيف صار طويلاً، ومتى قصر ونحف وصار أشبه بخيط، وأنا أزيح جسدي في كلّ الاتّجاهات، وأحتار أيّ ظلّ أريد أن أكونه، أو أتساءل أحيانًا إذا ما كان ممكنًا أن تكون لي أشكال لامتناهية من الظلال، أم سيبقى شكل واحد لظلّي.

أحيانًا أشعر بأنّ الشباب قشرة تهرّ وتروح، ولا يبقى إلاّ الذكريات التي تعبر هي أيضًا. وبرغم ذلك، لا أشعر أبدًا بأنّي أشبه ضمّة من عيدان الزهورات اليابسة، وأنّ العالم كذّاب ولئيم وقاسٍ وأنانيّ، كما قالت لي سعاد. أحسّ بأنّي مثل ضمّة الأزهار النضرة التي كنت أقطفها من الوديان وأنا صغيرة، أريجها يملأ المكان، ثم إنّي متصالحة مع جسمي، كما تصالحت معه في كلّ أعماره بل ربّما أكثر.

جسمي الذي أحببته حبًّا هائلاً، حبّي لحياتي، كنت أحسب أنّه نظيف وكريم عليّ وعلى هاني. حتى حين أقمت علاقات عابرة، لم أشعر بأنّي امتهنته. كثيرًا ما فسّرت ذلك لسعاد وقلت لها «من وين لوين أنا عم بمتهنُه. أنا عم عيشُه، وعم أعطيه حقُّه ليضلّ يحملني». كنت أحسب أنّ جسمي صندوق أسرار، صندوق كبير

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

وصندوق مليان. وكلّما تعرّفت إليه الآن في منتصف العمر، فاجأني.

كان تعرّفي إليه عميقًا وحميمًا إلى حدّ اعتقدت فيه أنّه لن ينتهي أبدًا. والآن أفهمه أكثر، وأعرف ما أريد، وسعيدة بما أريد. ثمّة أحاسيس لم أدركها أيّام شبابي، وإن كانت تحضرني الرغبة أحيانًا في استعادة شبابي حين أقف أمام المرآة، لكن ذلك لا يكون سوى للحظات تعبر.

الأفكار كلّها انزاحت من رأسي حين رنّ جرس هاتفي، وقال لي هاني إنّه قرّر السفر إلى باريس. صديق حميم له يعمل طبيبًا في أحد مستشفياتها، طلب منه القدوم إلى هناك ليُجري له فحوصات طبيّة. وسألني إن كنت أستطيع السفر لنلتقي هناك.

زقزق جسدي مثل عصفور يغرّد. دبّت الحياة في أوصالي وكدت أطير فرحًا، وافقت فورًا لأنّني سوف أطمئنّ على هاني، ونقرّر مصير علاقتنا. مَن يعلم أيّ قرارات ستتّخذها. ثمّ إنّني سأرى ابني في الوقت ذاته، فشوقي إليه كان كبيرًا. أحمد الذي يعيش في باريس منذ زواجه، ويعمل في الشركة التي يملكها حموه، وهو صديق لسليم، كان هاجر إلى باريس في بداية الحرب الأهليّة عام ١٩٧٥، وصار مواطنًا فرنسيًّا، وصاحب شركة كبيرة للشحن وتخليص البضائع.

جهّزت حقيبتي، كلّفني تحضيرها وقتًا. محتوياتها نبّهتني إلى أنّي

تقدّمت في السنّ. نصف مساحتها امتلأ أدوية وفيتامينات وكريمات مزيلة للتجاعيد، وأشياء أخرى لم أكن أحتاج إليها في حقيبة السفر أيّام شبابي.

ركّزت اهتمامي على «الأندرويير» وثياب النوم هذه المرّة. سألتقي بهاني في الأوتيل الذي أعطاني اسمه وعنوانه.

قصدت أن أتسوّق برفقة هدى التي فاضت أنوثتها الآن، وصار لجسدها الأولويّة في هذا العمر، لتعطيه ما بقي له ولها من الحياة. قالت لي إنّها لم تعد تقوم بأيّ تنازلات. لا تسمح لنفسها بالإحساس إلاّ بالطريقة التي تعجبها. لم تعد ترتدي «الأندرويير» القطني، بل صارت تختار ما يُبرز أنوثتها، وتحسب أنّه صار يليق بها أكثر برغم أنّ جسدها لم يعد مشدودًا كالسابق، واكتسب وزنًا زائدًا. صارت تعرف جسمها أكثر، وتهتمّ بتفاصيله. لا تتنازل عن الكريم المعطّر، وتحاول أن تصل إلى كلّ سنتيمتر في ظهرها لكثرة ما صارت تعنيها نعومة بشرتها. أصبحت تفتّش عن أحلى كولون في الشتاء برغم أنّه كان في السابق يليق بساقيها أكثر، إلاّ أنّها صارت مرتاحة لحالها أكثر. حين سَمُنت، غدت تتجنّب أن تنزع تنّورتها وكولونها أمام طارق زوجها قبل أن يبدآ بممارسة الجنس. تدع ذلك إلى حين فوران الرغبة، وإطفاء الضوء، ودخول جسديهما في العتمة، إلى أن جاءها مرّة بأسلوب جديد لا تعرف إن كان شاهده في السينما، أو تعلّمه من امرأة غيرها. لم يهمّها الأمر، ولم تبالِ، كما قالت لي. همّها أنّه ركع أمامها، ونزع عنها كولونها، ثم بدأ يقوم بمداعبات حسّاسة بين فخذيها بيديه، ثم

بفمه، صعودًا إلى فوق. ذابت، بل ارتعشت كورقة. ومنذ ذلك الوقت، اكتشفت أنّ الإحساس ليس في الأماكن الجميلة في الجسد فقط، وصارت تحبّ فخذيها، وتضحك حين يضربها طارق على جنبيها، ويقول لها:

ـ كيف هالجمبونات مناح؟

ذهبت هدى معي إلى السوق، واشتريت تفريعات من الدانتيل والشيفون باللون الأسود الذي يليق بي ويعشقه هاني عليّ. أخذ ذلك منّا وقتًا. كانت البائعة تنظر إليّ وتبتسم، وأنا أجرّب موديلات ومقاسات ثياب النوم، وتقول لي بالتأكيد سيعجب زوجي، فأبتسم لها بدوري، وأسألها ما إذا كانت تعتقد ذلك حقًّا.

الحقيقة، لم أهتمّ بشراء الثياب الحميمة تلك للإغواء فقط، فأنا أدرك أنّي أغوي هاني بأحاسيسي أيضًا، التي صرت أدركها أكثر في هذا العمر. طوال عمري، أولي جسدي اهتمامًا: أدلّله، وأحبّ فيه المواطن الجميلة وغير الجميلة. الأوقات الوحيدة التي أهملته فيها فقط، كانت في سِنِي انشغالاتي بأحمد وفاتن. كنت أستحمّ بسرعة لأخرج إليهما، وآكل بسرعة لأطعمهما.

الآن، بعدما كبرتُ، عاد جسدي إليّ. عاد الإحساس بكياني. لا يهمّني ما عمر هذا الجسد، فأنا سعيدة به كما كنت فرِحة به في مراحل عمري كلّها. عندما أغنّي أحيانًا أشعر بأنّه يزقزق ويغنّي معي. لا أدري لماذا ترمقني سعاد بنظرات غامضة أحيانًا حين أفرد ذراعيّ مثل طير يرفرف وأنا أغنّي وأرقص. فعلتْ ذلك مرّات عدّة، ثم تشرد وتصير غائبة عن السمع حين أحكي لها عن جسدي

وعلاقتي بهاني. مرّة اعترفَت لي بأنّي لا أنتبه إلى ما يصيبها. تشعر بأنّها صغرت، تضاءلت، وأنّ جسدها صار حبّة قمح، عدس، فول. كرهته. يُشعرها بأنّه أقلّ منها بكثير، وأنّه لا يطاوعها لأنّها سكتت عليه ورضيت له الذلّ. حين جاءتني بعدما استعدتُ علاقتي بهاني، حكيت لها عن اللقاء، ثم رحت أدندن وأغنّي. تحرّكت شفتاها قليلاً لتغنّي معي ثم تجمّدت. ولمّا نظرتُ إلى وجهها الشاحب، بدت لي مثل عصفور يقف على شجرة يغطّيها الثلج وسط صقيع لا يُحتمل، يبقى صامتًا ساكنًا، لا يجرؤ على التغريد خوفًا من أن يتجمّد تغريده.

كان هاني أوّل من عرّفني إلى جسمي، وجعلني أكتشف كلّ تفصيل فيه. أوّل مرّة لامسني ولفحت أنفاسه أذني، سرَت فيّ قشعريرة لذيذة، وصرخت، فقال لي: «يا ملعونة كمشتك». صالحني هاني مع مؤخّرتي الهابطة قليلاً، وفخذيّ الممتلئتين، فالله لم يعدل ولا مرّة حين خلقهما، وعوّض عليّ بوجه جميل، وخصر نحيف، وثديين مكوّزين، هما أكثر ما يجذبان ويحكيان بجسدي. وفي كلّ مرّة، وفي كلّ مرحلة من مراحل عمرينا التي التقينا فيها، كنت أبلغ مشاعر لم أعرفها سابقًا، وما كنت لأبلغها بدونه. الآن، في منتصف عمري، اكتشفت معه أحاسيس رائعة كنت أجهلها.

قبل أن أضع «الأندرويد» في الحقيبة، رحتُ أقيسه في البيت. ضربتُ على رأسي وصرخت: يا إلهي. كيف أعدّ نفسي لهذا الاحتفال بجسدي، وهاني يتناول أدوية ومسكّنات لكهرباء قلبه

ودماغه، تهدّ حيله وتُثبّط عزيمته، عدا عن أنّ الانفعال العاطفي قد يؤذيه بعد النوبة القلبيّة التي هاجمته.

حاصرتني الوساوس وانقضّت عليّ الأفكار السوداء، راحت تتلاعب بي. الخوف من أن يُصيبه شيء تلبّسني، فماذا لو توقّف قلب هاني، لا سمح الله، وهو يمارس معي الجنس، أو أصابته كريزة أو أيّ مكروه؟

تخيّلت يديه ورجليه اللتين تحملان جسده وهو فوقي، تهتزّان، ثم يقع عليّ وقد توقّف قلبه. تسمّرت في مكاني على الكنبة، ورحت أسأل نفسي، هل أنتحر إلى جانبه وأنا التي أحبّه إلى درجة العبادة لو أصابه شيء، أم أتّصل فورًا بالاستعلامات، وأطلب الإسعاف، وأنفضح؟ لا، قبل أن أفعل ذلك، سألبسُه ثيابه. لكن، كيف سأستطيع تحريكه وحدي؟ أيمكن أن يدفعني الخوف إلى الهروب من غرفته بدون وعي منّي، وتركه وحيدًا عاريًا مسجّى على السرير، والزكض في الممرّ للوصول إلى غرفتي؟ لا، بالتأكيد سأندم إن فعلت ذلك، وسأعود من آخر الممرّ ركضًا أيضًا إلى غرفته لأطلب الاستعلامات. لكن، ماذا أفعل حينها عندما أجد باب غرفته مغلقًا؟ هل أعود وأطلب «الريسبشن» من غرفتي، أم أهرب من الأوتيل كلّه، أم أنتحر في غرفتي؟

يا إلٰهي، ما هذه الأفكار الجهنّميّة؟ هل يغلب الخوف الحبّ إلى هذه الدرجة؟ وكيف أفكّر في هذه الأمور، وهاني حياتي، بل أغلى منها.

هربتُ من أفكاري لأتخيّل سخونة جسده، وإحياء اللحظة الجميلة

التي ستجمعنا، ولعنت نفسي بعدما فكّرت في أنّ الحبّ يولّد دائمًا الوساوس والخوف على من نحبّ. فكم تخيّلت فقدان ولديّ، وكم رأيتهما في مناماتي تائهين وضائعين، أو ميّتين، فأفيق من نومي مذعورة والدموع تملأ عينيّ، وأشكر ربّي لأنّ ذلك لم يكن إلاّ منامًا.

لا، هاني بخير، والطبيب طمأنه إلى أنّه عارض صحّي سيعبر، واللقاء سيكون جميلاً، وقرارات أساسيّة ستتّخذها في شأن علاقتنا هذه المرّة. وهدأت أكثر حين تذكّرت أنّه سأل الطبيب بعدما انفرد به إثر خروج زوجته وأولاده من الغرفة في المستشفى، إذا كان الجنس مسموحًا له، فأجابه:

ـ إيه فيك، ما بأثّر. بس ما تكثّر. وعلى كلّ حال، جرّب، بسّ بعتقد الأدوية اللي عم تاخدها بتهدّ حيلك، ولا ممكن تظبط. المهمّ ما تاخد فياغرا، أو شي تاني.

تنفّست الصعداء وارتحت بعدما تذكّرت أيضًا كم كان لقاؤنا جميلاً وحميمًا بعد خروجه من المستشفى. تكويزة شفتيه لم تكن تكتمل لحظة تقبيلي لارتخاء شفته قليلاً بسبب الجلطة. رحت أقبّله في الزاوية المرتخية، هي أكثر ما اشتهيته فيه تلك اللحظة، بكلّ حبّ وشغف وحنان. أبلّل ريقه الناشف بريقي، ورائحة الأدوية تفوح من فمه، أتنشّقها كما لو أنّها رائحة زهور وبخور جميلة، ثم أقبّل خدّيه اللذين ارتخى جلدهما. وفي حال كان هاني تعبًا في باريس، فلن أسمح بأكثر من الجلوس في حضنه، وأن نتلامس ونتعانق ونحكي.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

وما أحكيه معه لا أحكيه إلاّ مع سعاد الأقرب إليّ. ثم إنّي اكتشفت بعد استعادة العلاقة مع هاني في هذه السنّ، أنّ كلّ الحبّ هو مشوار الحبّ، وأنّ العزف هو المهمّ وليس الآلة. كلّ عضو فيه له عزفه الجميل في الحبّ. وإن كنت قد تذوّقت طعم قبلته في هذا العمر، فبودّي أن أتذوّقها منه حين أبلغ الشيخوخة. زوجي امتنع عن تقبيلي بعدما بلغها، بل حتى قبل أن يبلغها، ولم أحزن لذلك، بل بالعكس. ولا أدري إن كنت أحلم بطعم قبلة الحبّ مع هاني في الشيخوخة لسرقته في هذا العمر أو لأطمئن نفسي، وأتأكّد من أنّ الحبّ سيظلّ موجودًا.

لكنّ الغريب أنّي طوال الطريق إلى المطار، ثم في باحته، تملّكني إحساس بأنّني نسيت أشياء لا أعرف ما هي. هذا الشعور بالنسيان أربكني وأشعرني بالفقدان والضياع. أجهدت تفكيري، فلم أستطع التذكّر، ففقدت شيئًا من الشعور بالسعادة في هذه اللحظة، هجم عليّ الإحساس بالخوف، والهجس به. لكنّي استرددت رباطة جأشي بعدما أدركت أنّني ذاهبة في الاتّجاه الذي يقودني إلى هاني. والذي عاد ليملك الآن جميع الاتّجاهات، والقدرة على تسييرها كلّها.

في الطائرة رحت أستعيد علاقتي به، بل كلّ حياتي. أمرٌ غريب كيف بالقليل من التذكّر نستطيع أن نحشد سنوات... بل عمرًا بكامله.

ـ ٣ ـ

انفصلنا سنوات كثيرة متباعدة، والتقينا على مسافات بعيدة. ثلاثون سنة هرّت عن جلدي حين استعدتُ علاقتي به منذ حوالى سنة تقريبًا، أي في ربيع عام ٢٠٠٥. كنت مثل ذئب جائع لأراه ويراني... أن نتلامس ونتعانق، ليعود هذا الإحساس بالدفء إلى يديّ... لتعود إليّ يداي.

ما هالني أنّني في الأيّام الأخيرة تلك، كنت أستيقظ من النوم واسمه في فمي، كما لو أنّ لعابي تشرّبه.

كانت ثمّة أشياء غريبة تحدث معي. ثمّة إحساس يُنبئني بأنّي سأراه، وإحساسي لا يخطئ، إذا تعلّق الأمر به، أو بولديّ.

غيابه كان يولّد جروحًا قريبة من اللحم لا يمكن وقف نزفها.

كان البيت خاليًا ذلك الصباح. الخواء الذي شعرت به كان كبيرًا. أحسست به رطبًا وباردًا في جسدي، وتلمّسته في هواء البيت، وحتى على قطع الأثاث، وراح يعمّق إحساسي بالفراغ. الشوق إلى وقع دعسات ولديّ وإلى صوتيهما في البيت، دفعني إلى البكاء، فأجهشت بصوت عالٍ، وبدون توقّف، حتى أفرغت كلّ ما في صدري من شَجن، قبل أن أنهض وأغسل وجهي وأدعو لهما بالتوفيق في حياتهما الزوجيّة.

فاتن وأحمد تزوّجا، وأخذا معهما تفاصيل أكثر من ثلاثين سنة من حياتي. حين جاء أحمد في الصيف الماضي من باريس، ملأ البيت حياة. وطوال شهر إقامته، كانت فاتن تأتي هي وزوجها وابنتها لتتناول الغداء معًا يوميًّا. كان يجلس كلٌّ منهما إلى الطاولة على الكرسي ذاته الذي كان يجلس عليه قبل زواجه، يتناكفان ويضحكان مثلما كانا يفعلان وهما صغيران. كدت أبكي لشدّة شعوري بالفرح لوجودهما الذي أفتقده حولي، ووجود حفيدتي التي كلّما جاءتني مع أمّها تُحدث جلبة وفوضى في البيت، وتدبّ الحياة فيه. لطالما قلت لسعاد إنّي قد أكون كاذبة إذا ما ادّعيت أنّ اللحظات الوحيدة التي أنسى فيها هاني هي عندما ألاعب حفيدتي وأكون معها. رحت ألاحقها في البيت وقلبي يفيض بغبطة لم أشعر بها من زمان. أذكر أنّه أخذني وقت طويل لأعتاد على غياب ولديّ. فبزواجهما حسبت أنّ أحدًا ما انتزعهما انتزاعًا من حضني وأخذهما بعيدًا عنّي لأعود أنا وسليم وحدنا في البيت. وسليم لا يحكي إلاّ عن الأطعمة الصحّيّة، ولا يقرأ إلاّ عنها، منذ أن أُصيب بالكوليستيرول والسكّري والبروستات وارتفاع الضغط.

في ذلك الصباح، أدرت الموسيقى الكلاسيكيّة في الصالون كعادتي يوميًّا، ورفعت الصوت كي تسمعها شتلات الزرع المتنوّعة قبل أن أخرج إلى الشرفة لأسقيها، مستبقةً بذلك مجيء سعاد. فاليوم السبت، وستطرق بابي لنشرب القهوة معًا، ما دامت أبواب الجامعة مغلقة نهاية الأسبوع.

ابتسمتُ بعدما تأمّلتُ طيرَي الحبّ في القفص على الشرفة. جلبتهما الأسبوع المنصرم لتسعد بهما حفيدتي، فأنا لم تكن لي علاقة إلاّ بالعصافير التي كنت أراقبها وأنا صغيرة، تطير في فضاء القرية، وتتنقّل بغنائها في الحقول وعلى أغصان الشجر والمزروعات. ثم رحت أحكي مع شتلات الزرع وأنا أسقيها، تاركةً ملامستها إلى غير الأوقات التي أسقيها فيها، كما أفعل عادة. غازلت كلّ نبتة. حكيتُ معها ما ترغب في سماعه من الكلام، وما تحتاج إليه من حبّ. خاطبت نبتة الأضاليا المزهوّة والمخضرّة أوراقها، وقلت لها: «يا عيني ما أحلاك، ريتك تُقبريني شو بحبّك». الغاردينيا الذابلة أحزنتني، فواسيتها: «يا حبيبة قلبي، مين زعّلك؟ شو بكِ؟ يا الله، اضحكي وانتعشي وفتّحي أوراقك مثل القمر. وإذا مش عاجبك محلّك رح غيّرلك ايّاه، يمكن تستأنسي حدّ نبتة ثانية أكثر».

أزحتها وغيّرت مكانها. تأمّلت أطباقها التي أشعر بأنّها تكبر، وتتفتّح حين ألمسها برفق. وفي أحيان أخرى، كنت أحسّ بأنّ ملامستها تجعلها تُطبق على حالها. تذكّرني بحالي حين يحتضنني هاني، فأشعر بأنّي مثلها لحظة أتكوّم في صدره، ليس خجلاً، لكن إحساسًا بلملمة أجزائي في حضنه. رائحة الحبق قاحت ما إن اقتربت منها لأسقيها. شعرت لحظتها بأنّ رائحة الزهور والشتل أشبه بسلام أو تحيّة تُلقيها للبشر، أو قبلات ترسلها حبًّا وترحيبًا بهم. وعشقي خاصّ للحبق. حرصت دومًا على أن يكون مكان أصيصها إلى جانب الكنبة التي أجلس عليها في الشرفة. شردتُ وأنا أسأل نفسي عن سبب غرامي برائحتها. هل لأنّها تذكّرني

برائحة الحبقة التي كانت بجانب شجرة الرمّان في دارنا في القرية، حيث كنت أدفن تحت التراب هناك، كتاباتي وقصاندي أيّام طفولتي، أم لأنّ رائحة جدّتي وصديقتها جميلة كانت دائمًا ممزوجة برائحة الحبق، تنفذ عميقًا في أنفي حين أجلس في حضن إحداهما، وصرت أقرنُ رائحة الحبق برائحة جسميهما.

سعدتُ وأنا أسقي شتلات الزرع الجديدة التي جلبتها من النوع غير الحسّاس للزمن، ويعمّر طويلاً.

فعلتُ ذلك برغم عشقي للنباتات الموسميّة المزهرة والشتل الجميل لكن القصير العمر، والذي لم أعد أرغب في جلبه. لم أعد أحتمل في هذا العمر فكرة الفقدان والموت، منذ أن كثر الموت من حولي، ومنذ رحيل أمّي وأبي وجدّتي التي كنت أعشقها، والكثير من الأقارب والأصدقاء. ونادين أمس، عصرت قلبي حين جاءتني باكية، أشبه بالمجنونة لأنّ صديقتها ميرنا تحتضر بسبب السرطان. وهي منذ أشهر جالسة تحت قدميها على السرير، تُلامسهما بيديها كما لو أنّها تريد أن تهبها الحياة بالملامسة، ثم تعود وتنهض وتمسك بيديها، خوفًا من أن تتركها وتغادر حياتها. بات الفقدان يُرعبني لكثرة حدوثه من حولي في هذا العمر، حتى إنّني لم آتِ بقطّة جديدة بعد موت هرّتي التي عاشت معي لأكثر من عشر سنين، برغم عشقي القطط. وكم أسعد كلّما أفقت صباحًا ورأيت أنّ عصفورَي الحبّ اللذين جلبتهما ليُبهجا حفيدتي لا يزالان حيَّين، ثم أتضايق من نفسي لكثرة حضور الموت في رأسي تجاه جميع الأشياء. وكم صرت أخاف على زوجي الذي يمرض

كلّما سمع بموت قريب أو صديق له، خوفًا أكثر منه حزنًا. صار الشعور بحصار الموت والفقدان أكبر في هذا العمر. ولا أدري حين أبلغ الشيخوخة إن كان خوفي من فقدان الأحبّة سيكون بالقوّة ذاتها، أم أنّني سأصير مثل عجائز قريتي اللواتي أرى عيني الواحدة منهنّ فارغتين من الحزن، ونظراتهما تبدو محايدة حين تخرج من العزاء، ربّما لشعورها بأنّ ملاك الموت أجّل أخذ روحها هي، أو ربّما لأنّ التمرين على الموت يجعل الواحد متقبّلاً فكرته، ومتصالحًا معه. فعندما كنت أصغر سنًّا، لم يكن الموت جزءًا من تصوّراتي. كان خارج تصديقي. كنت أعتقد أنّه بعيد، وأنّه يصيب الآخرين ولا يصيبني. لم يكن يمثّل حالة حضور أيّام شبابي، برغم كثرته في الحرب. الآن، أشعر بأنّه قريب، وموجود في حياتي، وأنّ دائرة حصاره صارت أضيق. وكلّما مات عزيز عليّ ودّعت جزءًا منّي. الآن، أشعر بأنّ خروجي من رحم أمّي لم يكن إلاّ خروجًا من السباحة في رحمها إلى السباحة في بحر الحياة. وكذلك، ليست الحياة إلاّ سباحة للوصول إلى الموت. نفعل ذلك، بدون أن نُدرك أنّنا سنصل حتمًا إليه، ونحن مأخوذون بمتعة السباحة والتسابق والتلاطم في بحر الحياة. لا نتيقّن من الوصول إلاّ حين نلامس حافّته، مثلما لا يُدرك من صعد الدرج أنّه بلغ السطح إلاّ حين يصل إلى آخر درجة فيه. كأنّ الموت يدقّ بابنا في البداية، فيُخيّل إلينا أنّ هذا الزائر الغريب أخطأ الهدف، وأنّنا حتمًا لسنا المقصودين، ولا شأن لنا به، فلا نفتح له الباب. ثم مع الوقت، نألف طرقاته حين تتكرّر، بل نشعر بالضجر حين يتأخّر يومًا عن القدوم وطرق الباب. وحين نفتح له، نكتشف أنّه صاحب

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

الجسم وليس البيت فحسب، فنصير نحن الضيوف الغرباء على أجسامنا، والغرباء عن الحياة. نتبادل أعمارنا وأجسادنا، وتصير أجساد جميع البشر التي يأخذها متساوية، لا فرق بينها وبين روائحها في النفايات التي تشبه بعضها البعض.

هذا ما سمعت جدّي لأبي يقوله ذات يوم. جدّي الذي عاش مئة وأربع سنوات، ما عادت تعني له الحياة بعدما ضجر من الوحدة لأنّ أصدقاءه كلّهم ماتوا. كان يعتقد أنّه فارق الحياة بموتهم، وأنّ مكانه بينهم. وكثيرًا ما كنت أسمعه يحكي مع الله، ويناجيه:

ـ إيمتى يا الله بدّك تاخد روحي وأوصل للسطح. هالدرج ما حلّو يخلص؟

والغريب أنّه في اللحظات الأخيرة من حياته التي صارت عبئًا عليه، عرف أنّه وصل.

أخبرني أبي أنّه توضّأ وصلّى، وشرب كوب لبن وهو جالس، ثم لبس الكَفَن، وقرأ شهادة الموت، قبل أن يغطّي وجهه وينام نومته الأخيرة.

وحدهما الحبق والأضاليا كلّما ماتت نبتة منهما جلبتُ غيرها لإصراري على وجود ما أحبّ في حياتي. أطفأت صوت الموسيقى الكلاسيكيّة بعدما انتهيت أخيرًا من سقيهما، ورحت أغنّي وحدي في البيت أغنية «ألاقي زيّك فين يا علي»، تلك التي كنت أسمع أمّي تغنّيها حين تكون وحدها. كان وجهها يحمرّ خجلاً حين

تكتشف أنّي دخلت البيت وسمعتها تغنّي. كانت تكره أن أضبطها بجرم مشهود، فالغناء عندها عيب وحرام. ثم كأنّه ليس من حقّها أن تغنّي، فالبكاء والحزن فقط مسموحان لها. وفي اللحظة ذاتها التي رحت أغنّي فيها قرعت سعاد جرس البيت. دخلت وهي تبتسم تلك الابتسامة البخيلة التي اعتادها ثغرها، وأعطتني جريدة الصباح التي تحملها في يدها، وهي تقول لي:

ـ خدي يا ستّ هالجريدة، فيها خبر بالصفحة الثقافيّة.

إنّه هاني. عنده ندوة حول الشباب اللبناني والحرب الأهليّة، مع اثنين اختصاصيّين مثله بعلم الاجتماع، في النادي الثقافي.

قرّرتُ، ذلك اليوم، أنا وسعاد، الذهاب معًا لحضور الندوة، بل صمّمت على أن أتّصل به فورًا، واتّفقنا على اللقاء بعد حضور الندوة. رغبتي المتأجّجة في رؤيته أعادت إلى أذنيّ كلام هدى على أنّ الأحاسيس لا تشيخ، وأنّ الرغبة لا تكبر مثل الروح. ربّما تتناقص مثل الذاكرة، ومثل جميع الأشياء، لكنّها لا تفارق الجسد إلاّ حين يفارق الحياة.

لم نستطع الوقوف أنا وهاني برغبتنا في استعادة العلاقة هذه المرّة، بعد انقطاعها الأخير لحوالى خمس عشرة سنة تقريبًا، كنت في خلالها أتجنّب من جديد الأمكنة التي تجمعنا، والردّ على اتّصالاته التي جرت في فترات متباعدة، خاصّة كلّما نشرتُ قصيدة، أو نصًّا، أو كتابًا جديدًا.

رغبته التي بدت متأجّجة لم أعرف ما إذا كان سببها عدم خفوتها

مثلي، أم أنّ الواحد منّا يُلبس أحيانًا الآخر رغبات على مقاس رغباته هو، وأحيانًا أخرى لا يلفته لا حجمها ولا مقاسها؛ أم لذلك علاقة بخوفه من النهايات والفقدان بعد إصابة زوجته بسرطان الثدي الذي أدمى قلبه. وقد بكيت معه مثلما بكى حين قرّر الطبيب استئصال ثديها بالكامل، وتساءلت أمام رغبته الجامحة تجاهي ما إذا كان الموت يفوّر الجنس، وتفور معه الرغبة.

كنت متأكّدة من أنّ رغبته تجاهي ما زالت كما هي. لكنّي ألححت على طرح هذه الأسئلة على نفسي، وعدت وبحت بها أمام سعاد بعدما التقيت بها، لكنّ تعابير وجهها حارت في الأجوبة. سعاد التي لم أكن أبوح بكلّ أسراري لأحد سواها.

هي دائمًا كانت الأقرب إليّ من نادين وعزيزة وهدى. كأنّها كانت لها أربع آذان تسمعني فيها بحبّ، وكنت وأنا أحكي معها أكتشف في نفسي أشياء كثيرة لا أعرفها.

«الحكي بيطفي. والنار ما بتطفيها إلاّ النار»، كثيرًا ما كنت أقول لها.

لكنّي في الحقيقة لم أكن أعرف بماذا تفكّر سعاد، حين تخرج من بيتي. كثيرًا ما كنت أتساءل عمّا إذا كان لونها يتغيّر حين تصل إلى بيتها، أم إذا ما كانت تحبّني أكثر، أم تغار، أم تكرهني، أم إنّها تكره حالها بعدما تستمع إليّ.

أدرك تمامًا أنّ علاقتي بها هي الهامش الوحيد لحرّيّتها. لكن، لماذا لم تكن تحكي إلاّ القليل، وأيّ أسرار لديها لا تبوح بها؟ كأنّ السرّ هو التاريخ الحقيقي للواحد منّا، والأشياء الخبيثة هي

وحدها كنه الحياة فينا. وهي ما تجعلنا نحيا، وعندما يروح السرّ تروح الحياة.

أحيانًا كثيرة، كنت أفكّر لو أستطيع أن أتجسّس على أفكارها. لو يمكنني أن أتخفّى وأعرف ماذا تحكي عنّي في سرّها، أو لعزيزة، أو لنادين أو لهدى... أو بماذا تفكّر فيّ بينها وبين نفسها. تتملّكني الرغبة أحيانًا لو تضغط رقم هاتفي الخاصّ بدون انتباه منها، ويبقى الخطّ مفتوحًا لأعرف ماذا تحكي عنّي. ثمّة رغبة دائمًا في التلصّص، ليس فقط على حيوات الآخرين، لكن على أفكارهم، وخاصّة حين يكون الشخص صامتًا وغامضًا، وفي الوقت ذاته قريبًا وعزيزًا مثل سعاد.

أعرف أنّ سعاد لا تعيش مشاعر الحبّ إلاّ معي. حتى أولادها يتعاطون معها بالواجب أكثر ممّا يتعاملون معها بحبّ. الحبّ يحتاج دائمًا إلى طرف ثانٍ ليتعلّمه الأولاد.

• • •

بعد لقاءين أو ثلاثة بوجود سعاد في المقهى، حدّدنا موعدًا أنا وهاني. قبل أن أخرج للقائه، وجدتُ نفسي أنتقل من غرفة إلى غرفة، شبه ضائعة. آخذ غرضًا ما، وأتركه إلى غيره. أفتح خزانة، وآخذ ثوبًا أو عطرًا، ثم أعيده إلى مكانه. أدخل المطبخ لإحضار شيء ما، ثم أنسى فجأة ما هو الشيء الذي ذهبت لإحضاره. لم يكن الأمر ارتباكًا، بل كأنّ عطلاً ما أصابني. هل أسمّيه النسيان؟ ولماذا كلّما تكرّر هذا العطل أشعر بأنّي تناقصت؟

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

الإحساس بالنقصان أشعر به كلّما نسيت، كما كنت أشعر به في كلّ مرّة كان هاني يتركني فيها.

حين حكيت لسعاد مؤخّرًا عن هذا العطل وجدتُ نفسي أبوح لها عن النسيان. قطعت حديثي معها وتركتها مسمّرة في غرفة الجلوس، وركضت إلى الممرّ. هناك وقفت أمام المرآة الكبيرة المثبّتة إلى الحائط، وصرت أتطلّع إلى قامتي وأقيسها طولاً وعرضًا، لإحساسي بأنّ الذاكرة مثل العظام، تتناقص وتقصر مع التقدّم في العمر، وتضمر مثلها، لتجعل الأشياء فيها صغيرة وقليلة، وربّما ممحوّة. في تلك اللحظة أحسست بالضمور برغم ازدياد وزني. لكنّ شعوري هذا تبدّد بعد لحظات، حين رأيت أنّي لم أتناقص بعد. ضحكت في سرّي، وعدت إلى غرفة الجلوس حيث كانت سعاد شاردة. هتفتُ بها: «إنّها أغنية. مجرّد أغنية، قلتُ، غنّيتها لكِ سابقًا. كلّما نسيت، كلّما صغرتُ وتضاءلتُ».

بعدما هدأت، قلت لها إنّني حين أنسى أشعر بأنّي وقعت في بئر... في مكان فارغ وعميق جدًّا. هكذا شعرت أيضًا حين غادرني هاني للمرّة الأولى. حين انقطعت عن رؤيته آنذاك، شعرت بأنّي وحيدة، برغم كلّ الضجيج الذي كان حولي، وجميع المحيطين بي. لم يستطع عريسي سليم، ولا الصخب كلّه، أن ينتشلاني من ذلك الإحساس العجيب بأنّني سأقع. كنت أتمثّل نسيان هاني لي وأشعر بأنّه تركني في خلاء ما، على شفا حافّة هاوية ما، وأنّي ناقصة كثيرًا. أشعر باختصار بأنّه نسيني.

كان هذا الإحساس بالنقصان يلازمني كلّما غاب، أو انقطع

عنّي، أو شعرت بأنّي فقدته. والشعور به لا يغلب الواحد منّا، ولا يصدّقه حقًّا إلاّ إذا صار حسّيًّا، وارتبط بضعف الحواسّ، أو بفقدانها. عندما كان يروح، كنت أشعر بأنّي فقدت شيئًا منّي، أو كأنّ بصري فقد شيئًا من نفاذه، أو أنّ سَمعي أصابه عطل ما، أو كأنّ خطوي لم يعد رشيقًا، ولا يطاوعني كالسابق. وكنت أحيانًا، بدون إرادة منّي، أتحسّس جسدي ويديّ، وأتطلّع إلى كلّ ما يقع عليه بصري لأمتحن قدرتي على رؤية التفاصيل. أصغي إلى أصوات الخارج، وأختبر قدرتي على تحديد مصادرها المختلفة.

الفراق كالنسيان، قلت لسعاد.

حين التقيت بهاني، وحدّثني عن أسماء أصدقاء قدامى أيّام الجامعة، شعرت بأنّي لا أستطيع أن أتذكّر أحدًا منهم. في تلك اللحظة عاد إليّ الإحساس بالنقصان الذي يخيفني كالموت، ويجلب لي الشعور بالاختفاء والامّحاء. أحسست أمام هاني بأنّي فقدت شيئًا منّي في حضوره، وأنّ هذا الذي أعشقه سوف يلاحظ فورًا أنّي صرت مختلفة... يعني ناقصة.

الشعور بالنقصان جحيم العاشق وعذابه. للعاشق دومًا رغبة في الحضور أمام المعشوق، على أنّه حضور تامّ وكامل وطاغٍ.

عندما استعدنا العلاقة في منتصف العمر، رجع إليّ الإحساس بالامتلاء. كلّ حواسّي استعادت ذاكرتها يوم لقائنا. فهاني موجود في كلّ جسمي، وأنا حاضرة في كلّ ما يلامسه. هو أنا، وأنا هو. وذاكرة جسده ما عادت منفصلة عن وجودي. صارت مشبعة

ومجبولة بذاكرة يدي وأنفاسي وهمساتي ورائحتي... بل في ذاكرة جسمي كلّها.

• • •

حكيت لسعاد كيف وقفت أمام المرآة عارية لأتفحّص جسدي قبل أن أخرج لألتقي به بعدما اتّفقنا على موعد اللقاء. لا أدري لمَ خطرَ في بالي أنّها ستفعل مثلما فعلت، حين تذهب إلى البيت. لكنّها لم تعترف لي إذا ما وقفت يومها أمام مرآتها عارية تتطلّع إلى جسدها، وإلى بشرتها المريضة، وهي تعضّ على شفتيها المزبدتين مثلما صارت تفعل كثيرًا، أو تبسط فراش صمتها على جسمها وتغطّيه به. ولم نبح يومًا أمامي إذا ما انتحبت نظراتها وهي ترى ماذا فعلت فقاقيع الصمت بجسدها.

شعرت أمام المرآة بأنّ عينيه تريان جسمي العاري. فهاني يحفظه أيّام شبابنا، ويدرك كلّ تفاصيله، لكنّه لم يرَه منذ خمس عشرة سنة. الأشياء الطارئة عليه لا يدركها، وأنا في خمسينيّات عمري.

حسبت أنّ جسمي ما زال محافظًا على جماله، إلاّ أنّ عضلاته بدت مرتخية قليلاً، ونهداي صارا يميلان إلى الضمور. ثمّة دهنيّات متخفّية تحت جلدي في أنحاء كثيرة من جسمي وصولاً إلى كعب قدميّ. تقوّس ما بين فخذيّ قليلاً في هذا العمر برغم امتلائهما، كما تقوّست رجلاي، وبرزت عظمتا ساقيّ. ردفاي صارا أكثر امتلاءً، وخصري النحيل أضحى أسمن، وبعض الانتفاخ تركّز في رأس معدتي. أغلّيا ذراعيّ فقدا انسيابهما، ولم يعودا مسبوكين ومشدودين. شعرات ساقيّ وتحت إبطيّ قلّت كثافتها وصارت أكثر

نعومة، والفراغات بين الشعرة وأختها كبرت مساحتها. وبرزت تجاعيد خفيفة تحت البطن وفوق العانة التي اكتنز لحمها ربّما بسبب ارتخاء عضلات بطني. وضعتُ يدي على خسفة ظهري التي زاد انخفاضها بسبب مؤخّرتي التي كبر حجمها، ثم عدت وتطلّعت إلى ثنيّات تحت إبطيّ التي صارت كثيرة، وإلى ثنيّات كوعيّ واللحم الذي تجمّع قليلاً حولهما، ولونهما الذي أصبح يميل إلى السواد. أمسكت بعد ذلك بجلدة رقبتي المتهدّلة وشددتها إلى فوق ثم تركتها. حدّقت في وجهي، وفي التجاعيد القليلة حول زاويتيْ عينيّ، بعدما أنهى نظري جولته فيها. شفتاي لم تعودا مكتنزتين كما يعرفهما. عضلاتهما ارتخت، والتجاعيد الرقيقة في خطوطهما المستقيمة برزت. أمّا أنفي، فبدا لي أكثر طولاً، وكأنّ فتحاته اتّسعت بعدما ارتخت أرنبته. انتبهت إلى أنّني لم أعد أنظر إلى جسمي ككلٍّ واحد، كما كنت أتطلّع إليه وأنا شابّة، بل صرت أفكّر في يديّ، وفي بطني، وفي فخذيّ وثديَيّ، كلٌّ على حدة. وأحبّ أجزاء أكثر من الأخرى. لكنّي حين لمست بشرتي، عاد بريق عينيّ يلتمع. شعرت بأنّها ما زالت حريريّة مثلما كانت عندما كان يلمسها. والغريب أنّني أحسست بأنّ يديه من تلمساني. وكم لمست ثديَيّ كلّما اشتقت إليه، وتفقّدت ذلك الإصبع الطويل بين أصابع رجلي، الذي كان يعشقُه ويقبّلهُ.

حين أتيت بمرآة صغيرة لأتفقّد عضوي، تذكّرت كيف راح ينظر إليه يوم عدنا واحدنا إلى الآخر أوائل التسعينيّات، ويقول لي: «عضوك حلو، وبعده ما تغيّر». ضحكت، لأنّني لم أتصوّر كيف يمكن أن يقال إنّ ثمّة عضوًا حلوًا وعضوًا بشعًا. ثم انتبهتُ إلى أنّ

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

عضوه جميل أيضًا بشكله وبشرته الناعمة، ويختلف عن عضو زوجي، العريض من فوق والرفيع من تحت، بينما لونه مائل إلى الاختناق، ربّما بسبب الشرايين النافرة التي تترك ظلالات زرقاء قاتمة فيه.

ارتعدتُ حين لفتني شعرة بيضاء في عانتي. صباغ شعري يُنسيني الزمن، لكنّ البياض في هذا المكان الحميم سيذكّرني بعمري بيني وبين نفسي. ثم إنّ عضلات المشفَرين أصيبت بالارتخاء أيضًا. وحين لمست بظري، شعرت بأنّه فقد شيئًا من صلابته، وأنّه صار في مكان أكثر انخفاضًا، أو هكذا ظننت.

الإحساس بالمرارة لم يدم طويلاً. فشعوري بأنوثتي وبجسدي الآن أقوى بكثير من أيّام الشباب، ورغبتي تجاه هاني لم تخفت، وحين ألتقي به اليوم، سأكتشف الكثير من الأحاسيس الجديدة في هذا العمر. عند هذا الحدّ زال الشعور بالخجل من شكل عضوي الذي ما زال ينبض بالحياة. فكّرت في أنّي لن أخجل منه، كما لم أخجل من الإحساس به منذ طفولتي. أذكر ذات يوم وأنا طفلة، إنّي دخلت الحمّام واصطحبت معي مرآة صغيرة لأرى شكل عضوي. اعتقدتُ أنّه صَدَفة مغلقة، لا أدري أداخلها لؤلؤة أم لا شيء. لكنّ الأمر اختلف مع بلوغي حين صرت أشاهده وسط غابة من الشعر، فصرت أتفحّصه وأدقّق في ثنيّاته وتفاصيله أمام المرآة كأنّي أريد أن أقوم برحلة استكشاف في كهف عميق أو بئر غامضة، أو السفر إلى عالم غريب وأستكشف محيطاته وأسراره.

قلت مرّة لسعاد ونحن نحكي عن عضو المرأة حين وَلدتُ ابني

أحمد، إنّه ليست ثمّة أمومة وحبّ في معزل عنه. عندما أقف عارية وأتطلّع إليه، أرى أنّه مصدر أمومتي، ومصدر الغرام... مصدر الضوء والدفء والمشاعر. لماذا يقولون إنّ القلب ينبض. ألا ينبض هو أيضًا؟ إنّه يا سعاد، موطن سعادة وأحاسيس، عندما نتطلّعين إليه كمنبع للحبّ، وليس كمكان للمشقّة، إلى مكان لا يكون منتهكًا أو مغتصبًا، أو مكان للأوجاع والإجهاض. إنّه أبجديّة جميع أعضاء الجسم. اختلاجات النفس كلّها تتفاعل، مع اختلاجاته. أحيانًا، تشعرين بأنّه أنتِ، مكان يصغي ويسمع ويحكي. يُوجع وينوجع، يرفض ويقبل. ينسجم ولا ينسجم.

وفي لحظة التقلّصات والخدر اللذين يصيبانه، تشعرين بأنّه يتفتّح ويعانق، وفي الوقت نفسه يقبّل. تشعرين بأنّه حنون مثل اليدين، وحضن مثلهما. إنّه يختزل المرأة بالذهنيّة السائدة بمنطق انتهاكي، لكنّه العضو الذي يختزلها بمكان إنساني. عضو لا يمكن أن يرطّب أو يندى بالماء، إلاّ إذا كان في حالة اشتياق فعلي. عندما فتحت رجليّ أوّل زواجي لسليم، فعلت ذلك كما لو أنّي أريد أن أفتح منجمًا لأُطلع منه الحياة، لكنّ الحبّ عرّفني إلى جسمي. واكتشفت مع السنين أنّ ما كانت أمّي تقول عنه العيب، وتطلب منّي ألاّ ألمسه، وألاّ أدع شيئًا يحتكّ به، كم هو مهمّ.

موطن عضوي داخلي، وكلّه مليء بالأحاسيس التي أستطيع أن أخفيها على عكس الرجل الذي لا يستطيع أن يسيطر على إحساسه لحظة الانتصاب. أنا أملك إحساسي، وأستطيع أن أخفيه، لكن هاني عرّفني إليه، وجعلني أكتشفه، بينما حين خضت التجربة مع

زوجي خضتها كمسألة خلاص من قدريّة جدار البكارة، الحاجز لكلّ الرغبات. شعرت بأنّه صار متحرّرًا، وأنّه مثل جميع الأشياء النبيلة في الكون، محكوم بثنائيّة القبول والرفض، اللهفة والنشوة، الوجع والمتعة، الاستجابة والصدّ. هو يمارس المسلكيّات كلّها، فلماذا نمنع عنه جميع ما نخافه، ولِمَ الخوف أن نقول أيضًا إنّ الكلمة ظهرت منه؟

عادت المرآة لتخطفني وتُحبطني.

شعرت ببعض الخيبة بعدما اكتشفت تبدّلات جسمي، الذي لم أتفقّده بهذه الدقّة من زمان، منذ انقطعت علاقتي بهاني، ومنذ أقلعت عن بعض العلاقات العابرة، التي لم يكن هدفها إلاّ محو هاني من جسمي، ومن خيالي. العلاقات التافهة التي لم يكن جسدي حاضرًا فيها، لكنّ عقلي ربّما كان من يدفعني إليها.

لكنّي نفضت عنّي أحاسيس الخيبة التي تلبّستني بعدما نظرت إلى المرآة، وسألت نفسي: أليس هاني في كلّ جسمي، أكان متهدّلاً أم مشدودًا؟ وأليس جسمه قد تهدّل أيضًا، وما زلت أرغب فيه؟

ثمّ حدّثت نفسي بأنّه عندما ألتقي اليوم بهاني، فسوف يهتدي جسمه إلى جسمي، وتصير هذه الأحاسيس تفاصيل تنزوي، حتى وإن صاحبنا الضوء كعادته في مصاحبته لنا، فلا أذكر أنّ جسدينا التقيا مرّة واحدة بالعتمة... من زمان.

ـ ٤ ـ

المطر ينهمر بغزارة. بين الحين والآخر، رحت أختلس النظر إليه من نافذة المطبخ المطلّة على البحر، بينما انشغلَتْ يداي بفرم البقدونس لتحضير جاط التبّولة التي تعشقها سعاد. للحظة، شردتُ، ثم لم أعد أعرف ما أصابني. ضغطتُ صدغيّ بكفَّيّ وقد اختلط عليّ الزمن. إنّه المطر المباغت ذاته يهطل حبالاً من سماء فجّرَتْها البروق والرعود فأتبلّل، وأنا في طريق العودة إلى البيت أحمل حقيبتي المدرسيّة على ظهري، أو... في «خلّة الواويّة» أسرح بغنمات أمّي وأراجع دروسي في الوقت ذاته، أو... في الحقل بصحبة أمّي نتفقّد زرعًا موسميًّا. رجفة البرد ذاتها سَرَتْ في جسدي، تلك التي كانت تسرّع خطوي لأصل إلى البيت وألتصق بـ «الصوبا»، ألتمس دفئًا سريعًا يُعيد الحركة إلى جسدي الصغير المتجمّد.

شعور غريب بالعتق والتعب يهجم عليّ بغتة، ويراودني إحساس لئيم بأنّ عمري يصير بطيئًا بليدًا وثقيلاً، وجسدي الخمسيني مهدّد بأن يصير هو الآخر متهالِكًا مثل ذاك البناء العتيق القائم عند زاوية الشارع. البناء الجميل عينه الذي مزع عقلي فطلبتُ من سليم شراءه وإصلاح ما لحق به من دمار، لنسكن فيه في بداية زواجنا، فرفض مستنكرًا رغبتي الهوجاء. «سوف يكلّفنا ترميمه أضعاف أضعاف ما

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

تكلّفناه لشقّتنا الجديدة الفخمة»، قال لي يومها بنبرة زاجرة. وظللت لاحقًا أرى في المنام أنّي أسكن فيه مع هاني. وفي المنام أيضًا، كنت أصدّق أنّي لم أعش يومًا في منزل سواه.

تركت البقدونس المفروم مكوّمًا على الخشبة، واتّجهت إلى غرفة الجلوس أنتظر مجيء سعاد لنتغدّى معًا. وطأة الزمن تثقل دماغي ثانية وتخربطني، فأتحسّس جسدي بخوف حذر، وأنا أغمض عينيّ، أغمضهما بقوّة وأغوص عميقًا في زمني الماضي. لست أدري ما الذي حصل لي، ولماذا رحت أنكشُ ذاكرتي التي أخاف أن تَمّحي ويُمحى معها كلّ أثر لصورة الطفلة التي كنتها قبل أكثر من أربعين عامًا. وفي عتمة إغماضتي، غادرني تدريجًا الإحساس بالعتق والبلادة والبطء. شعرتُ بأنّي أتخفّف من ثقلي، وبأنّ طفولتي هبّت فجأة وهجمت عليّ كالإعصار.

شممتُ فوحها يعبق بروائح أمكنتها وأزقّتها، مروجها وحقولها، شمسها وقمرها. واسترجعت بهجتها، شقاوتها وأحزانها. غلبتني الرائحة. صارت بساط ريح طوى بسحر ساحر زمني الحاضر، وردّني إلى وجه أمّي، وهي تجدل ضفائري، بينما صوتها يعلو منبّهًا: «مشوار الطريق وبترجعي. إذا بدّك ميّلي إنت وسعاد وجيبوا معاكن عزيزة، بسّ أوعا تتأخّري أحسن ما يجي خيّك جواد ويعمللي مشكلة».

صوت أمّي يصير صدىً ثم يتلاشى، ووجهها يبهت ويغيب، فأُبقي عينيَّ مغمَضتين، وأروح أسأل: أشياء كثيرة غابت عن رأسي، وأشياء أخرى ظلّت ساطعة. ذاكرتي تعبث بي الآن، كأنّ

الزمن يعود شابًّا حين تهرم الذاكرة، فيضمحلُّ الحاضر ويذوب، ليحضر الماضي ويصير كأنّه هو الزمن الراهن. كأنّنا لم نكن نصدّق أنّ أشياء كثيرة تختبئ فينا، نحملها معنا زمنًا طويلاً، نعبرها وننسى، مثل طريق عبرناه صدفة، وعلى عجل، ثم ما عدنا إليه. أشياء كثيرة نعتقد أنّنا تركناها وتركتنا، ثم فجأة تعود على غير انتظار، تفيق وتباغتنا في عزّ منتصف العمر، وفي عزّ رماد الذاكرة بعد احتراقها. هل لأنّ خطواتنا تتثاقل وتصير أبطأ فلا نعود نملك تبنك الساقين السريعتين، كانتا في عمر الصبا تسبقاننا فنستجيب لهما، ونتابع السير بلا توقّف؟ أم أنّ احتراق ذاكرة الحاضر يردّنا إليها لتدفع عنّا هجمة الخوف من النسيان، فتصير الأشياء تأتينا في صحونا ومناماتنا التي نفيق فيها على طفولتنا؟ وهل... هل تملك الحواسّ ذاكرة ترصد اللحظة المناسبة، ولو بعد أربعين عامًا، تقوم من كبوتها أو مكمنها لتعاتبنا وتذكّرنا بنسياننا، حين لا يعود في مقدورنا أن نعود بالزمن إلى الوراء لنعيشه، لا لتتذكّره وحسب؟

في غرفة الجلوس، فرشتْ على الكنبة طفولتي صورَها، وتملّكني الإحساس بأنّي على متن مركب يؤرجحني في اتّجاه معاكس. غاب صوت أمّي، لكنّ صوتي الذي علا بكلام كثير نبّهني، ففتحت عينيّ وتلفّتُّ حولي، ولم أجد سعاد. الساعة الآن تقارب الثالثة، أتكون قد جاءت وجلست كعادتها صامتة تصغي إليّ، ثم انصرفت بلا غداء بعدما أضجَرَها مونولوغي الطفلي؟ لكنّ سعاد الطيّبة الصبورة لا تضجر منّي أبدًا، وهي لم تخلف مرّة موعدنا على الغداء. كما أنّها لا تغادرني قبل حلول الرابعة والنصف.

ما الذي يحدث لي؟ في الواقع، ما عدتُ أعرف إن كنت طوال هذا الوقت أحدّث نفسي، أم أنّ سِعاد أتت فعلاً وحكيتُ لها، قبل أن تنصرف، ما أظنّ أنّي حكيتُه لنفسي؟ ما عدتُ متأكّدة من أيّ شيء.

تعيدني ذاكرتي إلى المركب، فأنزلق في العتمة وأرتعش، وتغمرني غبطة عجيبة وأنا أُنصت إلى صوت الرعد يهدر في الخارج، فيُخيَّل إليّ أنّ الجبال والأشجار وكائنات من الجنّ، تعوي وتصرخ قبل أن أسمع سياط المطر تطرق زجاج الشبّاك. يعبث الصوت بخيالاتي، يحفّزها فتسرح نظراتي على زيوح الماء المتعرّجة تحزّز الزجاج المغبّش ببخار الدفء المنبعث من «الصوبا»، فأرمش بحبٍّ سعيدةً برقصة المطر.

لطالما عشقتُ مواسم المطر، حتى حين تغطس قدماي في وحل الحقول، أو تغرقان في نقع الماء في طريق المدرسة. ثيابي المبلّلة تصير تلتصق بجسدي فأقرقر ضاحكة، ويتهيّأ لي حينها أنّ جسدي صار منحوتة من ماء. أعشق المطر بلا حدود. يُشعرني انسكابه بفوران الحبّ. أحسّ أنّه يحكي لي أسرارًا لا يكشفها لأحد غيري. يقول لي كلامًا لا تقوله لي أمّي، ولا عمّتي رُقيّة، ولا حتى صديقاتي. أحسّه حبيبي الذي يغسلني فأفكُّ جدائلي وأفلتها لأُتيح له أن يتغلغل في كلّ شعرة منها، بل أتصوّر أحيانًا أنّه يشتاق إليّ ويُمطر من أجلي.

منذ بداية وعيي، شُغفتُ بكلّ الأشياء التي تشبه الحبّ. عَشِق

الرّيح والنَّسمَات الرقيقة، الأشجار المكسوَّة وتلك العارية. أتخيَّل أنّ الأشجار العاشقة تتعرّى من الحزن حين تهرب منها أوراقها. زيح النمل الطويل المهرول في اتّجاه الثقوب، يُفرحني، ويصرف تفكيري عن كآبة عابرة تصيبني، فأحاول أن أردَّ له الجميل بأن أدفش أمامه فتات القمح الذي يحمله. عناق سنابل القمح حين تتمايل. وجه القمر يغطس في الغيم، ثم يُطلّ ضاحكًا. شتلات التبغ في حقل الجيران تغمزني في الصباحات النديّة. كوز الرمّان الصغير يستدير ويتكوَّر مثلما صار ثدياي يفعلان. الفراشات الحائمة فوق فنجان الزهر. صوت الزيزان الذهبيّة تبارز الحشرات الصغيرة فوق أغصان الشوك. أغاني العصافير، وقوس قزح حين يلوّن صدر السماء يبشّرني، خاصّة في أيّام رمضان، بما صرت أحلم به.

كان ذلك أواخر أيّام رمضان، في السنة ذاتها التي مات فيها يوسف ابن خالي الصغير. يومها طلب منّي أخي جواد الذي يكبرني بسنتين، أن نبقى ساهرين طوال الليل لنشهد ظهور ليلة القدر، ونرى بأعيننا كيف تسجد الأشياء، كلّ الأشياء. ليلتها، القرية كلُّها لم تنم. ظلّت أصوات الصلوات والابتهالات تتعالى طوال الوقت من جامع القرية، ومن ساحاتها وبيوتها. كان المطر قد احتجب منذ الصباح، وضوء القمر يبسط نوره فيسمح لنا برؤية الخارج من خلف النافذة. جلستُ خلفها ملتصقةً بجواد، أُبحلق بكلّ قوّة عينيّ كي لا يفوتني أيُّ تفصيل.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

تختلط بسملاتي ببسملات جواد فينهرني فلا أحرد. بهجة الترقّب ملأت نفسي بالرضا. وربّما يُسعدني الحظّ وتمرّ عليّ ليلة القدر فتنفتح أبواب السماء وتتحقّق أمنيتي. أمضيت الهزيع الأوّل من الليل متيقّظة ألصق وجهي بزجاج النافذة لعلّي أرى كيف يَغرق النورُ الأرضَ وتهبط عليّ ليلة القدر، فيستجيب الله لدعائي، وأصير طيرًا من طيور الجنّة. لم أفكّر أبدًا في أمنيتي الثانية. كنت أراهن أنّ همّة أبي وإصراره كفيلان بردع أمّي وإجبارها على القبول بمتابعة تعليمي.

سيأتيني الموت كما تمنّيت، وأعيش في الجنّة طائرًا من طيورها، مثل جميع الأطفال الصغار بحسب ما سمعت من النساء اللواتي التففنّ حول زوجة خالي يوم توفّي يوسف: «حرام عليك. مش لازم تبكي. كلّ دمعة بتنزل منّك بتصير جمرة بتحرقُه. ابنك ملاك صغير. عصفور من عصافير الجنّة. بكرا بتشوفي ابنك واقف مع أهل البيت تيشفعلك إنت وبيُّه. الطفل يا حسرتي بموت بلا خطايا. عشان هيك هلّق هوّي عصفور بالجنّة».

ـ يا ربّ حقّقْ أمنيتي، لا أريد أن أُحرم من الجنّة. سأذهب إليها طاهرة بلا ذنوب، هكذا يمكنني أن أشفع لأمّي وأبي ولجواد أيضًا، وأكفل لهم الجنّة، قلت في سرّي وأنا أحدّقُ طوال الليل في الفضاء.

تلك الليلة، قاومتُ بشراسة النعاس الذي غلبني أكثر من مرّة، إلى أن هلّ ضوء الفجر بدون أن يتغيّر أيّ شيء. لم تسجد شجرة الرمّان في دارنا، ولا شجر الجيران في الحقول المترامية أمام

دارهم. وحبال الغسيل على سطحهم بقيت مرفوعة، لم تتحرّك أو تنحنِ. انْقَضَت الليلة ولم تمرّ ليلة القدر كما تمنّيت تلك السنة وفي السنوات التي تلتها، إلى أن توقّفتُ عن الانتظار ونسيتُ أمرها نهائيًا. سرَقَتْني من التفكير فيها بهجات كثيرة أخرى وهبتني إيّاها الطبيعة، التي جادت عليّ بأكثر ممّا تحتمله قدرة جسدي الصغير على أفراح ولذّات جنيتُها من علاقتي بكلّ كائناتها. زهورها البريّة بشتّى أصنافها وألوانها، نباتات الحقول وأعشابها بمختلف أشكالها وأنواعها، سكّريّة المذاق أم مُرّة. جرّبتُها كلّها. طعم الشوك، أقشره وأقضم سيقانه، مهمهمة «أنت أحلى من السكّر»، أقول له مواسية، فالناس تظنّه نباتًا فائضًا لا فائدة منه. طعم «الشومر» يجتذبني لونه الأخضر الغامق، يلمع وسط الاخضرار الباهت لأعشاب أخرى، فأتسلّق حافّة التلّة العالية الرابضة على طرف البيدر، أقطفه وألوّح به قريبًا من أنفي، أشمُّ رائحته بملء صدري، وأهمس متلذّذة «طعمك يا شومر أشهى من أيّ طعم، لا شيء ينافسك عندي. يا حسرة الحامض الذي تفضّله سعاد وعزيزة». جميع الحشائش التي لم أكن أعرف لها اسمًا، جرّبتُ مذاقها وأطلقتُ عليها اسمًا من عندي. أسمّيها فتستغرب أمّي ويبتسم أبي، وتضحك منّي نادين ساخرةً مرّةً، ومتعجّبةً مرّة. جعلت الطبيعة جنّتي. كشفَتْ لي عن أسرارها وعرّفتني إلى حالي. معها صرتُ أعرف أنّ الأشياء التي تغيب تعود وتظهر من جديد. ومعها صرتُ أكتشف ما خفي عليّ من أحوال جسدي. بردها دلّني على الدفء وملمس الصوف والكتّان والمخمل، ودفؤها علّمني متعة الكشف عن عُريي. ألامس ذراعيَّ وفخذيَّ وما بين نهديّ، أمسح عن

جلدي حبيبات العرق ببطء، فتسري في مسامّي رعشة مُنشية أدركتُ لاحقًا أنّها رعشة الشهوة النائمة في انتظار أن يسمح باكتمالها نضجُ جسدي. يومها، كنتُ أظنُّ أنّ الجنس الذي يسمّيه الناس «الحرام»، شيء خاصّ بالكبار. أحسدهم، وأردع ذاك الإحساس الخفيّ باللذّة، ثم أستجيب كافرة بالانتظار. أقول لنفسي: ما العيب في ذلك الإحساس، ما دام يطلع من جسدي فيرفّ له قلبي، يخفق كالمجنون، ويجعلني أغيب في سابع سماء؟ وحين أحدّق في وجه الله يملأ صفحة السماء، أخاف أن يزعل منّي، ويعتريني الخجل فأستر عريي وأتحجّج بأنّي أحاول فقط أن أجرّب تلك الرغبة الممنوعة، وأقسم له إنّني سوف أقلع عنها نهائيًا.

وحدها الطبيعة ظلّت تراودني على جسدي. تضع أمامي ما يحرّك شهوتي فأصدّقها، وأروح أداعب عضوي مغمضة العينين مطرقة الرأس كي لا يراني الله.

أجمع الزهور البرّيّة. أجعلها إكليلاً على رأسي، وألصق الأقحوان الأحمر على شفتيّ وخدّيّ وأصابع يديّ وأستلقي بين سنابل القمح الخضراء. أفكّر في أنّي عروس أنتظر عريسي الذي أحبّه فيفيق جسدي، وتتأهب فيّ اللذّة تفور وتُغرقني، فأشهقُ... أشهقُ، وأغرقُ في بحر النشوة. أتعرّقُ ثم أفيقُ بلا شعور بالذنب. أعانقُ سيقان القمح، أقبّلها، ثم أقصُّ بعضها بأظافري، وأضعها في فمي أرطّبه بمذاق مائها الطيّب. قبل أن أقف منتصبة القامة من جديد، أتفقّد زهرة النحل في إكليل الزهر، وأشعر بالدهشة ذاتها

التي شعرت بها يوم عثرت على تلك الزهرة لأوّل مرّة. أذهلني الشّبَه الغريب بينها وبين النحل الحقيقي. مددتُ يدي ظنًّا أنّها نحلة التصقتْ بتاج نبتة قصيرة الساق كثيفة الأوراق. لامستُها وعرفت عندها أنّ النبات ينتحل أحيانًا شكل الحشرات الطائرة. ليس الحشرات وحدها، بل قد يقلّد أيضًا أشكال بعض المزروعات. في حقلة الفول الأخضر، عثرتُ مرّة على نبات يلتفُّ حول غصن نبتة الفول، تدلّت فيه حبّات تشبه الفول، لكن طعمها مختلف، خليط من نكهة الفول ونكهة طيّبة أخرى لم أستطع تمييزها. كذلك «الجعفيل» الذي يقلّد النباتات، والشاطر في الغشّ، يطلع متسلّلاً بين شتلات التبغ أو البندورة أو الكوسا أو حتى العدس والحمّص، نهجم عليه أمّي، تقتلعه شاتمةً مكرّهْ وأذيّتْهْ. تقول إنّه يمتصُّ غذاء التربة. يسرقه، لذا يسبق نموّه نموّ الزرع المفيد. الجعفيل الذي آلمني مصيره وأحزنني ما فعلَتْه به أمّي، حَرَمَتْه من الحياة وحَرَمَتْني من تأمُّل قدرته المدهشة على التسلّل والتقليد. أشعرني بأنّ أمّي تنتزع منّي أسئلتي، وتغلق عينيّ عمّا بيني وبين الطبيعة من دهشات وسحر وخيالات تُبهجني. تسرق أمّي التي أحبّها، برغم قسوتها، أسئلة الجعفيل ونباتات أخرى تزعم أنّها ضارّة، كنت أقول لنفسي، لكنّها لن تستطيع أن تسرق تأمّلات تستغرقني وأنا أدخل مرجة القمح بعد أن يكتسي باللون الأخضر الفاتح، الأخضر المختلط بالأصفر حين يسطع عليه الضوء. كنت أحسب أنّ الضوء يرفع القمح ويجعله ينمو إلى أن يستطيل ويغمقّ لونه الأخضر. حينها لا يعود القمح في حاجة إلى الضوء، فيغادر إلى مطارح أخرى يُنبت فيها زرعًا آخر يوفّر له ما يحتاج إليه لينمو وينضج. الضوء الذي

ظننته مستقلاً عن الشمس، يظهر مثلها ويغيب. فكرة الغياب بحدّ ذاتها كانت تُرعبني. أخاف أن تذهب الأشياء ولا تعود مثل عين الماء التي جفّت، وتيبّس العشب المحيط بها ذات صيف حارق، إلى أن عاد ماؤها يتدفّق غزيرًا، وأينعَتْ براعم السوسن الأبيض في المساحة الترابيّة حولها، فأشرقَتْ عيناي بالفرح وقد أدركتُ أنّ الأشياء لا تغيب إلى الأبد. وحده الموت ظلّ يؤرّقني. تغلّبتُ على هواجسه تدريجًا، بأن صدّقتُ أنّ الأخيار ينبعثون من جديد في الجنّة، والأشرار وحدهم يموتون بشكل نهائي... وأنّ الخير هو الحياة، أمّا الشرّ فالموت بعينه. كثيرة هي الأشياء التي نسبتُ إليها الخير في الطبيعة برغم وجود الشرّ في أشياء طبيعيّة أخرى. أفكّر فيها وأحزن، خاصّة حين يتحوّل المطر إلى طوفان يكتسح طرقات الضيعة، ويمنعني من الذهاب إلى المدرسة، فأنظر إلى السماء أرجوها أن تسمع نداء الأرض وتُطلق شمسها من جديد، لأنّ التربة اشتاقت إلى صوت أقدام الناس بعد أن اعتكفوا في منازلهم لا يغادرونها خوفًا من الطوفان. أتأمّل حذائي الجلدي الجديد الذي اشتراه لي أبي من بيروت، وأُطلق الوعود للطريق الغارقة بمياه الطوفان، أُطمئنها إلى أنّها قريبًا ستجفّ، وقريبًا سنعود أنا وسعاد وعزيزة للسير عليها، نُسمعها صدى خطواتنا المشتاقة فينطفئ شوقُها.

• • •

تغيّرتِ الأيّام وتغيّرتُ، لكنّي ظللتُ أعشق الطبيعة وإنْ صرت أقلّ رومنسيّة. طردتُ عنّي أفكار الموت والحزن، وشغلني التفكير في صخب الحياة وحلاوتها، ولا سيّما بعدما تفجّر جسدي

واستطالت قامتي وبرز نهداي بشكل واضح. جسدي المتناسق الجميل الذي علّمَتْني الطبيعةُ أسرارَه كما لم يعلّمني آنذاك البشر، صار يتمرّد على ثياب الحداد الأسود التي ظلّت أمّي تلفُّني بها أيّامَ عاشوراء منذ أدركتُ وعيي، تكلّلنا بها أنا وأخي جواد، من قمّتَي رأسينا حتى أخمص أقدامنا فأفرح بها ويتفاخر بها أخي جواد، يقول إنّها رمز لصرخة الحقّ في وجه الظلم، هكذا علّمته أمّي وجعلته يكرّر ذلك منذ كان طفلاً في الرابعة، زمنَ ذهب به أبي إلى النبطيّة، وعاد حليقًا ومشطوب الرأس بالشفرة، بعدما شارك في مراسم عاشوراء. جسده الصغير النحيل لم يُسعفه ليتابع المسيرة مع موكب «الضرّيبة»، فقد نزف كثيرًا وفقد وعيه، فعاد به أبي مسرعًا إلى الضيعة، حيث استقبلته أمّي بالتبريكات والدعاء له بعدما أثبت جدارة بالاسم الذي أُطلق عليه، فجواد اسم لأحد الأئمّة الاثني عشر، اختارته له عمّتي رقيّة التي لم تُنجب صبيًّا، واقتصرت خلفتها على البنات، فظلّت تتحسّر إلى أن وُلد جواد، وكانت حاضرة. فهي من أولدت أمّي. يومها، صرخت بأعلى صوتها «اليوم اكتملوا أسامي الأئمّة بالعيلة، وما عاد ناقصنا ولا اسم. ما أكرمك يا الله. إيّاك نعبد وإيّاك نستعين»، قالتها بخشوع مؤمنةٍ عوّض الله عليها حرمانًا طال أمده. هذا ما تكرّره أمّي كلّما سُئلت عمّن اختار لجواد هذا الاسم، فيهزّ أبي رأسه موافقًا، وينظر في اتّجاهي مبتسمًا بحنوّ يشعّ به وجهه، قبل أن يعقب «وأنا اخترت لنهلا اسما الحلو، الحلو بدُّه حلو».

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

كانت أمّي ابنة عائلة متزمّتة شديدة التديّن تتسلّح بالدين، معظم شبّانها وكهولها من رجاله، بينما أبي، برغم إيمانه وتديّنه، كان رجلاً سموحًا وفكِهًا ومحبًّا للحياة الفرحة. على أحرّ من الجمر كنت أنتظر أسبوعيًّا قدومه من بيروت حيث يعمل. حضوره كان يوفّر لي الغطاء لأقول ما لا أجرؤ على قوله لأمّي في غيابه. أناكفها وأرفض القيام ببعض ما تأمرني به. أقول له أمامها إنّ البيت بدونه يشبه الوعر الموحش، «لا حسيس فيه ولا أنيس». أتدلّل عليه وأصرّ على الجلوس ملتصقة به. أتأمّله حين يخرج من الحمّام بعد الاغتسال، أشمّ شعره وأزغرق: «ريحتك أحلى ريحة بالعالم يا بيّي، وإنت أكتر حدا بحبّه بالعالم».

«بلا غنج ومسخرة، يلّلا قومي نامي»، تنبر فيّ أمّي ثم تلتفت نحوه متأفّفة، «الله يساعدني عليها، وِرْشة وما بطّاوع. رح تهدّلي حيلي، يا محلا جواد قدّامها». تقول هذا وتعرف أنّها تبالغ في القسوة عليّ. فالبنات، على ما كانت تضيف، «ما بينعطو وِجّ، والقسوة أوجب من الحنيّة، وإلاّ ما رح تتعلّم وتتربّى».

أهل الضيعة كانوا يلقّبون أبي بـ «صائب بك» (سلام)، لحرصه على أن يضع قرنفلة في عُروة سُترته. أبي الأنيق واللطيف، كان يستخدم عطرًا يشبه رائحة الصنوبر، يمسح به شاربيه، ويتأمّل وجهه في المرآة مدندنًا بلحن لعبد الوهّاب، أو بأغنية لأمّ كلثوم، ويُعلّي صوت الراديو حين تبثّ «إذاعة القاهرة» إحدى أغانيهما، فتزجره أمّي معترضة، زاعمة أنّ سماع الأغاني من الفواحش. فيُخفض أبي الصوت، مستعيذًا من غضبها، راجيًا إيّاها أن تهدأ وترضى.

فرِضاها، وهي ابنة السيّد ابن السيّد ابن السيّد، من رضا الله.

لم يكن أبي يرفض لأمّي طلبًا، لكنّه كان يصير متنمّرًا وصارمًا حين يتعلّق الأمر بالشّعر وبقصائد الحبّ الإباحي:

ـ فلقتيني يا عليّة. الأمر أمرك بكلّ الأشياء اللي بتتعلّق بولادك وبيتك، اتركيلي هالشويّة شعر وقصايد، شو بنغّصو عليكِ؟

ضعيفًا كان أبي في حضرة أمّي، أو ربّما كان ميّالاً إلى السّلم، لا يحبّ المشاكل ولا الصراخ، ولا أيّ مظهر من مظاهر العنف. يكره الجدال الذي لا طائل منه، ويفضّل الجلوس مع دواوين الشعر القديم، يترنّم بقصائد الفخر والحبّ، أو يتلو أدعية زين العابدين، كمن يُغنّيها، فأُنصت إليه بحبّ كبير، وأقول في سرّي «سوف أكتب الشعر حينما أكبر».

هو وحيد أبويه. تزوّج قبل أمّي بخديجة التي تكبره باثنتي عشرة سنة، وأفرط في تدليلها لفرط ما كان يحبّها. وبعد محاولات عقيمة للإنجاب دامت تسع سنوات، خيّب الطبيب أمله، عندما صارحه أخيرًا بأنّ بذرته ضعيفة، وربّما لن يُجدي معه العلاج. حينها عمد إلى تطليق خديجة برغم توسّلاتها. أقسم لها إنّه لن يحبّ امرأة مثلما أحبّها، لكنّها وقد شارفت على الأربعين، سوف يفوتها الأوان وتُحرَم هي أيضًا من الإنجاب، ما لم يطلّقها لتتزوّج برجل غير عقيم، خاصّة أنّه كان يدرك أنّ رغبتها في ولد هي الرغبة الوحيدة التي ظلّت تلحُّ عليها في صلواتها وابتهالاتها. تستجدي الله ليل نهار ليرزقها بصبيّ يملأ عليها الدنيا، ويُنسيها الخوف من شيخوخة مهمَلة ومتروكة. منح أبي لخديجة قطعة أرض كبيرة غالية

الثمن، لعلّها تكون حافزًا لعرسان يطلبونها للزواج. رضيت أخيرًا، وتمّ الطلاق بينهما، لكنّ أبي استمرّ يزورها حتى بعد زواجها من «علي الغريب» وانتقالها إلى القرية المجاورة. على باب دارها، كانت خديجة تهجم عليه متأهّلة، تقبّل كتفه معلنةً اشتياقها إلى سيّد الرجال، داعية إيّاه إلى تناول الكبّة بلبن «من ديّاتها»؛ الطبخة التي يفضّلها أبي على جميع أنواع الطعام.

حين تزورنا خديجة موسميًّا، كانت تُقبل عليّ بلهفة أميّزها من رعشة كفّيها وابتسامة عينيها. تضمّني إليها بقوة، تربّت على ظهري وتمسح شعري، ثم تهمس في أذني: «اشتقتلّك يا بنت حبيب القلب».

أمّا أمّي فلم تكن تُبدي استنكارًا، فهي لم تكن تغار.

فأبي هو زوجها الثاني بعدما طلّقها أبوها من ابن عمّها الذي عجز عن الدخول عليها بسبب عنّته الجنسيّة.

زواجها الأوّل اعتبرته عدم توفيق من الله، أمّا زواجها بأبي، فكان بالنسبة إليها أمرًا مدبَّرًا لا إرادة لها فيه. لم يدفعها إليه الحبّ. رضِيَتْ به لكنّها لم تستطع أن تحبّه، لاعتقاد راسخ عندها بأنّها مرصودة، منذ البداية، لذاك الشيخ الذي استحلاها منذ أتى إلى قريتنا للقيام بالتعزية بوفاة المختار. كان هذا الشيخ يزور القرية أسبوعيًّا، وأحيانًا كان يضطرّ إلى المبيت في أحد بيوتها. وكي يتمّ تكريمه كما ينبغي وبما يُرضي الله، كان بعض كبار الضيعة يَعْقِدون له زواج متعة على من يقع عليها اختياره من البنات، فمن غير المستحبّ أن ينام الشيخ الكريم أعزب، فهو من رجال الله،

وإكرامه بالمتعة واجب مفروض على المؤمنين (أو هكذا كانت أمّي تنعتُ أولئك الكبار، وأحيانًا تسمّيهم الأخيار).

مذّاك وقعَتْ في سحر الشيخ الزائر، بعباءته السوداء ولحيته الكثيفة، وقامته الممشوقة كشجر الحوْر، وعينيه اللوزيّتين. رأته ينظر ناحيتها ويتمعّن فيها من رأسها حتى قدميها، فشعرت بهبّة نار ألهبت قلبها وسرّعت نبضاته. تسمَّرَتْ عيناها في عينيه. خُيّل إليها أنّه يبعث إليها برسالة. فهمَتْ من خلالها كم هو معجب بجمالها. وميض عينيه كان أبلغ من أيّ كلام. ثم إنّه، على ما تذكر، لم يُعِرِ الفتيات حولها أيّ اهتمام.

ليلتَها لم تنم أمّي. ظلّت تتقلّب في الفراش مؤرّقة، تفكّر في الشيخ فارس الأحلام. تستعيد كيف راح يقيس جمالها ويبتسم، فتعود هبّة النار تُشعلها، وتشعرها بأنّ جسدها منذ تلك اللحظة صار منذورًا له. صندوق كنز مفتاحُه في يد الشيخ، ولن يستطيع أن يفتحه أحدٌ سواه.

«بعده لم أحبّ أحدًا حتى أبا أولادي»، ختمت أمّي حديثها الطويل لابنة خالتها، التي كانت قريبة منها، وظلّت تتردّد عليها وتزورها حتى بعدما انتقلت للسكن مع زوجها في بيروت.

بعدها، لم تحبّ أمّي أحدًا، حتى أبي. أوصدت قلبها على ذكرى الشيخ الذي غابت أخباره تمامًا بعدما انقطع عن زيارة القرية. قلبها المكسور كان يجعلها تبكي أحيانًا بلا سبب، لكنّها سرعان ما كانت تتجالد وتستعيد عزمها وصرامتها. أمّي التي كانت تبدو في منتهى القسوة ولا تلين، ليّنَت التربة الصعبة وأنبتتها

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

بالخيرات. أحاطتنا بالرعاية الكاملة، وجعلَتْ حياتنا أفضل في الوقت الذي حمّلتنا فيه مسؤوليّة العمل معها في الحقول، تستعين بجواد وبي وبعمّتي رقيّة في مواسم البذار والزرع والحصاد، هذا قبل أن نلتحق بأبي وننتقل للعيش في بيروت أوائل الستّينيّات.

لم يكن في مقدور عمّي محمود المريض أن يساعدنا لأنّه أُصيب بالكساح. البعضُ يقول إنّها الحمّى التي أصابته وهو صغير، وبعضٌ آخر يردّ كساحه إلى «الجناني». يقولون إنّ صالحة طيّبة كانت ترافقه مسافة الدرب الطويلة إلى نبع الضيعة ليلاً، ليأتي للعائلة بحاجتها من الماء. تضيء الصالحة الطيّبة أصابعها لتُنير الدرب المظلمة أمام عمّي الذي كان يعود مسحورًا يتحدّث عن تلك المرأة المتّشحة بالبياض، إلى أن حدث ذات ليل أن غابت الصالحة، فاضطرّ عمّي إلى متابعة سيره بمشقّة، وسط عتمة كثيفة حجبت عنه الرؤية. فجأة، ظهرت أمامه عنزة بيضاء، اعتقدَ أنّها تاهت عن قطيع راعي الضيعة، فأضاعت طريقها وبقيت هناك. استجاب عمّي لصوت النخوة: حمل العنزة على ظهره واتّجه عائدًا بعدما قطع في العتمة مسافة طويلة. وما إن بلغ ساحة الضيعة على بعد أمتار قليلة من بيتنا، حتى أفلتت منه بسرعة فائقة، وهي تطلق صوتًا بشريًّا غريبًا: «عمْ بُضحكْ عليكْ. عَمْ بُضحكْ عليكْ». صُدم عمّي. أصابه سلوكُ العنزة بالذهول. التزم بعد ذلك الصمت. لم يعد يذهب إلى النبع، بل صار يقصد شيخًا يشتغل بالسحر في قرية مجاورة، ليتعلّم منه الطريقة التي تمكّنه من «ضرب المندل» لجمع الجانّ، ثم صَرْفِهم

بعد حصوله على المعلومات التي يحتاج إليها منهم.

منذ ذلك الحين، لم يعد عمّي محمود على حاله. صار يشتغل بالسحر. يجمع الجانّ، ويسمّيهم بأسماء لطيفة وأسماء مرعبة. يجمعهم ويفرّقهم في خلوات يُمضيها وحده أو بصحبة آخرين، إلى أن فقد السيطرة عليهم ذات ليلة ماطرة، ولم يستطع أن يفرّقهم بعدما جمعهم. استدرجوه إلى المكان نفسه الذي عثر فيه على العنزة. آذوه بالضرب حتى فقد وعيه. وكاد يموت وحيدًا لو لم يجده أحد المزارعين صباح اليوم التالي غارقًا في الوحل، يكاد يختنق من ألم فظيع في الساقين يُعجزه عن الحركة.

ـ كَسَحَتْه الجناني يا حرام، قال المزارع، وهو يرمي عمّي من على ظهره، على المَدّ الخشبي في صحن الدار.

لم يَثُبْ عمّي عن معاشرة الجانّ. ظلّوا يأتونه فيُهمهم بكلام غير مفهوم. يلوّح بيده وتجحظ عيناه، ويطلع منه صوت أشبه بالحشرجة، قبل أن يهدأ مستكينًا على المدّ الخشبي تحت الشرفة المقابلة لشجرة الزنزلخت العتيقة. هناك حيث كانت عيناه تسرحان وتراقبان بانتباه حركة العصافير المعشّشة فوق أفنانها الغليظة. من بين هذه العصافير، ثمّة جانّ كان يأتيه على شكل عصفور غريب الشكل. كان يقف باستمرار على فرع منها، يُحدّثه ويوسوس له بفعل اللذّة. يأتيه في أوّل الليل أو في الصباح، في صحوه وفي منامه، يقول له: «يلاّ يا محمود خضُّه وحلبْه، خضُّه وحلبْه». فيمسك عمّي بعضوه، ويبقى يخضُّه ويحلبُه إلى أن تسكن أنفاسه ويُريق منيّه بين يديه.

عمّتي رقيّة، قالت لجدّتي مرارًا:

ـ هالعصفور ماكنش يحلّ عنّه، كرسحه أكتر ما هوّي مكرسح. كلّ يوم، كلّ يوم بيجي بقلّله خضّه وحلبه، هلّكه ومعش فيه حَيْل بالمرّة.

.

كثيرًا ما كان أخي جواد يتندّر مع رفاقه بحديث عمّي. تفرقع ضحكاته، بينما تشير يده إلى حيث عضوه. يمثّلُ كيف يفعل عمّي وعيناه مسمّرتان على شرفة بيت الجيران. جواد المدلّل الذي خصّته عمّتي رقيّة بالاهتمام والرعاية والغنج دون سائر صبيان العائلة، كان يُمضي معظم لياليه في بيتها، تهبه المال بلا حساب، ولا ترفض له طلبًا، فيستجيب بدوره لما تطلبه منه. تُسمعه كلامًا على سلوكي الذي لا يُعجبها، فيأتي إليّ مهدّدًا ومتوعّدًا. يوجّه إليّ لَكَماتٍ في الهواء فتُبعده أمّي راجيةً منه ألاّ يغلط، ثم حين يخرج من جديد تصوّب أمّي نحوي نظراتٍ من فولاذ. تقول إنّه سيّد البيت في غياب أبي، وعليّ ألاّ أخالف له أمرًا. «هو سَنَدك وظهرك وحاميك»، تقول لي، وإنّي لولاها لصرتُ الآن معطوبة من الضرب.

برغم همجيّة جواد كنت أحبّه، وأحلِفُ بحياته وما زلت حتى اليوم، حتى بعدما أنجبت ولديّ أحمد وفاتن، كان قلبي ينخلع خوفًا عليه إذا ما رأيتُه مرّة حزينًا أو مريضًا. أدعو الله أن يحميه ويُرشده ويُنجّيه من المكاره والمصائب، وأن ييسّر له فتاة صالحة تنتشله من ضَياعه العاطفي ومن انزلاقاته الخطرة مع بنات الهوى، وبنات العائلات المعروفة وغير المعروفة. عمّتي رقيّة أثّرت فيه

كثيرًا، فجنس النساء برأيها جنس ساقط ووضيع. جميعهنّ «فلتانات» في نظرها، ويستحققنَ الذبح.

تتلمّظ وتمصُّ شفتيها بشماتة ظاهرة، وتبرق عيناها حين تدخل دارنا محمّلة بجعبة من المشاكل والفضائح، وتروح تحدّث عن طلاق فلانة أو فلان، أو عن غرام حرام بين امرأة متزوّجة يعمل زوجها في بيروت، وأحد الشبّان السيّئي السمعة. لا تملّ عمّتي من نقل الأخبار واللّوْك في سمعة الناس، واختلاق قصص ملفّقة عنهم.

يوم ضبطتْني جالسة على حافّة البركة مع سعاد، أتلو عليها قصائدي العاطفيّة، جُنّ جنونها وهدّدتني بإخبار جواد، ونفّذتْ تهديدها متسبّبة لي في لَكَمات قاسية، أوْرَمَت عيني، وفكشت إصبع يدي الصغيرة.

ورَّطوها في زواج مبكر، ولم تكن قد تجاوزت بعدُ ربيعها الثاني عشر.

يومَ عرسها، وقفَتْ عمّتي رقيّة أمام عتبة بيتها الزوجي جامدة كاللوح قبل أن تشرع ببكاء مُرّ، راجيةً أمّها أن تُعيدها إلى البيت لتنام في فراشها.

ـ شو بدّي ضلّ ساوي هون، خلص العرس. خذوني معاكن، الله يخلّيكن! قالت، واستمرّت تبكي.

جرّتها سلفتها من يدها، وأدخَلَتْها بالقوّة غرفة النوم، بينما علا صوتها بنبرة حادّة كالسكّين.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ـ يللاّ فُوتي لجُوّه، فوتي عالذبح. ذبح غير شكل. فوتي بلا مسخرة.

أبو العريس ظلّ يروح ويجيء خلف باب الغرفة. ينفُخ بتوتّر جعل وجهه المتعرّق يبدو متجهّمًا وقلقًا بانتظار أن يخرج ابنه حاملاً بيده علامة الرجولة.

تنفث عمّتي رقيّة أنفاس القهر. تُضيّقُ ما بين عينيها. تُغمضهما، كمن لا يريد أن يرى، ثم تتابع حديثها عن تلك الليلة، كيف غابَتْ عن الوعي منذ بدأ العريس ينزع طرحتها، ثمّ لم تعد تعرف ما جرى إلى أن أفاقت على وجع مؤلم بين ساقيها. ورأت تحتها بركة الدم... نعم بركة الدم... هكذا وصفتها.

ـ كيف تركني هيك؟ كيف عمل هيك؟ ما بعرف. إللي بعرفه إنُّه اغتصبني وراح. ما خطر له إنُّه كان ممكن موت؟ يا خيفْ عالرجال. كلُّن وحوش يا نهلا.

كرهَتْ عمّتي العالم كلَّه منذ ذلك اليوم. ازدادَتْ شراسة. صارت تشبه الرجال القُساة. وأصبحت مثلهم تحتقر النساء. تدسُّ الدسائس للجميع، وتسعى إلى قطع حبل الودّ بين الزوج وزوجته، وبين الابن وأخيه وأخته. لا فرق عندها، فالجميع يستحقّ العقاب.

* * *

لست أدري لِمَ أتذكّر أشياء في طفولتي، وأنسى أشياء أخرى. هذه الأيّام، تزورني كثيرًا جدّتي أمينة، التي كنت أعشقها، في المنام.

أراها كما في الزمن القديم. تجلس هي وجارتها جميلة، الصديقة الأقرب إليها، في القبو الذي قضت فيه آخر أيّامها وحيدةً تنتظر موتها. أهجم صوبها وأجلس في حضنها فأتنشّق رائحة الحبق تفوح منها. أشمُّ منديلها وأقول: «أنتِ حبقة يا ستّي»، ثم أُعير أذنيَّ إلى حكاية جميلة التي روَتْها لجدّتي مرارًا.

تسترسل جميلة في الكلام، فتكتفي جدّتي بالصمت. لا تقاطعها أبدًا. تروح تهزُّ رأسها، وتتنهّد، تمامًا مثلما تفعل سعاد معي حين أحدّثها. تعصر عينيها وترمش كثيرًا وتبلع الكلام، فجميلة تلثغ بالأحرف كلّها. وبدون أن تتوقّف عن الحديث، تبسط قدميها لصُقَ الصوبا في أيّام البرد القارس، ثم تُحني رأسها فوقهما، وتمسّدهما بيديها المشقّقتين. تروي لجدّتي مرارًا قصّة حبّها لموسى التي دامت عشر سنوات، إلاّ أنّها انتهت نهاية مأساويّة يوم تقدّم للزواج منها.

رفضت عائلة موسى أن يكون مهرها فرشة الصوف كما أصرّ أهلها، فبطُل الزواج، وحصدت جميلة الخيبة والدموع والألم.

جدّتي أمينة التي كانت تكتفي بالإصغاء، كانت تساير رغبتها في الحكي، ولا تحرمها من تلك المتعة. وجميلة كان يؤنسها إصغاء جدّتي إليها، وإلى حكايتها التي كانت تُدمع عينيها كلّما روتها.

أمّا أنا التي كان يخطفني الإعجاب بعلاقتهما، ويسحرني الاستماع إلى أحاديثهما، فلم أدرك حقيقة ما يجمع بينهما إلاّ بعدما أُصيبت جدّتي بالطَّرَش، وانقطعت جميلة عن زيارتها. يوم التقيت بها صدفة في ساحة الضيعة، أردتُ أن أعرف منها السبب، فسألتها معاتبة:

ـ صار لي زمان ما شفتك عند ستّي. شو القصّة؟ ولو، كنتو من أعزّ الصحاب!

ـ بلا صحاب، بلا بطّيخ. بدّك ياني بحّ قلبي من الحكي مع مرا طَرْشا، يلّي ما بيسمعْ عليك شو بتحكي، لشو بفيدك. مش ناقصني طرشان بآخر هالعمر، أجابت جميلة.

آلمني ما قالته عن جدّتي، ولم يكن في صوتها ما يشي بمشاعر الذنب أو الجحود. كأنّ أحاسيسها تيبّست بيباس سمع جدّتي.

لطالما أسَرَني الاستماع إلى أحاديث الكبار. يسحرني ما يتعلّق منها بالحميميّات وبأسرار الحبّ. أريد أن أعرف عنه أكثر ممّا يتيحه لي عمري الطريّ. أدسُّ نفسي بين شلّة البنات في الصفّ الخامس، وأروح أصغي بشغف إلى ما يتهامسن به عن العشق والغرام. تثير أحاديثهنّ خيالاتي، فأعلّي الراديو بصوت عبد الحليم حافظ في أيّام العطل المدرسيّة، مستغلّةً وجود أبي، وتراودني الرغبة في كتابة مشاعري وغراميّاتي الوهميّة، فأنزع ورقة بيضاء من دفتر الفروض، وأشرع بخرطشة كلمات حبّ ملتهب لحبيبي الخيالي. وفي الليل حين يختلي أبي بأمّي، يثور فضولي فأسترقُ السمع إلى همساتهما. وتأتيني همهمات أبي المجبولة بالرِّقّة، تزجرها أمّي بنبرة جافّة:

ـ الله يهدّك يا جهلان. هالحكي ما بيلبقلنا. وبعدين أنا ما بحبّ إلاّ ربّي.

ـ سبحانه ما أعظم شأنه. بسّ إنتِ حلالي يا مرا. شو ممنوع يحبّ الرجّال مرته؟

ـ أنا إمّ ولادك وبسّ.

ـ ومن وين إجو الولاد يا هبلة؟

يهتزّ بهما السرير. أسمع طرطقته، ثم يسود السكون.

كيف أنجباني؟ أحدّث نفسي، وهل أنجباني عن حبّ؟

كنت أعتقد أنّ الأبناء الذين يأتون إلى الحياة بدون حبّ يعانون نقصًا ما. شيء فيهم يكون مختلفًا، حزنهم ربّما، أو ضعفهم، أو قبحهم. أخافتني الفكرة، فتحسّست وأنا مغمّضة العينين، نفسي. استعدتُ صورتي واطمأننتُ. كلُّ ما فيّ جميل، وجميل جدًّا. صحيح أنّني أحزن أحيانًا، لكنّي أميل إلى الفرح أكثر. غمرتني الغبطة وأقسمت إنّي لن أنجبَ أطفالي إلاّ من الرجل الذي سأحبّه ويحبّني. أضحك الآن، وأتذكّر ما حدث لي إثر ولادتي الأولى، لحظة حملت الممرّضة ابنتي فاتن ووضعتها بين ذراعيّ لأُرضعها من ثديي. احتضنتُها وشعرتُ بأنّي ذراعان فقط. جسدي كلُّه صار ذراعين لففتُهما حول فاتن وأنا أحاول أن أقيس حجم الحبّ الطافح، والذي اجتاحني لحظتها. كان حبًّا بلا حدود، لم تُنقصه، ولو شعرةً واحدة، برودةُ مشاعري العاطفيّة تجاه سليم منذ زواجنا.

* * *

تأخذني ذكرياتٌ أخرى، أستمهلها برهة لأحدّق محنيّة الرأس في الكنبة حيث أجلس. لوهلة يلوح لي أنّي أطفو فوق غيم من

الذكريات، تتدافع فيّ فوضى عجيبة، وتتقافز بي عبر أزمنة وأمكنة بعيدة، خلت أنّني نسيتها تمامًا، ثم ترمي بي وسط وجوه وأحداث قديمة تبدو لي الآن كأنّها تجري للتوّ.

ويُطلّ وجه أمّي غائمًا مكفهرًّا. ترفع سبّابتها في وجهي غاضبة، بينما أقف أمامها أُصرُّ على رغبتي في متابعة تعليمي.

ـ خلص. خلصنا. معش في تعليم ومدارس. وَلّو بتُوقفي على راسك شكّ.

لكنّ زئير صوتها وانعقاد حاجبيها المتجهّمين، لم يليّنا عزمي.

ـ بسّ هيك عم تظلميني يا إمّي وتكتّري. حرام عليكِ.

يصلّب العناد نبرتها وأسمعها تردّ:

ـ سكتي يا بنت. سترتك بالبيت مش بالمدرسة. وبعدين مين ساواك بنفسه ما ظلمك.

«شو جاب لجاب»، أقول في سرّي، ويروح فكري إلى موقف الشيخ اللّعين الذي يبغض البنات، يزور بيوت الضيعة... منزلاً منزلاً، ليحرّض الأهالي على حَجْب التعليم عن بناتهم، وهو يرفع أصبعه ويقول: «كثير على الواحدة منهنّ أن تفكّ الحرف».

يوم زارنا الشيخ وتأهّلت به أمّي، ظلّ أبي واقفًا خلفها قبل أن يبادره ببرودة:

ـ خير يا شيخنا؟

«كلّ الخير يا بو جواد»، ثم تابع وعيناه متّجهتان نحو أمّي:

شهادة السرتفيكا وأخدتها بنتك. دبنيًا، هلّق صار لازم تنستر بالبيت. يسواها ما يسوى بنتي. قعُدتها بالبيت بسّ أخذت الشهادة. يا عمّي البنات ما إلن أمان. بفوّتوا الواحد على جهنّم، خصوصًا هلّلي بيتعلّموا. خوذ ساعتها على مكاتيب العشق والغرام، أستغفر الله، أستغفر الله، بدّك تعلّم بنتك، اصطفل.

ـ بنتي بني آدم وبدّي علّمها. وبعدين، بدُّه يجي يوم وتحبّ بنتي شبّ وتراسله. وإذا خلّيتها تضلّ بالبيت وتسرح بالغنمات، بتضلّ راعية وبتجبلها شي راعي متلها، ويمكن يضلّ يغذّيها ويعيشها قَتِلْ، متل ما بيعمل «علي الجزّ». مش أحسن لها ساعتها تبقى بالمدرسة تتعلّم لتكبر وتتجوّز شبّ بيفهم عليها وبتفهم عليه، وبتحبُّه وبحبّها؟

لم يسكت له أبي، فما كان من الشيخ إلاّ أن أمال عمامته إلى الخلف بعصبيّة، وقال ممتعضًا:

«يعني أنت وبنتك رايحين على جهنّم ركض»، ثم التفت إلى أمّي مزمجرًا: وإنت يا ويلك من غضب الله. رح تتعلّقي بِشَعْرِك بجهنّم وتحترقي لأبد الآبدين.

برغم خوفها من نار جهنّم، رضخت أمّي أخيرًا لطلبي، تحت إصراري المدعوم من أبي. أفزعتها تهديداتي بالانتحار غرقًا في البئر. لكن خوفي من جهنّم ظلّ يُؤرّقني. كذلك الإحساس بالإثم العظيم الذي ارتكبتُه بتعريض أمّي لعذاب النار، لأنّي تابعت تعليمي، استمرّ يؤرقني ويُشعرني بالذنب، إلى أن تلاشى وتبخّر بمرور الوقت، خاصّة بعد انتقالي لاحقًا إلى مدرستي الجديدة في بيروت.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

الرغبة في الحياة تفجّرتْ فيَّ كالطوفان. أقبلتُ على عيشها بحرارة وشغف وبدون خوف. أفعل أشياء كثيرة تصيب أمّي بالهستيريا. فالضحك بصوت عالٍ ممنوع وعيب، وحبُّ الحياة التي تخافها أمّي ذنب وحرام، والدندنة بالأغاني كفر ومسخرة، كما قال لها الشيخ. تمنعني أيّامَ عاشوراء عن مضغ اللُّبان الذي أحبُّ مذاقه السكّريّ، وتمتّعني بالوناته الشفّافة التي تصير تنطلق من فمي فأنفخ فيها حتى تتضخّم قبل أن أتركها تنفجر وتلتصق بوجهي فأضحك وأعيد الكرّة. تقول وهي تخبط فمي بكعب قبقاب الصلاة:

ـ شو عم تعملي يا مشحّرة. هلّق بتفكّرك الملائكة شمتانة بالحسين وبأهل البيت، الله يريّحني منّك. بكفّي إنّي رايحة على جهنّم كرمالك.

التناقض بين أمّي وأبي كان يُذهلني ويُحيّرني. أبي الفَرِح الضَّحوك المحبُّ للحياة، أراه أجمل رجل في الدنيا، بقامته الشامخة وعينيه اللوزيّتين وصوته الدافئ وقلبه الحنون ولطف حديثه ورقّة عباراته، بالإضافة إلى شاعريّته التي كنت أُعجَب بها. وبرغم أنّه قصد الكتّاب لعامين، ولم يعرف المدرسة، إلاّ أنّه كان يُجيد القراءة والكتابة، ويحفظ الكثير من الأشعار والأقوال. أراه في بعض الأحيان منشغلاً في ملء أوراق أمامه، فأسأله إن كان ينسخ القصائد، فيجيبني مصحّحًا «بل أكتب مذكّراتي يا نهول».

«أنا طالعة مثلك بحبّ إكتب»، أقول له كأنّي أردّ له جميل وقوفه إلى جانبي ومساعدتي على إكمال تعليمي. أمّا أمّي فتكاد تكون

على النقيض منه في كلّ شيء. حفظتِ القرآن بالسّماع، ونصيبها من الجمال لا يتجاوز المستوى العادي. لا شيء فيها يلفت الانتباه سوى عنادها وصلابتها وصبرها على المشقّات، وعلى احتمال «زعرنات» جواد ونزواته. وحنه صوتها الشجيّ الحلو كان يفتنني ويُفرحني حتى البكاء. أسمعه فأتوسّل إليها أن تعلّيه وتغنّي أكثر. يحمرُّ وجهها وتُشرق عيناها بوميض غريب، كأن بصورة أو بذكرى، وتروح تدندن ببعض ما حفظته من القرّاوات والغراميّات وأشعار العتابا والميجانا، لكن بعد أن تردَّ الباب الخارجي وتطمئنّ إلى خلوّ المكان كي لا يسمعها أحد.

لطالما أدهشتني أمّي بذاكرتها العجيبة. تكرّر أبياتًا أتلوها أمامها أثناء درسي بصوت عالٍ من قصائد لأبي النواس، أو لعمر بن أبي ربيعة، أو لأبي فراس الحمداني والمتنبّي. تحفظها كما أحفظها أنا تمامًا. ومرّة استشهدت ببيت للمتنبّي، وحين سألتها لمن هذا البيت يا أمّي، أجابتني بثقة:

ـ «أكيد للإمام علي».

لم تكن أمّي تحبّ أبي، كما تحبُّ المرأة الرجل، إلاّ أنّها حفظت ذكره ولم تشلح الأسود بعد وفاته إلى حين جاءها الموت ورحلَتْ.

افتُتنتُ بالشّعر، وتعلّقت بقراءة الروايات وقصص «ألف ليلة وليلة». صارت الكتب بالنسبة إليّ تفصيلاً يوميًّا مألوفًا، أحرص على اصطحاب واحد منها، حتى حين أقصد أراضي المشاع

المعشوشبة لأسرح بغنمات أمّي وأنا أدرس دروسي. القراءة مثل الطبيعة تحفّز حواسّي وخيالاتي وذهني، وكلتاهما تحرّك فيّ الرغبة في الحبّ والغرام وتُنضج عواطفي وأحاسيسي. تتجمّع فيها برك الانفعالات وتختلط بالدم في عروقي، فيتوثّب جسدي وتشفُّ روحي وأتحمّس للعشق. أقول لنفسي: العشق إعلان عن نضج أنوثتي ويلوغي الذي هلّت بشائره متزامنة مع رسائل ابن جيراننا حسّان الذي يكبرني ببضعة أعوام. فيها كتب لي ما يُشبه كلام العشّاق في الروايات والقصائد، فإذا بي مرّة نغم. ومرّة دعد.

تيّمتْ ابن الجيران وهمتُ حبًّا به، وأنا بعدُ في مستهلّ عامي الثالث عشر. أتلهّف للقائه، فأخترع الحجج وألفّق الأكاذيب، فأدّعي أنّ سعاد مريضة، وعليّ أن أزورها لأحمل إليها الفروض وأشرح أمامها الدروس التي فوّتتها. شوقي إلى حسّان كان يمدُّني بقدرة إبداعيّة على تمثيل دوري. وتصدّقني أمّي. تسمح لي بالذهاب إلى صديقتي المريضة شرط ألاّ أتأخّر.

ولهفتي إلى خلوة طويلة تجمعني به، زوّدتني بجرأة مذهلة، جعلتني أتهوّر وأجازف بالذهاب معه سرًّا إلى أرض «القاطع» لنصطاد العصافير.

يومها علّمني حسّان الصيد وشيئًا آخر.

وقف خلفي مباشرة، وبيديه وصوته صار يوجّهني كيف أُحْكِمُ الإمساك بالبارودة، وأسدّد بوزها نحو العصفور، وأترصّد لحظة يحطُّ على شجرة التين فأشدّ على الزناد بسرعة. تهدّج صوته فجأة، وجسده المتوتّر الملتصق بي من الخلف راح يتلوّى ويحفُّ بجسدي

بينما يداه تطوّقان خصري، وشفتاه تسرحان وتمرحان بالقبل ما بين كتفيّ وعنقي، فتلتهب رغبتي، تتهيّج، وأشعر بجسدي كلّه يرتعش. للحظة اكتسحتني نشوة عارمة، فتأوّهت ملتذّة قبل أن ترتخي مفاصلي وأسقط على الأرض، مذهولة، تعصف بي مشاعر متناقضة هي مزيج من خدر النشوة وقرصة الذّنب.

حدث ذلك كلّه بسرعة فائقة.

في طريق العودة، لم أتابع حديث حسّان. كنت أهرول مستعجلة، وأفكاري المتسارعة تسبق خطوي. غلبني الخوف من أن تستأخرني أمّي، وترسل جواد إلى بيت سعاد للبحث عنّي، لكنّ سؤالي المقلق ظلّ يلحُّ عليّ:

هل سقط جسدي على الأرض بفعل النشوة، أم بفعل الذنب؟

خفتُ من الحالتين، إلاّ أنّ تحوّلاً كبيرًا طرأ عليّ بعد ذلك اللقاء. صرت أعرف جسدي أكثر، ثم إنّني رحت أكتب خواطري وأنظم الشعر.

أكتب أفكارًا تراودني حيال جميع الأشياء التي أمرّ بها. أمّا القصائد فقد خصّصتُها لحديث الغرام. قلبي كان يحبّ كلام الشعر، وأفكاري تعبّر عن أشيائي الأخرى. أجمع ما أكتبه في دفتر خاصّ. أدسّه بين كتبي ودفاتري المدرسيّة وأطمئنّ.

• • •

يا الله، كيف يطلّ عليّ الماضي الآن، ليعيدني إلى تلك الأيّام.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

أفرد أمام عينيّ أصابع يدي اليمنى، وأروح أتحسّسها بيسرايَ وأتذكّر. أتذكّر آثار الحرق العميق الذي سبّبه لي جواد، يوم جرّني من شعري إلى غرفة الصوبا حيث تجلس أمّي. رفع يمناي، وألصق كالوحش أصابعها بحديد الصوبا، مُقسمًا أن يقطع يديّ في المرّة القادمة. هبّت أمّي كالمجنونة لتدفعه عنّي وهي تصرخ به:

ـ رح تعطب إختك. شو عملتْ لَكْ يا أخوت؟

ـ تنعطب. أشرفْ ما تكتبْ حكي الفحش هلّلي كتبته. بنتك يا ستّ، فلتانة على الإخر اسمعي. اسمعي شو بتقول. قال «شفافها مشتاقة لشفافه» والمخفي أعظم. جأر جواد وقد جحظت عيناه وتصلّبت يداه الممسكتان بسيخ الصوبا.

تهاويتُ على الطرّاحة أمامهما، وألم فظيع يمزّق يدي وذراعي ويشلّ قدرتي على الحركة وسط صوت أمّي المذبوح يعلو بسياط كلام أقسى من الصخر، قبل أن تستغرق في نوبة بكاء مُرّ، تندب نفسها وحظّها الملعون.

كان ذلك مساء نهار الأربعاء عشيّة مجيء أبي من بيروت. لم أنم ليلتها. انتظرت مجيء أبي لأشكو إليه حالي، وأقول له إنّ ما كتبته مجرّد وهم وخيال. تأخّر أبي فنمت عند الفجر، واستيقظت على أنين وجع يصدر منّي، وصوت المؤذّن يعلو بصلاة الظهر. فركت عينيّ وأصغيت إلى حديث أمّي مع أبي من خلف الجدار الفاصل ما بين غرفتي وصحن الدار.

ـ هللاً هللاً يا زمنْ. آخرتنا ننفضح ونتجرَّس كرمال بنتك.

مبروك علينا العلم اللّي عم تتعلّمه. بدُّه يودّينا على جهنّم. بس لحدّ هون وبسّ. بنتك عم تكتب كلام فحش. ولك وين بدّي خبّي وجّي من الناس. انبسطت؟ هيدا العلم اللي عم تتعلّمُه بنتك رح يخلّي آخرتنا بجهنم.

أتأمّل أصابعي من جديد وأبتسم لها. أراها كما من قبل أربعين عامًا، وكيف راحت تنغرز في التربة، تحفرها بهمّة مدهشة، وتوسّع مكانًا يكفي لإخفاء الأوراق الجديدة التي كتبتُ فيها قصائدي وأفكاري معًا هذه المرّة. هكذا لن يكون حتى للجنّ أن تعثر على أوراقي وتكشف سرّي. أمّا جواد فلن يسعه أن يتصوّر، حين يقف أمام مسكبة النعنع ويُرسل الإشارات إلى ابنة الجيران، أنّه يقف على مسافة شبرين فقط من سرّي المدفون تحت التراب، حيث تغور شروش شجرة الرمّان المزهرة.

أبتسمُ لأصابعي بعدما أنهت مهمّتها، تمامًا كما أبتسم اليوم. ثم أقطف غصن نعنع وألهو بنزع أوراقه، أعدّها «يحبّني... لا يحبّني». تُسعدني ورقة الحبّ فأتنهّد باطمئنان، وأدلف إلى داخل البيت بدون أيّ شعور بالخوف.

ما الذي حلّ بأوراقي؟ تُراها اهترأت وتحلّلت وصارت ترابًا تحت التراب؟ أهمس لنفسي كأن لم يمضِ على دفنها هذا العمر كلّه.

لطالما دفعتُ عنّي الخوف كلّما هجم عليّ أو باغتني. تمرّدتُ عليه وغلبته دومًا. والمعلّمة التي زجرتني وأعادتني إلى البيت بعدما وصفتْ فعلتي بالحماقة والفجور ونعتتني بـ «الجهلانة»، لم يكن لها أن تخيفني سوى للحظات.

كنتُ يومها في العاشرة من عمري. أشتهي أن تنضج أنوثتي وأكبر بسرعة، فأحاول أن أقلّد الصبايا وأتزيّا بزيّهنّ في السرّ. ولم يكن في بيتنا ما يعينني على فعل ذلك، فأقصد بيت عزيزة. أستدرجها لتدعني أجرّب ثياب أختها الكبرى. أحدّثها عن شهوتي للنضج، فيحمرّ وجهها وتضحك، ثم تقودني إلى خزانة الثياب حيث تزهو فساتين أختها المخطوبة وثيابها الداخليّة الجديدة. حمّالة الصدر العاجيّة أثارت فيّ الرغبة في التجريب، فغافلتُ عزيزة وسرقتُ الحمّالة. وفي صباح اليوم التالي، كنت أقطع مسافة الكيلومترات الثلاثة التي تفصل ضيعتي عن مدرسة البلدة المجاورة، مزهوّة بنهديّ اللذين منحتْهما الحمّالة انتفاخًا ليس لهما. في الملعب، لم تردعني قهقهات سعاد ونادين وعزيزة ولا غيرهنّ من البنات. دخلت الصفّ وجلست في مقعدي الأمامي أتنحنح وأحمحم، محاولةً أن ألفت انتباه المعلّمة إلى بروز صدري، وكانت المصيبة السوداء.

نهداي كانا هاجسي الدائم، أراقبهما يوميًّا في خلوة الحمّام. وحين أغتسل أصير أتحسّس نتوءهما الضئيل. أكوّز قبضتي اليمنى أقيس بها انتفاخهما الوهمي، ثم أُغمض عينيّ متخيّلة أنّهما امتلآ، فأمتلئ بالغبطة. في سنّي تلك، لم أعد أسمح لأمّي بمساعدتي على

الاغتسال، أتحجّج بأنّي صرت صبيّة، وفي وسعي أن أليّف جسمي وأفرك ظهري بنفسي بدون مساعدتها. أختلي بجسدي وأترك يديّ تمرّان على كلّ تفاصيله، يمتّعني ملمس بشرتي فأهتف لنفسي بصوت عالٍ: «الله. الله. حرير يا نهلا، حرير».

وفي تلك اللحظة، يعود إلى سمعي صدى صوت الجمهور المتعالي من الراديو، يهتف لغناء أمّ كلثوم بالـ «الله» نفسها.

نَهَدَ صدري، وحظيتُ بما حلمت به، لكنّي ظللتُ أغارُ من نهدَيْ عزيزة التي تفوقني عمرًا بعامين، أنقّل عينيّ بينهما وبين نهدَيْ سعاد الممسوحين تقريبًا برغم بلوغها. فأعود راضية معزّية نفسي بأنّ «خير الأمور الوسط».

أحببتُ جسدي ودلّلته منذ صغري، وكلّما ازداد حجم نهدَيّ سنتيمترًا واحدًا، أُعطيهما اسمًا جديدًا. فهما حبّتا كرز، ثم مشمش، ثم رمّان لفّاني. وأمازح سعاد، أسألها عن حبّتي الحمّص خاصّتها، فتغضّ الطرف ولا تجيب. سعاد الضئيلة الجسم، الحنونة، الطيّبة القلب ووحيدة أهلها المدلّلة بين تسعة صبيان، كانت فائقة الذكاء وشديدة الانضباط برغم أنّها تتمتّع بهامش من الحرّيّة يفوق هامشي بكثير، فأهلها أكثر انفتاحًا من أهلي، ولا سيّما أمّها اللطيفة، اللّبقة والمتعلّمة. تسمح لها بفعل ما تشاء، ضمن الحدود المعقولة طبعًا، تُلبسها ثيابًا جميلة مثل بعض بنات بيروت اللواتي يقصدنَ الضيعة للاصطياف.. ويدلّلها إخوتها الصبيان، فلا يحاسبونها أو يضربونها كما يفعل بي جواد. لم تشتكِ سعاد مرّة من أهلها، ولا من جسدها، تتحدّث عنه حين ألحّ

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

عليها، تقول عنه ببساطة إنّه عادي وطبيعي، وإنّها ليست مستعجلة على شيء.

* * *

أتذكّر ذلك الجسد الضئيل وكيف تغيّر لاحقًا. امتلأ بتناسق جميل، وصار يلفت الأنظار في السنة الأولى من دراستنا الجامعيّة، هي في فرع الفلسفة، وأنا في فرع الأدب العربي. أتذكّر وتلوّحني الذكرى، تقذفني بين تفاصيل من طفولتي ويفاعتي حينًا، وحينًا بين صور عن صباي وريعان شبابي الأوّل. لكنّ حاجزًا ما، حاجزًا عنيدًا يقف دومًا ويُخرس ذاكرتي حيال الحاضر والماضي القريب. كأنّ ستارة سوداء غليظة تحجبهما عنّي، أو كأنّ عمًى ما أصابهما يُعجزهما عن تلمّس الطريق إلى ذاكرتي.

لا، لم أكن فتاة متهوّرة أو طائشة، ولم أكن أيضًا شبقيّة أستسلم لغرائزي فقط، كما صارت عزيزة الآن. في البداية، كانت تخجل من خيالها، وتنحاز إلى الشعراء العذريّين تدافع عنهم وتصفهم بـ «أحبّاء الله». هذا قبل أن تنقطع عن الدراسة بعد انتقال أهلها إلى بيروت وزواجها الأوّل ثم طلاقها بعد حين.

عزيزة، عاشقة جميل بثينة، كانت تبكي إذا ما لطّشها أحد الشبّان، أو حين يتحرّش بها جواد، تقول إنّه... (ولا تتلفّظ بالشتيمة، تُبقيها عالقة في فمها)، ثم تضيف مشفقة «يا ويلو يللّي بحبّ بجسمه مش بروحه بسّ».

يوم أدركَتْها العادة الشهريّة، فزعَتْ، ظنَّتْ أنّ جرحًا أصابها.

هزّها شعور فظيع بالخوف والرعب. فغسلت ما بين فخذيها، ثم هرولت إلى فراشها. استلقت فوقه ورفعت ساقيها إلى الأعلى وهي تبتهل إلى الله كي يوقف نزف الدم من جرحها. ولمّا نهضت بعد حين، هالها أن يتدفّق دمها ويلوّث شرشف فرشتها. عمدت إلى تمزيقه بأسنانها إلى قِطَع وضعت بعضها داخل كيلوتها وخبّأت البقيّة، ثم استسلمت للنوم متذرّعة بألم في رأسها. أمّها الريفيّة البسيطة لم تنتبه ولم تعرف بالأمر إلاّ بعد مضيّ وقت طويل. يومها همهمت بكلام غير مفهوم ثم أدارت ظهرها لابنتها لتدبّر أمرها كيفما اتُّفق.

بلوغي كان حدثًا مختلفًا.

قبله كنت أسأل أمّي: «شو يعني فوط الدم؟».

أستدرجها ببراءة مفتعَلة، لتقول لي ما صرتُ أعرفه من خلال بنات الصفوف العليا. فتصمت أمّي وينبحُّ صوت عمّتي رقيّة التي صارت تطيل المكوث عندنا:

ـ يعني يوم القرف والتعتير. اسكتي. اسكتي يا بنت. الحمد لله. بعدك ما شفتيه ولا وصلتيله.

بيني وبين نفسي، كنت أستعجل وصوله لأصير صبيّة حقيقيّة، ويوم توشَّح كيلوتي باللون القاني وبلغتُ، ركضتُ إلى أمّي أنقل إليها البشارة.

ـ اليوم، صار عندك عروس بالبيت يا إمّي، قلتُ مزغردة.

لكن أمّي التي فهمت قصدي، تحاشت النظر إليّ. غامت عيناها

وعقدت حاجبيها قرفًا أو استنكارًا، أو ربّما مزيجًا من الاثنين. ثم زمّت شفتيها بصرامة وقالت:

ـ قومي. قومي على الجارور الوسطاني. خذي منُّه فوطة وحطّيها محلّ ما لازم.

الآن، بات يلزمني سوتيان تليق بنهديّ. كنت قد احتطتُ للأمر وادّخرت من مصروفي الخاصّ مبلغًا متواضعًا، فقصدتُ البائع وعدت بسوتيان عاجيّة اللون مطرّزة بالدانتيل. فور وصولي إلى البيت، هرعت إلى الغرفة، تعرّيت ولبستها، ثم رحت أتأمّل صورتي في المرآة الخارجيّة لخزانة الثياب وأصفّر بإعجاب. أملتُ رأسي إلى الخلف، ورفعت ذراعيّ لأعقد شعري، فبانَتْ لي الشعيرات الخفيفة الناعمة تحت إبطيّ. أنزلتُ بصري إلى حيث عانتي. كانت الشعيرات هناك أكثف وأطول. إنّه مكان السحر. وشوشتُ نفسي، وشعرت بأنّي أحلَق وأطير.

صوت أمّي الغضوب، المجروح برجفة تستفظع عريي، يبّس حركتي وأرعبني، وأعادني إلى الأرض.

ـ شو عم تعملي يا مشحّرة. إنتِ أكيد راكبك جنّ. الله يلعن الساعة يلّلي خلّفتك فيها. رح تجيبيلي إخرتي. ومش رح تعقلي.

صفَقَتْ أمّي باب الغرفة خلفها بعنف. سمعتُ بعدها صرير البوّابة الخارجيّة تُغلَق وخطوات أمّي تذرع بعصبيّة صحن الدار.

لا أعرف لمَ راودني نحوها، في تلك اللحظة، شعورٌ طاغٍ بالإشفاق. أُشفق عليها من نفسها، تقسو عليها وتحمّلها أكثر ممّا

تطيق. لم أرَ أمّي مرّة تتبرّج أو تتأنّق أو تتعطّر، مثلما تفعل أمّ سعاد. عطرها الوحيد صابونة الغار. تهتمُّ بنظافتها ونظافتنا، وتقول إنّ النظافة من الإيمان. وتكتفي من الثياب بالقليل: فستان شتوي وآخر صيفي، وفوقهما بالطبع العباءة السوداء.

أشفقتُ على أمّي، لأنّها تعتقد أنّ جنًّا يلبسني، وهو الذي يدفعني إلى القيام بأفعال لا تليق بالبنات الصالحات. أمّي كانت تحبّ فقط البنات الغشيمات، لذا رضيت لي برفقة سعاد وعزيزة، وسمحت لي بزيارة منزليهما.

أشفقتُ عليها، لكنّي لم أكفّ عن فعل ما يثير غضبها. لم أشتر حبّ أمّي ولا رضاها بإمساكات جسدي وقمعه، ولا بكره الحياة والزهد فيها. ظللتُ أدلّل جسدي ولا أستحي من أنوثتي أو أخجل منها. ظللت أكتبُ الشعر والخواطر وأقرأ بنهم. أقرأ الروايات وقصص الجنّ في «ألف ليلة وليلة». أتأثّر بها فأحلم في الليل بأنّ أميرًا من الجنّ يقع في غرامي، فيخطفني ويطير بي إلى عالم غريب. فأخاف أن يسحرني ويحوّلني إلى جنّيّة مثله. أخاف، برغم إحساس اللذّة الذي يُرعشني حين يعتليني، كما في القصّة، ويروح يفرك خدّيه بخدّيّ وأنفه بأنفي... أنتبه من نومي فأهبّ من فراشي وأستعيد صورتي العارية في المرآة، وأروح أفكّر. كيف لي أن أُخرس ضجيج الحياة في قلبي وفي جسدي كي ترضى عليّ أمّي وتباركني؟ ويجفلني التفكير لحظة أتصوّر نفسي وقد صرت مثلها عبوسة الوجه، صارمة النظرات، متيبّسة الجسد، صبورة وصامتة.

العالم كان أجمل من أن أُعاديه وأختبئ منه. يضحك لي فكيف

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

أقابله بالعبوس؟ والحياة كانت تشدّني لأعيشها وأكتشف المزيد. تجود عليّ بالمباهج فأطمع بما هو أكثر. أحزاني الصغيرة ظلّت صغيرة وعابرة. لم تقطع شهيّتي للعيش ولم تُزهدني في الدنيا. يُزعلني أخي جواد، وأمّي أحيانًا، أو عمّتي رُقيّة، فأعضب قليلاً، لكن لا يسودُّ قلبي. يظلّ ينبض ويحبّ ويحلم ويتمنّى أن يصير جواد ألطف، وأمّي أرقّ وأنعم وأكثر حبًّا لأبي. هي تهتمّ به، لكنّها تهتمّ بالصلاة أكثر، وتحبّها أكثر ممّا تحبّه. أقول وأغضب كما يغضب أبي عندما يغازلها أمامنا فتنفر معترضة وتسخر منه. أتمنّى لو أنّها تهتمّ أكثر بنفسها ومظهرها. حينها، ربّما، لن تعود تدندن بالغناء وحدها في السرّ، بل تصير تُطلق صوتها الحلو، تتركه يعلو ويعلو فتسمعها طيورُ البراري وتأتي لتحطّ في دارنا وتغنّي معها.

• • •

قلبي كان يتمنّى أشياء لا تُحصى.

يسرقني التفكير في المقبل من الأيّام. أيّام قليلة وننتقل للسكن نهائيًّا في بيروت. سبقتنا إليها عائلة عزيزة. عزيزة التي افتقدتها كثيرًا.

يلحُّ عليّ طيفها، فأتذكّر نزهتنا الأخيرة في طرقات الضيعة.

يومها، أخذنا الحديث ونحن نسير على غير هدى، إلى أن بلغنا آخر حدود الضيعة وأصبحنا على مقربة من مدخل البلدة المجاورة. فجأة توقّفتُ عن الكلام، وذكرت لها رغبتي في أن أصير شجرة.

رمقتني باستغراب، ثم رفعت بصرها وجالت به على الشجرات الشامخة على طرفَي الطريق. قاستها بعينيها من فوق إلى تحت. هزّت رأسها وقالت بجديّة:

ـ شو صايرلك يا نهلا! مش معقول يلّلي عم تحكيه. الظاهر إنّك عم تكفري ومش منتبهة. مرّة بدّك تكوني عصفورة بالجنّة، وهلّق بدّك تصيري شجرة. لأ، بكفّيكِ هالقدّ. خلّيكِ معاي على الأرض أحسن.

أنكرت عليّ عزيزة رغبتي في التحوّل ما بعد الموت إلى شجرة. رشقتني بالكفر واتّهمتني بالجنون، ووصفت تصرّفاتي هذه الأيّام بأنّها صارت تثير الاستهجان والسخرية. ذكّرتني بحادثة السوتيان وبرحلة الصيد وبحوادث كثيرة أخرى. سكتت قليلاً، ثم أخبرتني عمّا تتهامس به عنّي بنات المدرسة. قالت إنّهنّ يستغربنَ حيويّتي وغنجي وإعجابي بجسدي، ويمتعضنَ من سلوكي الجريء وكلامي الصريح والطريقة التي أعلنتُ بها أمامهنّ مجيء عادتي الشهريّة. والأدهى من ذلك أنّني لم أُباغَت أو أخجل، بل حتى لم يرمش لي جفن لحظة استدعتني المعلّمة إلى اللوح لأصحّح لإحدى البنات ما ارتكبته من أخطاء إملائيّة. فسارعتُ إلى ذلك متباهية بشطارتي حين علا ورائي فجأة صوت ضحك مكتوم ثم قهقهات عالية. أدرت وجهي مستغربة، فنبّهتني المعلّمة إلى آثار دم تلوّث مريولي من الخلف.

لم أبكِ أو أنفعل حينها، ولم يبدر منّي ما ينمُّ عن مثل ذلك الانكسار الذي يكسو وجوه البنات أثناء عاداتهنّ الشهريّة، بل كنّ

لمّا تأتيهنّ يبدونَ هزيلات وشاحبات وخائفات. وقفت قبالتهنّ مبتسمة وقلت بتحدٍّ:

ـ شو فيها. ما في شي بيضحّك. هيك بيصير لمّا بتنضج أجسامنا ومنصير صبايا.

ثم استأذنت للخروج إلى الحمّام، مضيت إليه بخطى واثقة وثابتة.

ـ وأنتِ يا عزيزة. ليش بتستحي من العادة مثل ما بتستحي من الحبّ؟

صمتَتْ ولم تُجب. حدّقت فيّ واحمرّ وجهها. شيء غريب في عينيها أشعرني بأنّ لديها كلامًا محبوسًا تودّ أن تبوح به، لكنّها سرعان ما تراجعت.

ثم استدارت فجأة، مقترحةً عليّ العودة لأنّ الوقت داهمنا.

تأخّر الوقت لسنوات طويلة، قبل أن تعترف لي عزيزة ذات لقاء بأنّ العادة الشهريّة كانت تُتعسها، تكسر نفسها وتُشعرها بالذنب. كذلك كان حبّها المكتوم لأخي جواد، يجعلها تخجل من جسمها الذي يصير يرتعش مثل الريشة كلّما «لَطّشها» أو تحرَّش بها.

ما كان أغباني! كانت تحلم به في الليل يقبّلها وينام معها، وفي النهار تستشرس وتكاد تمسك بشعري دفاعًا عن جميل بثينة وكُثَيِّر عَزَّة وسائر العذريّين الذين قرأتُ عنهم، فأستمرّ بمشاكستها وأصرّ

على أنّ أحدًا منهم لم يعرف الحبّ الحقيقي، ولم يدرك أهمّيّته مثلما فعل عمر بن أبي ربيعة.

في خلال ذلك اللقاء الذي تمّ بيننا في بيتها الجديد الذي تسكن فيه بعد طلاقها، اعترفت عزيزة بأسرار كثيرة. وقبل انصرافي قالت لي:

ـ اسكتي يا نهلا. شو بدّك بالحكي. المرا يلّلي ما عندا جسم بتعترف فيه وبتحبُّه وبتدلّله، لشو حياتها. بتكون عايشة ميتة.

وحدي من بين سائر البنات اللواتي عرفتهنّ اختبرتُ، منذ صغري، ما قالته عزيزة. عرفتُه بحواسّي وفطرتي قبل أن أُدركه بعقلي. لكنّي لم أكن يومها مثل عزيزة ولا صرتُ مثلها الآن. فجسدي عاش منذ البداية طبيعته بانسجام تامّ مع تفكيري. اعترفتُ به وتصالحت معه حتى حين كان يؤلمني أحيانًا. احتفيتُ بملكيّته، وأحببت تفاصيله كلّها، أُنصتُ إليها وأحكي معها. أشكو إليها وتشكو إليّ. يوم أحرق أخي جواد أصابع يدي التي طال شفاؤها، صرت أحنُّ عليها وأخفّف عنها. أشجّعها على احتمال أوجاعها بأن أرفع يسراي أمامها وأحرّك أناملها بخفّة تجعلها كأنّها ترقص. أحرّضها على المقاومة لتعود وتمسك بالقلم وتكتب الشعر. وحين يؤلمني بطني أثناء العادة، أعابثه بمرح. أقول له «يلّلي بدُّه يكبر ليحبّ ويتجوز ويخلّف ولاد، بدُّه يتحمّل هالوجع». ثم أكرع كوب «الزوفا» الدافئ الذي أعدّه بنفسي، وأعِد بطني بفرج قريب.

اعترفت بكلّ عضو في جسدي، وخصّصت له في خيالي دورًا

في الحبّ يلائمه. فمي لقُبَل المحبوب؛ وأنفي لأشمّ فوحه في حضوره وغيابه؛ وذراعاي لعِناقه في صحوي ومنامي؛ وصدري لاحتضانه في الحقيقة والخيال؛ وأذناي للإنصات إلى دقّات قلبه وصوت أنفاسه. أمّا عيناي فلهما أكثر من مهمّة. هما مرقد حبيبي في الليل والنهار وفي كلّ الأوقات، وهما الشبّاك الذي أُطلّ منه عليه لأرتشف نظراته وأعرف كلّ أحواله، متى يحبّني، ومتى يحبّني أكثر.

تحيّرني علاقة البنات بأجسادهنّ. أرى كيف يتعاملنَ معها، مرّة كأنّها أكفان ومرّات كأنّها أشياء لا تخصّهنّ، تُفرض عليهنّ فرضًا منذ الولادة. يخفنَ منها في الأيّام العاديّة، ويكرهنها وينفرنَ منها أثناء العادة الشهريّة. تصفها عمّتي رُقيّة بـ «عادة الشؤم والبلاوي والمصايب»، وتنعتها أمّي بـ «النجسة». عزيزة استمرّت تكتم أمرها عن أمّها وعنّا كأنّها ارتكبت فعلاً حرامًا. واستقبلتها سعاد في المرّة الأولى بنوبات حادّة من البكاء. لكن ما أصاب نادين بسببها فاق كلّ تصوّر. تسلّلت إلى بيتنا ذات صباح باكر، هزّتني بعنف، فردعتُها وذكّرتها بأنّ اليوم يوم عطلة، ثم انتبهت إلى أنّها ترتدي قميص نومها، وبدت لي عيناها مثل جمرتين مشتعلتين، لم يكن فيهما دمع، بل لهب يشبه اللهب المتصاعد من فوهة البركان في كتاب الجغرافيا. سألتني عن سمّ الأفاعي الذي تستخدمه أمّي وترشّه في مواسم الحرّ على أطراف الجلّ أسفل بيتنا، فسخرتُ منها واستفسرتُ، هل تريده لتتحلّى به قبل الفطور، أم بعده. عندها

انفجر بركان نادين بالبكاء. قالت إنّها أدركت حيضها، وتريد أن تموت وتتخلّص من حياتها لأنّها تخاف أن تصير مثل أمّها.

أخافَ الحيضُ نادين حتى تمنّت الموت، بينما جعلني أشكر السماء لأنّها استجابَتْ لي وأنعمَتْ عليّ بما انتظرتُه واستعجلتُ حصوله واعتبرتُه شرطًا لازمًا لأحكي عن الحبّ والغرام مع البنات اللواتي يكبرنني، ولأصبح عروسًا، بحسب ما كنت أسمع من النساء المنشغلات بتدبير الزيجات، ومن بنات الصفوف العليا في المدرسة.

عروسَ بحر، حسبتُ نفسي يومها، ولم أكن قد رأيت البحر بعد.

نضجي الجسدي حوّلني إلى نجمة مُشعّة. هكذا كنت أرى إلى نفسي، خاصّة لمّا أسمع عبارات الغزل تتطاير من حولي، نظرات الإعجاب تلاحقني، فيغمرني الرضا والسرور، وأمتلئ بالشعور ذاته الذي كنت أحسّه أيّام كان جيب فستاني يفيض بحبّات الشوكولا والكراميل، في مواسم الأعراس والأعياد. أسمع ما يرضي غروري فيزغرد قلبي وأمتلئ بنعمة جسدي.

«كفّي عن البكاء يا نادين. أنت صبيّة جميلة وستزدادين جمالاً. حيضك ليس نقمة ولا لعنة، ونُضجك بركة، بل هو بشارة تتوّجك عروسًا»، أضفتُ أقول لنادين يومها، مكرّرة ما قالته أمّ سعاد لابنتها يوم جاءها «الميعاد». وكدتُ أعترف لها بغيرتي منها وأنا أتأمّل قامتها الممشوقة وأقيس طولها بطولي، وأُطمئنها إلى أنّها ستكون عروسًا أجمل منّي. لكنّي بلعتُ حسرتي وتابعتُ أحكي لها

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

عن بلوغي الذي سبق بلوغها بعام ونصف العام. حدّثتها عن نضج أجسادنا الذي يُكمل أنوثتنا ويجعلنا قادرات على الحبّ والزواج، ومازحتها بأنْ أشرتُ إلى إعفائنا أيّام الحيض من فروض الصلاة والصوم، ومن مساعدة أمّهاتنا في الجلي والكنس وترتيب البيت. على الأقلّ في الأيّام الأولى من العادة.

شددتُ على كتفيها مشجّعة، فتغرغرتْ نظراتها باطمئنان حزين:

ـ طيّب يا نهلا، رح حاول إقبل حالي، بسّ ـ وعاد صوتها حزينًا ـ بسّ أنا مش متلك ولا إمّي متل إمّك. وبعدين ما صار ببيتكن متل ما صار ببيتنا، قالت نادين، وهبّت واقفة.

على باب الغرفة وقفت أمّي كالشبح بثياب الصلاة. أفسحت الطريق لخروج نادين، وهي تقول لها:

ـ عيب يا بنت. أبيسواش تضلّ البنت تحكي عن أسرار أهلها.

لو تعرف أمّي ما الذي أحكيه عنها أحيانًا لسعاد، لكانت قصفتْ عمري مثلما انقصف عمرها وخسرتْ رهانها، منذ اختفى حبيبها الشيخ وانقطعت أخباره عنها، لتعيش بعد ذلك زاهدة في الحبّ والعشق، راضيةً على مضض بالحياة مع أبي. تطرد بالصلاة والتسبيح والاستغفار، شياطينَ تفكيرها في الشيخ. تضعف أحيانًا، فأسمعها تدندن بألحان شجيّة خافتة. أفكّر في أنّها تغنّي اشتياقًا إلى أبي، ثم أعود وأستبعد ذلك.

«لو صحيح مشتاقتلُه، ليش لكن بتضلّ تدقّشه وما بتقبل يبوسها لمّا بيجي من بيروت؟ يمكن بتخجل منّه. لأ، مش معقول. يا عمّي

إمّي بتحيّر يللّي ما بيحتار». أحسم أمري في سرّ نفسي، وأنصرف إلى التفكير في أمور أخرى.

• • •

تختلط عليّ هذه الأيّام أشياء كثيرة، يفرغ رأسي فجأة وتخونني الذاكرة، فأنسى أين أنا وماذا أفعل. أمسك برأسي أهزُّه بقوّة. أغمض عينيّ وأروح أطارد خيالات الأفكار الهاربة، أحاول التقاطها فتفلت منّي وتنطفئ. رأسي إشارة مرور معطّلة. الضوء الأخضر ينخطف قبل أن يضيء. والبرتقالي لا يستمرّ سوى ثوانٍ خاطفة. ذاكرتي تحرن، توصد بابها أمام الحاضر. تزيحه من دربها تُفزعه باللون الأحمر، فينكفئ مهزومًا وتعود هي إلى حيث تشتهي.

تكرجُ ذاكرتي في دروب الضيعة وأكرج خلفها. أسمع نفسي أحدّث عزيزة بأنّ الله خلقنا مع أجسادنا، ولو أراد لنا أن نكره هذه الأجساد أو نقمعها أو ننساها، لَخلقنا بدونها. وأحاول إقناعها بأنّ من الكفر أن نخافها ونقرف منها أو نعذّبها، فهي نعمة من الله، ومن يكفرْ بالنعمة ولا يتمتّعْ بها يُغضب الله ويُحاسب يوم القيامة. وأؤكد لها أنّ من لا تسعد بجسدها، وتستمتع به، وتدعه يعيش ويحبّ ويعشق، سوف يُعلّقها الله يوم الحساب بشعرها ويُذيقها عذاب النار.

أسكت لثوانٍ ثم أدعو عزيزة للتفكير في أمّها وأمّي وأمّ نادين. أحكي عن أجسادهنّ المقهورة، كما لو أنّني أضع أمامها براهين قاطعة على ما أقول، فتنفر عزيزة معترضةً وتقول بانفعال:

ـ إمّي وإمّك. إيه ممكن. بس إمّ نادين؟! أعوذ بالله. شو تنغّص

عليها؟ ما هيّ حبّت جوزها لشبعت قبل ما تتجوّزه. وبعدين ما بتسمعيها شو بتضلّ تحكي وتقول عالمكشوف؟

أشرد ويكرج تفكيري إلى نادين.

نادين التي تغيّرت، بعد انتقال أهلها للسكن في بيروت عقب استقرار عائلتنا فيها لسنوات قليلة. صارت نادينَ أخرى. تبدّلت بوتيرة سريعة، وتحوّلت شخصيّتها كلّيًا. فمن الصبيّة المشوّشة الخجولة والانطوائيّة، إلى الشابّة الجامحة التوّاقة إلى كلّ أنواع التجريب. خاضت تجارب ضياع وجنون. تناقلت أخبارَها ألسنةُ أبناء العمارة التي نقيم فيها، بعيدًا بشارعين عن المحلّة حيث يسكن أهلها. بعدها أطلّت على العمل الحزبي، فانخرطت في النضال مع اليساريّين، وشاركت في المعارك القتاليّة إبّان الحرب الأهليّة. قلّما تقابلنا في خلال تلك الفترة، إلى أن استعادت نادين علاقتها بعزيزة، ومن خلالها التحقت بالشلّة، فعدنا نلتقي من جديد.

في البداية، كانت تهمس لي كلّما اجتمعنا بأنّها لم تعد مهمَلة ومتروكة مذ طلّقت ذاكرتُها تاريخَ الضيعة وذكريات الشؤم فيها. فأُذكّرها بأحداث لطيفة ومبهجة، وبقصص لنا طريفة، هي جزء من ذلك الماضي، فيتجعّد جبينها وتغيم عيناها وتشتمُّ الماضي والتاريخ. تقول إنّ ماضي البشر ليس واحدًا حتى ولو عاشوا في مكان واحد. بعضنا يا نهلا، تقول، يرى في الماضي سجنًا، وبعضنا يرى فيه النعيم. ثم إنّ الواحدة منّا تتغيّر. تتغيّر جذريًّا، تصير شخصًا جديدًا كما لو أنّها وُلدت من جديد. أليست ترضيك

هذه الولادة؟ تقول، وهي تشير إلى نفسها بثقة وامتلاء.

طافت عيناي بنادين، أراقب قسمات وجهها والتماع حدقتيها ورقّة جفنها، وأتحرّى في بحّة صوتها وحركة يديها وثنايا جسمها، وفي كلّ جزء منها، آثار الولادة الواحدة والوحيدة التي لا أؤمن بغيرها. ولادة الحبّ التي تُشفينا من هاجس الماضي والحاضر والمستقبل. معها يصير الزمان أبديًّا والمكان كونيًّا، والناس، كلّ الناس، أطهارًا وأخيارًا وأحبابًا. فتّشتُ حتى تعبتُ وعاودني الشرود.

من ثقوب الذاكرة، يهبط عليّ وجهها المبلّل بالأسى، وهي تتأبّط ذراعي في ملعب المدرسة. تشكو إليّ من أبيها «النسونجي». يضرب أمّها بمناسبة وبلا مناسبة، ويهينها بأن يغازل كلّ امرأة تزورها، حتى أنّه لا يتورّع عن التحرّش بالبنات. تخبرني أنّها تكرهه وتكره أمّها التي يُفجعها سلوك زوجها، فتنخرط في نوبة هستيريّة من العويل والبكاء. تشدُّ على أصابعها وتضرب رأسها بالحائط قبل أن تقع مهدودة الحيل على الأرض. ثم وهي محنيّة الرأس تبسط قدميها وتشدّ تنّورتها إلى الأعلى، وبيدها الممسكة بحذاء زوجها تروح تضرب عضوها، وتقول نائحة:

ـ لو ما بيبسطك يا أخو الشرموطة (تقصد عضوها) وبخلّيك تنسّيني حليب إمّي، شو كان بدّي فيه، وشو كان بقعّدني معه، هالكلب ابن الكلب أبو نفس دنيّة على النسوان. الله يهدّك يا تَبَعي. ولك تفو عليك. هدّيتني إنت وولادي اللّي نزلوا منّك.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

مرّة، بل مرّتين، شهدتُ بعيني ما تفعله أمّ نادين. في المرّة الأولى، أغلقت كتابي وكتِابها على عجل وقد دبّ فيّ الذعر وأخذتني الحيرة، بينما أشاحت نادين بوجهها إلى الحائط وراحت تقضم أظافرها وترتعش فتمزّق قلبي. أمّا في المرّة الثانية، فتماسكتُ قدر استطاعتي قبل أن أمسك بيدها وأسير بها حتى البوّابة. هناك تركَتْ يدي، وقالت بصوت مخنوق:

ـ بعدن الكتب جوّا على الأرض. رح جيبهون وروح معاك.

نادين الرقيقة المظلومة التي لا تكفُّ نظراتها عن الارتعاش كأنّ الخوف وُلد معها، كانت تحبّ المدرسة وتكره فصل الصيف. تقول لي إنّ جهنّم أفضل من البقاء في البيت، وإنّها لولا ربيعة أختها الكبرى، لهربَتْ منه أو انتحرت.

ويوم انتحرت أختها، شعرتُ بأنّ نادين صارت بلا مأوى ولا سند.

• • •

لم تكن العين تخطئ سعادة ربيعة بخطيبها. سعادتها أظهرت جمالها أكثر فتألّقَتْ، وفي الوقت ذاته ازدادت عطفًا ورقّة. قلبها الكبير الذي عوّض نادين الحبّ والرعاية جعلها تتردّد مساء زارهم خطيبها لبطلب منها مرافقته صباح اليوم التالي إلى منزل أبيه في بيروت. فيوم العرس بات قريبًا، وعليهما أن يشتريا الجهاز على جناح السرعة. كانت تعرف كم تكره أختها فراقها ولو ليوم واحد، لكنّ نادين شجّعتها فاطمأنّت.

على الطريق الساحليّة سحرها البحر بلونه الأزرق. فكّرت في سحر بيروت التي ستقيم فيها بعد زواجها، فتبسّمت وهي تغالب إحساسها بالنعاس، فهي لم تنَم طوال الليل. أرّقها التفكير في فستان العرس، حينها انتبهت إلى أنّ عليها أن تشتري أيضًا فستانًا لائقًا لنادين.

ذراع خطيبها التي شدّتها وهي تلتفّ حول كتفيها على المقعد الخلفي للسيّارة، بعثت فيها شعورًا ملتبسًا. فلم تكن ربيعة لترضى بملامسته لها برغم أنّها تحبّه. لذا حين باغتها تلك الليلة وتسلّل إلى الغرفة استهابت الأمر، ثم حزمت أمرها بسرعة ودعته إلى الانصراف فورًا.

ـ ولو! ما نحنا يا حبيبتي كاتبين كتابنا. وبحقّللي نام معاكِ، قال لها متودّدًا، وصدى كلمات أبيه يقرع رأسه:

ـ فوت افتحها وفضّ بكارتها. هيك بتكسر راسها وراس أهلها، وبتفوت على بيتك مكسورة الجناح وذليلة، وما بتعود تسترجي ترفع راسها قدّامك.

مانَعَتْ ربيعة بشراسة وصدّت كلّ محاولاته. ذكّرته بالأخلاق وبالأصول. قالت:

ـ مستحيل. ولا يمكن خلّيك تنام معي قبل ما إنقل وصير ببيتك. كيف بدّك ياني إرضى كون رخيصة هالقدّ؟ لحتى بعدين تهتّني وصير طول عمري ذليلة ومكسورة المنافس؟

خرج بجرّ أذيال الخيبة، خجلاً وخائفًا من مواجهة أبيه الذي

ثارت ثائرته أمام الباب. ركله بعنف قائلاً وهو يدفع ابنه جانبًا:

ـ زيح من عندك. رح فرجيكَ شو بيعملوا الرجال. إذا إنت ما قدرتْ، أنا بقدر. قال، ثم اقتحم الغرفة كالثور الهائج.

ربيعة القويّة البنية الشبيهة بمهرة نشطة، كانت له بالمرصاد. تركته يقترب منها إلى أن صار بمحاذاتها، فسارعت ووجّهت له بقدم ثابتة لطمة هائلة أصابت عضوه، فتراجع في اتّجاه الباب وهو يصرخ من الألم. هزّت له ربيعة قدمها ولوّحت بها مهدّدة بلطمة ثانية، فما كان منه إلاّ أن تحامل على نفسه وخرج. فأقفلت الباب بالمفتاح، وقد عقدت العزم على فسخ الخطبة، ثم انفجرت بالبكاء واستعجلت طلوع الصبح.

ـ ما بدّي ايّاه خلص.

نبرت ربيعة بأمّها التي أنصتت إليها مصعوقة، قبل أن تتنحنح وتزفر بارتياح حينما تابعت ابنتها الحديث:

ـ ضلّ يعتذر منّي طول الطريق بالرجعة. وحلف لي إنُّه هوّي ما كان بدُّه يوافق مع أبوه أبدًا. بس بيّه جبرُه. الله يكسر جبره.

ـ هوّنيها بتهون. ليكِ يا بنتي. هيك هيك ما وصل للّي بدُّه ياه منك، لا هوّي ولا بيّه. رأيي تقبلي اعتذاره. وبتتجوّزي وراسك مرفوع. الانتخابات على الباب. أوعي هه. عيلتن كبيرة وبيخسّروا بيّك بالمخترة.

خوف الأمّ من زوجها إذا خسر المخترة، غلب عندها أيّ اعتبار آخر، فعادت تُقنع ابنتها:

ـ وكمان يا بنتي شو منقول للناس إذا تركتيه؟ رح يفكّروا إنه اعتدى عليكِ، ولَو ما هيك ما زتّك هالزتّة.

عضّت ربيعة على جرحها، ولاذت بالصمت.

عادت الأمور إلى مجراها صباح اليوم التالي، وتمّ الاتفاق على تسجيل الزواج في دائرة النفوس في النبطيّة خلال اليومين القادمين. لم يبدر من ربيعة ما يدلّ على القبول أو الرفض، ظلّت تحافظ على صمتها، لكنّها أخذت تُبدي تجاه نادين تدفّقًا وعطفًا غير عاديّين. ثم في ظهر اليوم الذي تلا الاتفاق، تأهّبت للخروج. قالت إنّها ستقصد البريّة ولن تتأخّر، ووعدت نادين بأنّها ستأتي لها بالزهر الذي يحبّه قلبها.

تأخّرت ربيعة، قالت لأمّها إنّها زارت بيوت صديقاتها بيتًا بيتًا وقدّمت إلى كلّ واحدة منهنّ باقة من الزهر. لكن ما لم تقله لأمّها، قالته لي ولأختها ولكلّ من صديقاتها:

ـ بتمنّى بكرا ترشّوا هالزهور عليّ.

زغرد صوت نادين التي أفرحها أن تتصوّر أختها العروس مكلّلة بالزهر:

ـ بكرا رح تكون صورتك وإنت عروس أجمل صورة بالعالم.

ثم تابعت:

ـ ومين قلّك إنّي رح حلّ عنّك وشوفك بسّ بالصورة. والله، والله رح ضلّ لازقة حازقة فيكِ محلّ ما بتروحي.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ارتعشت شفتا ربيعة كأنّها تهمّ بالبكاء. حدّقت في نادين طويلاً وتغرغرت عيناها بالدمع، ثم هجمت نحو أختها تحتضنها وتشبعها تقبيلاً.

صورة ربيعة لا تفارق رأسي. تلازمني فأنشغل بها ولا أعود أفكّر في سواها. جسدها المسجّى بين ذراعي خطيبها، يلوّح به ودمعه يكرج مبلّلاً وجهه ووجهها، يغمرها ويشدّها إليه، ثم يهزّها ويهدهدها مثل طفلة ويصرخ بلوعة:

ـ ولك ليش يا ربيعة. يا حبّة قلبي وعيوني ويا... حبيبتي. ليش متّي ليش؟ كان لازم نموت مع بعض.

يقول ويسكت. ويعود يكرّر ما قاله، قبل أن يصف ما حدث.

أتى مبكرًا فأتت له بفنجان القهوة إلى صحن الدار، واستمهلته لبعض الوقت كي تطوي الشراشف وتضبّ فرش إخوتها من على الأرض، ثم ترتدي ثيابها وتتهيّأ لمرافقته إلى دائرة النفوس. استأخرها، فعلا صوته يستعجلها، ولمّا لم تجب، عاد يناديها ثانية، ثم ثالثة ورابعة، قبل أن يدلف إلى الداخل ويراها ممدّدة على أرض الممرّ الفاصل ما بين المطبخ وغرفة النوم. رغوة خفيفة وغريبة الشكل كانت تطلع من فمها. هزّها ببطء، ثم بعنف، فلم تستفق، فهرول إلى الجلّ مستنجدًا بأمّها.

وتكمل أمّها وهي تلطم وجهها:

ـ رَمَيْتْ الوراق من إيدي وطلعت ركض. يا ويلي. كان بدّي أطبخلن ملوخيّة وأفرح فيهن. يا تعتيري. راحت ربيعة منّي.

راحت. لقيتها مرميّة يا ناري على الأرض، ومبيّسة مثل الخشبة...

باحت ربيعة أخيرًا بما سكتت عنه. شربت الديمول وانتحرت، وتركت أختها بلا سند.

أسندتْ نادين وساعدتها لترتقي المسافة الترابيّة العالية التي تحجب بيتنا عن بيتهم. وحين سمعنا صوت العويل والصراخ، كنّا قد بلغنا مسافة أمتار من بوّابة البيت، وكانت نادين قد ملّت من انتظاري في بهو الدار، فهدّدتني بالذهاب وحدها إلى المدرسة، ثم خرجت قبلي متأفّفة فسارعت أتأبّط ذراعها وأعتذر.

أرهفنا السمع وقد تجمّد الدم في عروقنا. انخطف وجه نادين وارتعش صوتها وهي تقول: «الصوت جاي من بيتنا». ثم هبّت تركض، وأركض وراءها. أمام جسد ربيعة المسجّى بين ذراعي خطيبها الذي أصرّ على حملها، مهدّدًا بقتل كلّ من حاول إقناعه بوضعها على الفراش. وقفت نادين تبكي وتنتف شعرها وترقص كالمجنونة إلى أن فقدت الوعي وهوت على الأرض.

ذهب الحزن على فقدان ربيعة بعقل أمّها. فصارت، منذ ذلك الحين، تقول لكلّ من تلتقي به أو يزورها، امرأةً كانت أم رجلاً:

ـ دخيلكن، شفتوني ربيعة بالمنام. دخيلكن. شو قالتلكن؟ سامحتني ولاّ لأ؟ يا ويلي. يا ويلي من ربّي. أنا سبب موتها، وأنا اللي قتلتها بإيدي.

ولم تبرأ من جنونها وهلوساتها، حتى بعد انتقالهم إلى السكن

في بيروت. والغريب أنّها، بحسب ما حدّثت أمّي بعضُ القريبات، عادت تفعل الشيء المضحك المبكي نفسه، تبسط قدميها على الأرض وتحني رأسها ثم ترفع تنّورتها إلى الأعلى وتأخذ بيدها أيّ حذاء في متناولها، وتروح تضرب عضوها وتشتمه بالعبارات ذاتها.

كانت تطبخ لعبد المجيد، زوجها، المأكولات التي يحبّها باهتمام شديد، فيتناولها بكلّ ما تقع عليه يده، ويرميها بأبشع النعوت ويهتّها بأنّها ما عادت تصلح لشيء. فمنظرها مثل المجانين. وطبيخها «سايط» أو محروق، وبلا طعمة، وبأنّه سوف يتزوّج عليها قريبًا، وينتهي من عيشه المقرف معها. فتسجد أمامه راكعة تقبّل ركبتيه ويديه وتبتهل إليه باكية: «سامحني يا عبد المجيد. معش عيدا والله العظيم، الله يخلّيك سامحني». ثم تغمزه وتعده «بنومة معها، غير شكل»، فيبصق عليها قائلاً:

– إيه قومي. قومي انقلعي من قدّامي يا إمّ ريحة مخمّجة. إن شا الله مفكّري بعد إلي نفس عليك.

• • •

تنسى نادين أمّها ومشاهد جنونها، وتغيب عن كلّ ما حولها. تنخطف أنفاسها، ويتأهّب جسدها النحيل الطويل مثل سروة لحظة تدخل الصفّ مدرّسةُ الجغرافيا مداموزيل لبنى، التي كانت تلاحق نادين بنظراتها، وخاصّة حين نكون متجمّعات في ملعب المدرسة، يحمرُّ وجهها كلّما التقت نظراتهما، في الصفّ أو في الممرّات. تُكثر من ذكر اسمها في الصفّ ومن الاهتمام بها. وصارت نادين متعلّقة بها. أراها كيف تراقبها وتتابع حركتها، فأشعر بأنّ نادين

المأخوذة بالمدرّسة مخطوفة من شيء لا أعرف له اسمًا. شي يجعلها لا تسمعني ولا تشعر بوجودي، كأنّني لا أجلس إلى جانبها، على المقعد نفسه. حينذاك كانت قد بلغت الثالثة عشرة من عمرها، ولم تكن قد جرّبت الغرام أو وقعت في الحبّ، وإن عبّرت أحيانًا عن إعجابها ببعض الشبّان. ولمّا بدأت تراودها تلك المشاعر الملتبسة تجاه مدرّسة الجغرافيا، كتمت سرّها ورفضت، برغم إلحاحي، أن تُفصح عن شيء. احتفظت بمشاعرها لنفسها. وفي خلواتها، في الليل أو النهار، تروح تحدّث نفسها عن سرّ ذلك الشغف الذي أسَرَ قلبها وعقلها وجسدها. تأتيها التخيُّلات فتستسلم لها، وتروح تحلم بأنّها تنام في حضنها وتعانقها. وفي غرفة الصفّ أو في الملعب أو في الممرّات الفاصلة بين غرف التدريس، تلهث عينا نادين وراء مدموازيل لبنى تطاردها بعينيها كأنْ لتبقيها محبوسة فيهما، لها وحدها. تفقد أعصابها حينما تراها منهمكة في الحديث مع زميلة لها أو مع طالبة في صفّ آخر. ويجنُّ جنونها إن لم يتكرّر اسمها في الصفّ على لسان المدرّسة أكثر من مرّة. تشعر بأنّ إيقاعه يصبح أجمل وأرقّ فتتلهّف لتسمعها تنطق به. تتصوّر أنّ مناداتها باسمها بالطريقة التي تتلفّظ به، إعلان صريح باهتمام خاصّ. أُنبّهها بنظرة أو أهمس لها بأن تهدأ وتضبط نفسها، فتنفر في وجهي بعصبيّة وتطلب منّي أن أخرس.

أمّا المصيبة الكبرى، فيوم تغيب «الستّ لبنى». وجه نادين يصير مثل زهرة ذابلة. يشحب لونها وتعتزل الجميع. الحالة ذاتها تصيبها أيّام العطل المدرسيّة، وشجنها الأعظم يظهر واضحًا في خلال الأسبوع الأخير من العام الدراسي.

بقيت نادين تتكتّم على سرّها، وتتجنّب الانفراد بي، وتجافيني إذا ما حاولت استيضاح الأمر. لكنّي لم أتخلَّ عنها، وصبرت عليها لشعوري بأنّ موت ربيعة زادها تشوّشًا وربّما... ربّما كانت تعبر بواحدة من الأزمات التي تمرّ بها حين تزداد شراسةُ أبيها، أو يتفاقم جنون أمّها... إلى أن فاجأتني ذات صباح، بأن أشاحت عنّي حين دخلت الصفّ، ثم أمسكت بحقيبتها المدرسيّة وانتقلت إلى المقعد الخلفي. مذّاك، لم يعد في وسعي مراقبة انفعالاتها وخلجاتها عن قرب، فرحت أراقب المدرّسة. أرى نظراتها كيف تشرد صوب نادين التي أصرّت أن تجلس على مقعد منفرد، ورفضت أن تشرك به أيًّا من طالبات الصفّ. ألاحظ ما في تلك النظرات من معانٍ ملتبسة تثير فيّ الفضول والحيرة، فأتعمّد لفت انتباهها، كأن أسعل بقوّة، أو أسقط حقيبتي الثقيلة ثم أثبّت عينيّ في عينيها، فيحمرّ وجهها وترتبك نظراتها وتشيح بعينيها إلى ناحية أخرى، إلى أن تخلّت عن تحفّظها ذات نهار.

كنّا نتابع بانتباه طالبة ترسم على اللوح خارطة آسيا، بينما أسندت المعلّمة ظهرها على الحائط بمحاذاة المقعد الخلفي وراحت تراقبها. أفسحت لها نادين مكانًا إلى جانبها فجلست وحدث ما حدث.

تسلّلت كفّ المدرّسة لتتحسّس عنق نادين من الخلف وتفرك ظهرها بنعومة صعودًا وهبوطًا. قبل أن تلفّ ذراعها حول كتفيها، وتلامس، كأنْ عن غير قصد، قمّة نهدها، ففارت أحاسيس نادين وسرت في عروقها نشوة جعلت عينيها تزوغان وجسدها يتخدّر ويرتعش من اللذّة، وخافت.

إحساس بالخطر داهمها فجأة، وشمّت في سلوك معلّمتها رائحة حرام. حاولت أن تسمّي الإحساس فعجزت، لكنّها عرفت في أعماقها أنّ له علاقة واضحة بالجنس الذي لم تكن قد جرّبته بعد، ولا تعرف عنه سوى ما تتهامس به البنات والنساء فخافت أكثر. بدا الأمر لها غريبًا وغير مألوف.

وفي المساء، حين خلت بنفسها، تساءلت لماذا استجابت لملامسات المدرّسة؟ نفرت من ردّة فعلها وصمّمت على أن لا تدعها تفعل ذلك مرّة ثانية. عاد السؤال يلحّ عليها. ولأنّها أرادت أن تفهم الحقيقة واجهت ذاتها واعترفت بأنّها كانت كمن يخبّئ سرّ نفسه عن نفسه. سرّ لم تكن مرّة تتمنّاه أو تحلم به. وها هي الآن تخاف أن تتورّط أكثر في مشاعر ليست من طبعها، وأن تنزلق إلى هذا الشيء غير المألوف. وفكّرت: ربّما كانت المعلّمة حين لامستها تستعير يدَي رجل، أو ربّما توهّمتْ هي أنّهما يدا رجل، ومن المحتمل أن تكون مدموازيل لبنى رجلاً يتنكّر في هيئة امرأة.

تصوّرات كثيرة راودتها وأتعبتها. فتقلّبت بين الشيء ونقيضه إلى أن رست على قرار، وعزمت أن تقطع كلّ صلة لها بالمعلّمة ـ الرجل.

تغيّرت نادين بعد ذلك. نفضت عنها آثار تلك التجربة وعادت إلى طبيعتها، فخاضت في علاقات غراميّة مع شبّان الجامعة، ومارست الجنس مع رفاق النضال الذين أقنعوها بأنّ تحرّر المرأة يبدأ بالحرّيّة الجنسيّة أوّلاً.

* * *

في منطقة الملاّ، عاد شملنا يلتئم.

لم يكن قد مضى على إقامتنا في بيروت سوى أشهر قليلة. بعدها التحق بنا أهل سعاد واستأجروا لهم منزلاً في الحيّ حيث نُقيم، بعيدًا عن سكن عائلة عزيزة ببضعة شوارع ومنعطفين، وعلى أطراف الحيّ القريب الذي استقرّت فيه عائلة نادين.

كان أبي قد تدبّر لي مدرسة رسميّة للبنات في رأس بيروت، قريبة من مدرسة «الكوليج بروتستانت». أقصدها يوميًّا مشيًا على الأقدام في معظم الأحيان. أتأبّط ذراع سعاد ونحن نثرثر ونتهامس خلف عزيزة ونادين بخطوة أو خطوتين. وما إن نعبر الرصيف المقابل لبوّابة «الكوليج»، حتى تتباطأ خطوات عزيزة، وترمش عيناها وهي تبحلق في سرب الطالبات الأنيقات، تتأمّل أثوابهنّ القصيرة وتسريحات شعورهنّ بحسرة. وتروح في غيبوبة وشرود، فنستعجلها أنا ونادين. ننبّهها إلى أن تفيق من شرودها وتُسرع خطاها لئلاّ نتأخّر على دوام المدرسة. لطالما أثارت تصرّفاتها نفوري، أستنكر منها ذلك الانكسار الذي يجعل كتفيها متهدّلتين، ونظراتها كئيبة كمتسوّلة. أوبّخها بلطف مرّة، وبعصبيّة مرّات، فترفع إليّ رأسها وترمقني بنظرة تجتمع فيها نقمة العالم، ثم ما إن يغيب عنّا رصيف مدرسة الأنيقات، وننعطف عند المستديرة في اتّجاه الشارع المؤدّي إلى مدرستنا، حتى تتوقّف عزيزة من جديد، تخفض بصرها وتروح تتأمّل حذاءها العتيق، ثم تحني جذعها لتمسح جلده بباطن كفّها وتتمتم عبارتها المعهودة: «مش عدل، هالدنيا مش عدل. ناس بسمنة وناس بزيت».

يُغيظني حزن عزيزة وأنفر من انكسارها، لكنّ سلوكها في الدكّان الذي كنّا نقصده أثناء استراحة الظهر، هو أكثر ما كان يوتّرني. هناك كنّا نصادف أحيانًا بعض بنات «الكوليج»، فتلكزني من خاصرتي وتهمس بصوت يكاد يكون مسموعًا: «ريحتهن حلوي. ريحة صابون بعمري ما بحلم فيه». وتظلّ تُرعش أرنبة أنفها، إلى أن أدوس قدمها بقدمي طالبةً منها الصمت، فتتراجع إلى الوراء. دائمًا تتراجع إلى الوراء، وتُفسح المكان لهنّ ليتقدّمنَ إلى البائع قبلها. «ما هنّي بنات عيل. ويني وويني، الاحترام واجب»، تقول لي حين أعترض.

وبرغم محبّتي الكبيرة لعزيزة، إلاّ أنّ علاقتي بها ظلّت أقلّ حميميّة من علاقتي بسعاد. أمضي بصحبتها أوقاتًا طويلة نتبادل في خلالها الأسرار، لكنّي لم أبح بكامل أسراري الغراميّة إلاّ لسعاد.

نجتمع أحيانًا في بيت إحدانا، نحن الثلاث، نشترك في حلّ المسائل الرياضيّة التي تفوّقت فيها سعاد، وظلّت بالنسبة إلى عزيزة مسائل عويصة لا طائل منها ولا جدوى، كما كانت تزعم، ولا هي تفيدنا في الحياة. فأعاتبها بالقول إنّه لا شيء في الدنيا يهمّها إلاّ الحبّ العذري، وإنّ هذا الوهم سيُفقدها رشدها فتفقد معه الفرصة بالتعرّف إلى الحبّ الحقيقي. ويحتدم النقاش. فتفقد عزيزة هدوءها ويعلو صوتها بالاعتراض، وتروح تنعتني بخيانة الروح. تذكّرني مشمئزّة بمجون عمر بن أبي ربيعة، مشيرة إلى أنّني من أتباعه الهالكين، ومثله لن أتوب. فأضحك منها وأسخر من عذريّتها وعذريّة جميل بثينة، وأهمس لها ساخرة بأنّه كان عاجزًا جنسيًّا

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

وكذلك قيس المجنون، فتتأهّب للدفاع عن أحبّاء كما تسمّيهم، فأحدّث نفسي، لن تنضج عزيزة، وأتذكّر نقاشًا سابقًا، خضنا في خلاله في الموضوع نفسه. يومها استفظعت سذاجتها وقلت باستنكار:

ـ معقول يا عزيزة؟ إنتِ مصدّقة إنّه ليلى أو بثينة ما ناموا مع قيس أو جميل. برأيي كلّه كذب بكذب. أكيد كانوا كلّ ليلة بيستحلموا فيهن. وإلاّ كيف ممكن يضلّ هالحبّ متفجّر ومستمرّ. إذا ما كان للجسد حُصّة بالموضوع؟

ـ «وشو يعني بيستحلموا؟»، سألتني باستغراب.

كم تغيّرت عزيزة. تمرّدت أخيرًا على سذاجتها أو ربّما خوفها. وقاموسها اليوم يتّسع لكلّ معاجم الجنس.

ـ «وأنا؟ أنا ألم أتغيّر؟»، أسأل نفسي، وأتذكّر ما فعلته بعد استقرارنا في بيروت.

تمرّدتُ على الحجاب أوّلاً، نزعته رغم أنف أمّي، وتركت لجسدي أن يتمرّد هو أيضًا، ألبسته أجمل الثياب وتباهيتُ به. وسايرت أبي بأن رضيت بالإيشارب الذي اشتراه لي خصّيصًا. بسطه أمامي قائلاً:

ـ «أنا يا بيّي بحبّ وطني كتير. وإنتِ هلّق رح تلبسي إيشارب مرسوم عليه أرزة لبنان»، ثم لفّه بيده حول رأسي وتبسّم.

لم أطق الإيشارب أيضًا. أنزعه عن شعري بمجرّد أن أصفق الباب خلفي وأخرج. أضعه في حقيبتي وأعيد تصفيف تسريحة

الشينيون، موضة العصر آنذاك، إلى أن تخلّيت عنه نهائيًا. ولم أكتفِ.

توقٌ إلى الحرّيّة والتحرّر راح يسري في عروقي ويدفعني إلى الرفض. فبيروت كانت في تلك الآونة تعيش حالة من الفوران الفكري والثقافي انعكست على السلوك الاجتماعي العامّ، وتأثّرت بها جميع الطبقات والفئات الاجتماعيّة. صرتُ أتجرّأ على مواجهة أمّي، ويوم جابهتها بأنّي حرّة، ولن ألبس الإيشارب رغمًا عنّي مهما فعلت، زمجرت وقد جُنّ جنونها:

ـ حرّة؟ حرّة يعني بالعربي زعرة ومش إداميّة.

ثم جذبتني من شعري أمام الباب، ونادت على أبي الذي نظر إليّ وتبسّم بحيرة:

ـ إنتِ يا نهلا مقتنعة تشلحي الإيشارب؟ قال.

ـ أكيد، أكيد يا بيّي، أجبت بانفعال.

ـ طيّب متل ما بدّك، زفر مستسلمًا.

ولم أستسلم.

«شلحت» الإيشارب وارتديت «الميني جوب». وأمام مرآتي صرتُ أقف طويلاً أتملّى فتنتي وجمالي، وأتخيّل نفسي في الشارع أخطف القلوب وأسحر الأبصار، فأمتلئ بالسعادة، وأهتف لصورتي: أنا حُرّة... حُرّة... حُرّة.

ـ ٥ ـ

في منتصف الممرّ الذي يقود إلى غرفتي، وجدت نفسي أحكي لوحدي بدهشة وفرح. صحت على روحي أقول: أنا بحبّ، أنا بحبّ!

لفت أمّي زوغان عينيّ بعدما انتهت من الصلاة. طوت المصلّية بيديها، وقالت لي: شو بكِ اليوم يا نهلا، مش على بعضك؟

لم أردّ.

صوته الجميل الذي سحَرني كان لا يزال وقعه في أذنيّ، وجسدي كأنّ رياحًا ساخنة هبّت عليه واخترقته. أغنية «على قدّ الشوق» التي غنّاها لي لعبد الحليم حافظ، أشعرتني بأنّها كُتبت ولُحّنت وغُنّيت من أجلي.

لم يكفّ عن النظر إليّ حين التقّت عينانا. هو ما زال يفعل ذلك حين تكون رغبته جامحة تجاهي، تطول نظراته وهو يحدّق فيّ، فأشعر بأنّ فائض الشهوة يتسرّب من عينيه لينسكب في عينيّ. جسده أيضًا لحظتها، يصير أشبه ببركة فائضة من الشهوة. شهوة لها رائحة نفخ وترسل ذبذبات. هي عنده إحساس خام غير مركّب ولا مكرّر، تُغيّر صوته ونبرته وحركة جسمه وتصيب يديه بمزيد من الرعشة، خصوصًا حين يرتبك.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

أوّل قصيدة غزل كتبتُها له، أعطيته إيّاها في اليوم التالي للقائنا الأوّل. ضحك بعدما قرأها، وقال لي:

ـ خلاص، خلّص عِلقتِ.

ـ لأ، خدها إعجاب وبسّ، وانسَ الموضوع، أجبته.

ـ كيف بدّي إنسى الموضوع؟ لا، لا، لا، خلّص، قلتِ اللّي قلتيه، وعلِقتِ.

كتبت له الكثير من القصائد بعد ذلك. كنتُ أعطيه إيّاها ليقرأها وحده. تغزّلت في إحداها بأصابع قدميه، فقال لي يومها:

ـ شو بدّك بهالحكي. إنتِ غير شكل عن النسوان والبنات.

ومرّة قلت لسعاد: تخيّلي مُوت وينكشوا أولادي القصايد ويلاقوها. على كلّ حال، تحصيل حاصل، في أدلّة جنائيّة عندي بالأوضة، وراق كتبت عليها قصايدي إلُه وبعض مذكّراتي.

وسط الضجيج والضحك وصوت الموسيقى، ملتُ صوبَ سعاد الجالسة إلى جانبي، يوم تعرّفت إليه، وسكبت صوتي في أذنها قائلة لها إنّني سأموت بغرامه لو أحبّني. ابتسمت سعاد بكلّ وجهها الطافح بالحياة آنذاك، لمّا أضفت لها أنّي أشعر بأنّي أعرفه منذ مئات السنين... وأذناي تحفظان صوته، وأحسّ بأنّه يخرج من ذاكرتي، وليس من فمه فقط.

كان يلبس قميصًا واسعًا وطويلاً، يطوي كمّيه إلى ما فوق عظمتي كوعيه النحيلين. أزراره مفتوحة فوق تي شيرت بيضاء، مرتاحة، تليق بجسمه النحيف وبطنه الممسوح، يوم تعارفنا في عيد

ميلاد عزيزة التي دعته كونه صديق أخيها الحميم في المدرسة.

كان ذلك قبل نهاية العام الدراسي في السنة الأخيرة للمرحلة الثانوية عام ٧٣. كانت عزيزة آنذاك قد تركت المدرسة لتتحضّر للزواج، بينما أنا وسعاد ونادين وهدى نستعدّ للامتحانات النهائيّة.

الغريب أنّ نظري لم يفارق نظره. لست أدري لماذا حين جلس قربي، فتحت زرّيْ قميصي العلويّين لألفت نظره إلى نهديّ اللذين كنت سعيدة بتكويزتهما اللافتة. وسعادتي كانت تزداد كلّما لمحته يختلس النظر إلى ما بان منهما.

الكلام تدفّق بيننا مثل نهر جارف لمّا بدأ يحدّثني. اشتهيت أن يتوقّف الزمن ليبقى جالسًا قربي، يحدّثني بعينيه قبل لسانه. ولمّا غيّر مكانه وجلس إلى جانب نادين، كنت أحسّ بأنّي أستطيع أن أنظر إلى بروفيله للأبد وهو يدير وجهه صوبها ويحادثها. وبين لحظة وأخرى، كان يحدّق فيّ، فأحسّ بأنّ موسيقى نظراته تنزلق على جسدي حتى كاحليّ، بينما نظري يتنزّه على مساحة وجهه، متباطئًا بمشيته. في ذلك اليوم، شعرت بأنّي مثل طائر بلا جناحين. حين يهبني حبّه إيّاهما، سوف أطير بهما عاليًا، ولن يستطيع الزمن عندها أن ينزعهما عن جسدي.

بعد خروجنا من بيت عزيزة، مشيت إلى جانب سعاد متكتّفة، كما لو أنّي أحتضن مشاعري مثل حديقة مليئة بالزهور محبّبة إلى نفسي وأنا أحكي لها عنه. ثم صار يأتي يوميًّا إلى مدرستي، ينتظرني أمام بابها ليوصلني مشيًا إلى بيتي. بعد ذلك، صرنا نقصد مقهى «شي بول» في الروشة لنلتقي فيه. ذلك المقهى الذي ما زلت

أشعر بغصّة كلّما مررت من مكانه الذي تغيّر، فقد اعترفنا فيه بحبّنا واحدنا للآخر، إلى حدّ أنّني صرخت بملء صوتي «أحبّك، أحبّك».

في لقائي الأوّل به سألته:

ـ مِنّين إنتَ يا هاني؟

ـ من الجبل.

ـ وإنتِ؟

ـ من الجنوب. من عيلة مسلمة، كتير متديّنة، وإنتَ؟

ـ أنا من عيلة مسيحيّة، فيها متشدّدين متعصّبين، بسّ فيها يساريّة كمان.

ـ والله؟

ـ إيه، والله.

وجدت نفسي أجيبه:

ـ شو ما كنت تكون، إنتَ أحلى واحد بكلّ الطوايف. أجمل حدا شفتُه بحياتي. وأحلى من كلّ الممثّلين اللي بحبّن. أحلى من آل باتشينو، وآلان دولون، وكمان أحلى من عبد الحليم حافظ ورشدي أباظة وكلينت إيستوود... والكلّ... الكلّ.

ضحك كثيرًا عندها، وقال لي:

ـ أنا مش حلو، بس القرد بعين إمّه غزال.

وسعاد التي كانت وقتها تحكي مشاعرها كلّها، قالت لي إنّه

الغرام. الحبّ سريع وقاسٍ يا نهلا. عندما نقع في الحبّ، نقع في جنون موقّت، ثم نهدأ. وثمّة وقت محدّد للشغف، ينفجر كالزلزال. لكن لشدّة هيامنا لا نشعر به، إذ نصير نحن الزلزال، ولا نكتشف تصدّعاتنا إلاّ بعد حدوثه.

وأنا قلت لها يومها: أنا أكيدة من أنّ حبّ هاني سيكون منشأ كلّ الزلازل. منطقة مرصودة لهزّات لا تنتهي تردّداتها، فكيف أهدأ؟

ثم عدتُ وقلت لها لاحقًا، بعد سنوات طويلة، إنّ حبّ هاني علّمني أنّه لا ينتهي أبدًا. وفي مكان خفيّ يدرك الواحد منّا أنّه لا يجد نفسه إلاّ في شخص معيّن.

• • •

الطريق الإسفلتيّة بدت بعيدة خلفنا حين انحدرنا مشيًا في اتّجاه الوادي نحو غابة كثيفة الأشجار. كانت الغيوم قليلة، تتلاعب بالشمس وبكمّيّة الضوء، فتبدو مساحات مظلّلة وأخرى مضيئة، بينما الهواء المنعش يلعب قليلاً على أعالي أغصان الأشجار.

كان ذلك في خريف عام ١٩٧٤، حين هربنا من الجامعة، وقصدنا منطقة الجبل في سيّارة صديق له استعارها منه، ليعرّفني إلى قريته. وقفنا واحدنا قبالة الآخر تحت شجرة كرز كبيرة، إلى جانبها نباتات تقف عليها طيور كأنّها سعيدة بانخفاضها. الرغبة خطفت ملامحه ولونه، إلاّ أنّ شفته السفلى بقيت بلون الزهر برغم اسمراره الحادّ. نظراته إليّ بدت شبيهة جدًّا بنظرات عبد الحليم حافظ في أفلامه، الملتاعة بالغرام. وهاني يشبهه أصلاً بكثافة العتمة في

عينيه، ونظراته تلك، وبلونه الشاحب شحوب العشّاق الجميل، ونوع مشيته اللذيذة التي توحي بتواضع العاشق وانكساره، إلاّ أنّ وجه هاني منحوت كثيرًا، ويعطيه الشكل الفرعوني سحرًا خاصًا. ربّما سحرني في البداية صوتُه الجميل وشبهه بعبد الحليم حافظ، الغارق في الرقّة لكن الحادّة والجارحة. صوته يُذيب المشاعر ويُسيخ حتى الأحاسيس المتصلّبة، ويأخذني دائمًا إلى عالم، نفوس الناس فيه وُلدت من طين الحبّ. عالم خالٍ من الصراعات، ولا شهوة فيه سوى شهوة الحبّ وعذاباته، والرغبة الدافئة والحارّة، الممتلئة بالوجع واللّين والسخونة.

صدره علا وهبط لمّا صارت أنفاسه قريبة من أنفاسي. وجهي اكتسى بالحمرة، قبل أن يقبّلني أوّل قبلة في حياتي. هربت منه راكضة صعودًا في اتّجاه الطريق العامّ، بينما هو يركض خلفي، فقلت له وأنا أتحدّاه وأضحك:

- إذا كنت شاطر بتلحقني وبتكمشني.

بلحظة برق، وجدتُه يشدّني بجدائلي من الخلف، فوقعت عليه وأمسك بي. التصق ظهري بصدره بعدما احتضنني وكتّف يديّ على صدري. قبّلني في عنقي، قبل أن يُدير وجهي لتأخذنا قبلة لا يزال طعمها تحت لساني. وصارت هوايته بعد ذلك المشوار أن يقبّلني من بين القضبان الحديدية لبوّابة منزلنا الخارجيّة بعد أن يقرّب وجهي بيديه من بين القضبان وهو يضحك، كلّما كان يوصلني إلى البيت بعد دوام الجامعة.

• • •

مشينا طويلاً تحت المطر وهو يلفّ يده حول رقبتي تحت المظلّة، ونحن ذاهبان إلى غرفته الصغيرة التي كان قد استأجرها آنذاك هو وأصدقاء له، عندما كان طالبًا في الجامعة.

في تلك الغرفة كان لقاؤنا الجسدي الأوّل.

العاصفة كانت قويّة إلى درجة أنّنا وصلنا إلى غرفته وأنا أرتعش من البرد المفاجئ أواخر ذلك الخريف، وثيابي مبلّلة بالمطر.

أعطاني بيجامته لأرتديها ريثما تجفّ ثيابي، ثم أدار ظهره، وراح يتطلّع إلى حبيبات المطر على النافذة ويصفّر بأغنية «بحبّه مهما أشوف منّه ومهما الناس قالت عنّه» لعبد الوهّاب. رغبتُ بشدّة في أن يلتفت إليّ ويراني عارية وأثيره، لكنّه لم يفعل.

غادرنا الجوع ما إن جلسنا أمام طاولة دائريّة صغيرة لنأكل قطعتَي الهمبرغر اللتين اشتريناهما من مطعم صغير قرب بيته. سرحت عيوننا ببعضها البعض طويلاً، قبل أن يُخفض بصره قبلي ويُمسك بيدي، ونقف وجهًا لوجه، بينما تعطّلت لغة الكلام.

لمّا احتضنني شعرت بأنّي غبت عن الوعي، برغم أنّه كان قد خطفني بين ذراعيه سابقًا. لا أعرف حقًّا كم طالت مدّة احتضانه لي. هل هي ثانية، دقيقة، أم ساعة، أم دهر. حتى المكان غاب عنّي، ولم أعد أعرف أين أنا.

احتضانه لي كان رقيقًا، كما بقي دائمًا، بدون أن يعصرني العصرة المألوفة للرجال، ونار صدره لم تكن حارقة، بل أشبه بمياه دافئة في خزّان.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

قبل أن يقبّلني ارتجفت شفتاه أكثر هذه المرّة. أغمض عينيه وتنهّد تنهيدته المعهودة. كلّما التقينا يفعل هاني ذلك. يقف على مسافة منّي، يُغمض عينيه ويتنهّد تنهيدة عميقة. تلك المرّة، شعرت وأنا أقبّله بأنّي أتنفّس هواء العالم كلّه، وأتحسّس السخونة المشتهاة لجميع المصابين بالبرد في الدنيا. التيّار الساخن في جسدي أشعرني بأنّي أتعرّق تحت جلدي، وليس فقط فوقه، وخاصّة حين وضع يده أسفل ظهري وقادني إلى السرير، حيث ارتخت عليه فقرات ظهري.

في البداية، نام إلى جانبي على بطنه، متكئًا على كوعيه، ثم فتح أزرار بيجامته التي أرتديها وقبّلني في صدري من فوق السوتيان، ثم فوق بطني قبلتين قبل أن نمارس الحبّ.

بلّلني بدون أن يدخل بي، لأنّه لم يُرد أن يفضّ بكارتي، ويريد أن يحميني كما قال. استغربت تصرّفاته، لكنّي ابتسمت في وجهه وأنا أقول بيني وبين نفسي: على كلّ حال، هاي هي البكارة. البكارة مش مجرّد غشاء تافه يُحدث الألم خارج النشوة. النشوة هي البكارة.

كلّما نام معي لاحقًا صرت أشعر بأنّني لا أفقد بكارتي، بل أستعيدها. فالنشوة كانت تتحقّق في جسدينا، ومن خلالها تعرّف جسدانا واحدهما إلى الآخر.

هكذا عرفت جسمي، واستكملت معه ما أحبّه، وليس ما أخافه أو أخفيه عنه. جسدي الذي كنت مستعجلة ليكبر حين كنت صغيرة، وأراقبه كيف يكبر بحبّ هائل، لم أشعر بأنّه أهين مع

هدي. كما لم أحسّ بأنّي أهينه حين يمارس زوجي الجنس معي. أشعر فقط بأنّ جسده مُهان وجاهل وأقلّ من جسمي. لكنّي ما كرهت سنيه يومًا. ولم أعتبره غازيًا، فهو لا يملك من المحارب سوى ثوب رحوله مزيّفة.

• • •

كان حلمي أن تتزوّج مثلما فعل الكثير من الشبّان والشابّات المسلمين والمسيحيّين قبل الحرب، وأحقّق رغباتي مثلهم، إلاّ أنّ الحرب أتت وأفسدت كلّ شيء.

اشتعلت المعارك، وانتقل هاني إلى العيش في بيروت الشرقيّة خوفًا من المذابح الطائفيّة، وخطوط التماسّ كانت تزداد عنفًا وكثافة. كنت أنتظره بفارغ الصبر ليأتي ويراني كلّما فُتحت الطرقات وتمّ الاتّفاق على هدنات أمنيّة.

حين علم أخي جواد بعلاقتنا أقام الدنيا وأقعدها. لم أكن أخاف إلاّ منه. كان «زعورًا» برغم وسامته، ومغرورًا بوقوع أكثر صديقاتي في غرامه، ومن بينهنّ عزيزة. وعندما كان يدخل البيت أوائل طلعته ليأكل، كنّا نجلس كلّنا حوله، ولا نضع لقمة واحدة إلاّ حين ينتهي من الطعام. وبرغم ذلك، وقفت في وجهه... حاول أن يضربني، فبكى أبي يومها بكاء مُرًّا إشفاقًا عليّ، بينما أمّي رفعت كتفيها، وقالت له:

ـ يا الرجال هيك، يا بلا. الناس إذا عرفوا إنّه البنت ضربها خيّها وما رفعت صوتها بوجّه، بيرفع مقامها، وبيقولوا عنها آدميّة، ومش زعرة.

لم يفهم أخي جواد غراميَ بهاني، ولا كيف تفتّحت زهرة مشاعري ورغبتي معه. فهو، عدا تعصّبه، كان يفترض أنّه ليس عليّ أن أكون أنثى بجسد يرغب أو قلب يحبّ، ما دمت أخته وعرضه.

كان صار ذكر البيت بنظر أمّي وعمّتي، والجنس ارتبط عنده بالمومسات، بل أكثر ما يستمتع معهنّ، وهو الذي اكتشف متعته برفقتهنّ.

كانت رائحته في أنفي قد تبدّلت إثر بلوغه. وصار في البيت رائحة ذكورة لم أكن أشتمّها في أبي بقدر ما كنت أشتمّ فيه رائحة أبوّة. نشرت أمّي فرشته في الشمس مرّات عدّة بعد بلوغه متحجّجة برطوبة غرفته، لكنّه كان يبوّل في فراشه كلّما استحلم لعدم قدرته على ضبط نفسه. لم تشعر أمّي بالقرف منه، إلاّ بعدما دخلت الحمّام بالصدفة، وجزعت حين شاهدت شعيرات عضوه بعد بلوغه. خرجت من الحمّام مصدومة، وأغلقت بابه خلفها ووجهها مكفهرّ، كأنّ غيومًا سوداء كثيفة ستمطر فيه. والغريب أنّه برغم أنّه صار رجلها في البيت، سمعتُها يومذاك تقول لعمّتي:

ـ ما بعرف يا رُقيّة شو صار فيّي بسّ فتت عالحمّام وشفت شعراته. قرفت ولعيت نفسي، وحسّيت إنّه صار في رجّال تاني بالبيت، من بعد ما كان حولي صبي صغير وبنَوْنِس حولي متل الصوص ورا إمُّه.

فحّت في البيت رائحة عطر قوي شعبي اشتراه من دكّان مجاور لبيتنا، وملأت رائحته البيت، فشعرتُ بالدوار قبل أن يذهب إلى

شارع المتنبّي الذي كان قائمًا وسط البلد قبل الحرب الأهليّة، بعدما شجّعه على ذلك صديق له يقصد الشارع لممارسة الجنس مع المومسات.

وسط ذلك الشارع، وقف يتلفّت يمينًا وشمالاً، ويقرأ أسماء المومسات غير مدرك ما عليه أن يفعله. ثم انتبه إلى صفّ طويل من الرجال من كلّ الأشكال والأعمار، يقف كلّ منهم بانتظار دوره أمام مسكن إحداهنّ، كانت تُدعى قوت القلوب. وقف في الصفّ ليأخذ دوره، ثم سأل الرجل الواقف أمامه عن سبب هذا الطابور الطويل من الرجال، فقال له:

ـ بقولوا هاي الأرتيست عليها طلب كتير لأنّه بتتحرّك كتير ويتمتّع الزبون غير شكل، وعندها أسلوب خاصّ فيها، ما عندها ايّاه وحدي تانية هون بالسوق.

هزّ جواد له رأسه، وراحت التخيّلات تأخذه وتجيبه وهو واقف إلى أن جاء دوره.

كانت غرفتها أشبه بعيادة طبيب، مقسّمة إلى غرفتين. واحدة تستقبل فيها الزبون، وأخرى يتوزّع فيها الرجال على الكراسي ممّن دخلوا وضمنوا أدوارهم. وبين الغرفتين، يفصل باب صغير يُفضي إلى حمّام تأخذ فيه دوشًا بعدما تنتهي من الزبون الذي استقبلَته.

لمّا رأته دخل غرفتها، «طوبزت» قوت القلوب، وراحت تحرّك مؤخّرتها شمالاً ويمينًا، فخُيّل إليه أنّ أحدًا ما تحتها يزكزكها لتفعل ذلك. بقي واقفًا مذهولاً يحدّق في مؤخّرتها الكبيرة ويرتجف، كما لو أنّه يرى عالمًا جديدًا غامضًا يجهل دهاليزه ومداراته. برمت

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

برأسها، التفتت إليه ونادته: «شو بيك يا إبني واقف، يا الله، تعا قرّب وما تخاف»، لكنّه بقي جامدًا في مكانه لا يبرحه. قامت واتّجهت إليه، أمسكت بيده وجرّته، ثم طلبت منه أن ينزع بنطاله وألاّ يخاف، ويطبّ فوقها بعدما عادت وطبّبت وراحت تهزّ مؤخّرتها. ولم ينسَ ما علّمته إيّاه. أوصته بأن يمسك نفسه وألاّ يقذف بسرعة كي لا تستخفّ به النساء اللواتي سيقيم علاقات معهنّ ويَشْكُنَّ برجولته. فعل مثلما قالت، ودخلها مكتشفًا متعته معها. متعة هائلة تفوق كلّ متعه السابقة جعلته منذ ذلك الحين دائم التردّد على سوق المومسات.

• • •

منعني أخي جواد من مغادرة البيت والذهاب إلى الجامعة، برغم أنّه كان يتحدّث في الندوات السياسيّة عن العلمانيّة، وضرورة إلغاء الطائفيّة، وشعارات كبيرة لم يكن يفقه منها شيئًا.

لم آبه لكلام أخي جواد الذي أكنّ له عاطفة كبيرة بالرّغم من كلّ شيء. وأعرف أنّه يحبّني محبّة خاصّة. بكى وحضنني بعدما حاول ضربي. اتّصلت بهاني، والتقينا في أحد مقاهي الحمرا، وطلبت منه أن يتصرّف إن كان يحبّني فعلاً، واتّفقنا على ذلك.

لم أكن أعتقد أنّ أهلي سيرفضونه بعدما تحدّث بالموضوع مع أخي جواد. كنت أراهن على أنّني المدلّلة عندهم. كانوا يتعاطون معي بمحبّة فائقة: يغازلون جمالي وذكائي، وأسمع دعاءهم لي، وخاصّة أبي الذي كنت أعتقد أنّه سيقف في وجه أمّي وأخي، لا سيّما أنّه ذاق طعم خسارة الحبّ، لكنّه كان الحلقة الأضعف في

البيت، وإن كان الحلقة الأرقّ والأكثر مدنيّة وإنسانيّة. كان أبي متضامنًا معي، ومتحمّسًا لزواجي بهاني، إلاّ أنّ أخي وقف في وجهه وأهانه، فانزوى في فراشه يبكي خذلانًا. حين رفضوه وقفت بينهم وأنا مذهولة. عيونهم بدت لي فارغة. عينا أمّي الزرقاوان، صرت أراهما سوداوين. عينا أخي جواد امتلأتا بالكذب. ملامحهم كلّها أمامي تغيّرت. كان عليّ أن أقاوم لأقنعهم به، وأقنع هاني بأن تبقى علاقتنا مستمرّة.

أحسست بأنّني محاصَرة ومرهقة بعد أن منعوني من الخروج. شعرت بأنّي وصلت إلى حائط مسدود. صرت أفكّر كيف يمكن أن أهرب من البيت وأغادره لأرى هاني ويراني، أو لنتزوّج سرًّا، أو لأفعل أيّ شيء وأضعهم تحت الأمر الواقع. لكنّ هاني فاجأني حين التقيت به إثر هدنة أمنيّة، في أحد مقاهي الحمرا بقوله: أنا فكّرت يا نهلا. كيف بدنا نتجوّز. أنا بعدني تلميذ، وأبي فقير ببيع خضرا على العربايّة وإخواتي بدّي ربّيهن وعلّمهن بسّ إتخرّج. إذا بتنتظري لأتخرّج وإشتغل أنا وإيّاك، بتمنّى!

لم يُردْ هاني أن أهرب معه، ولا أن يفضّ بكارتي برغم كلّ إغراءاتي له حين التقينا في بيت صديق له في الأشرفيّة بعدما قطعتُ إلى هناك تحت الخطر ذات يوم، كي لا يؤذيني كما قال لي. وأنهى حديثه لي يومها بالقول: شو بكي يا نهلا، خيّك مجنون، وعيلتك بتاخذ بالتار. وبهالأيّام الخرا، الواحد عم بموت والإنسان رخيص مثل الفشكة. يمكن يقتلوك ويقتلوني.

• • •

«عيّري ثيابك وفوتي على الصالون»، قالت لي أمّي ذات يوم، بكلّ إرادة وتصميم، بعدما أتانَي العريس سليم، الذي أصبح زوجي.

كلمات هاني في أذني دفعتني للدخول إلى غرفتي لتحضير نفسي للقاء العريس، لكنّ إحساسًا بالذنب بقيتْ طوال عمري أحمله في داخلي لأنّني لم أستطع أن أدافع عن حبّي ولأنّني لم أنتظره. في ذلك اليوم، وجدت نفسي مدفوعة لاختيار أبشع ثوب عندي.

استقبلني بصدر الصالون رجل أربعينيّ يكبرني بحوالى عشرين سنة، أنيق جدًّا، ويبدو من مظهره أنّه من عائلة ميسورة، ولفتني أنّه يضع عطر «أبيه روج» الذي كنت أعشقه، إذ إنّني أعشق العطور وأستطيع التمييز بينها. عيون أمّ العريس وأخته اللتين كانتا ترافقانه، بدت كأنّها تلتهمني.

هجمت أمّي على غرفتي سعيدة به بعدما خرجوا، ورفعت يديها للسماء تشكر ربّها قائلة:

ـ الله يسعدك يا بنتي. أبواب السما انفتحت لك، وليلة القدر حلّت عليك ليجي هيك زلمي يطلبك للزواج. محامي شهير، وعاش بأفريقيا وقت طويل، وجاب مصاري الدنيا، وأملاكه يا لطيف. ومش كلّ رجّال عنده وهرة. هيدا زلمي بعيّ العين، ومش كلّ ساعة بيجي مثله. بشكرك يا ربّ، ولك الحمد والشكر.

كلّ شيء تمّ بسرعة، والغصّة في قلبي كانت كبيرة. عندما فرشت السرير وغطّيته بـ «الكوفرلي» وزيّنته قبل ليلة الدخلة ارتجف قلبي. كان حلمي مخدّة تجمعني بهاني، وأن أنام بجانبه في

السرير، أكثر ممّا كان همّي الجنس معه.

في ليلة زفافنا الأولى، عندما فضّ زوجي بكارتي، انتابني شعور بالشفقة عليه. أحسست بأنّي لم أسلّمه جسدي. كنت منفصلة عن جسمي تمامًا، وأشعر بأنّ هذا الجسد الذي كان يمتطيه، هو لامرأة أخرى. وما كنت أعد نفسي به حول إيلاج لذيذ، ولو كان جسديًّا فقط، تحوّل إلى معاناة. وما أثار استغرابي ليلتها، أنّه حين دخلنا الغرفة، خلع ثيابه وسبقني إلى السرير، مغطّيًا جسده بالشرشف الذي بدا عاليًا وكأنّه رأس خيمة عند منطقته الوسطى. والحقيقة، أنّ ذلك الشيء الذي بدا منتصبًا من تحت الشرشف، كان في واقع الأمر قبضة يده التي أمسكت بقضيبه ليبدو منتصبًا وليوهمني بفحولة غير عاديّة.

ليلتها أخبرني أنّ الجنس عنده قوي، ومثل الدبّ يشمّ رائحة الدبّة من بعيد في الثلج، ومثله ترتجف مؤخّرته، الفرق أنّ قواه لا تتهالك، فيما عظمة عضو الدبّ تنكسر كالغصن عندما يدخل الدبّة، ثم يبتعد منكسر القوى.

وليلتها، أخبرني أنّ بعض أهالي القرية يلقّبون عائلته بالبغال لطول أعضائهم الجنسيّة وقوّتها، وبعضهم الآخر يلقّبها بعائلة الدببة. اخترع لي قصّة بأنّ قريبًا له انكسر عضوه ليلة عرسه مثلما ينكسر عضو الدبّ عندما يدخل أنثاه لكثرة إثارته وقوّة طاقته، ولم يخرج منها إلاّ بعد أن انهارت قواه، وراح يمشي متهالكًا ومنهارًا.

ارتخاء عضوه نسبيًّا على ما كنت أحسب الانتصاب، انفضح أمره منذ أن نام فوقي. بذل مجهودًا وأنا دخلت اللعبة، برغم أنّه

غاب عنّي كلّ شعور، ولم أحسّ إلاّ بأنّ جسدي آلة ساعدته على اختراقها. وما بدا منّي تجاوب من حركات وتأوّهات، لم تكن إلاّ لأساعده وأهيّجه ليقطع المرحلة بسلام. وعندما نجح، كنت أحاول قدر الإمكان أن أشعره، كلّما طلع ونزل فوقي، بأنّه يمتّعني. كنت أعطيه وأعطي نفسي. الغريب كم أنّ المرأة قادرة على إرضاء حالها وإرضاء شريكها في الوقت نفسه بمعزل عن الحاجة إليه. يا لهذه القدرة للمرأة، وربّما العادة السريّة عندها تشبعها أكثر ممّا تشبعه عادته لمّا يمارسها. ربّما همّه أن يدخل في عضوها أو في أيّ شيء أكثر ممّا همّه لذّته.

الدم الذي كان علامة بكارتي أسعده، ولطالما كنت قد سمعت من أمّي وعمّتي وبنات القرية، كم هو مؤلم فضّ البكارة. كلّ ما سمعته منهنّ عن فضّها يذكّر بالألم أو بالذبح، بعيدًا عن اللذّة. لم أسمع ولو لمرّة واحدة امرأة تتحدّث عن فضّ البكارة مصحوبًا باللذّة. لكن موضوع البكارة ليلة عرسي لم يعنِني، إذ فكّرت في أنّ أشيائي الخاصّة هي ما يعنيني. البكارة التي لم أعرها اهتمامًا، ولطالما تمنّيت أن يفضّها هاني قبل زواجي، لكنّه لم يفعل حرصًا عليّ، على ما قال، كانت تذكّرني بالخوف من جسدي، وليس عليه. كم حذّرتني أمّي وأنا طفلة، من ألاّ أقع، خوفًا من أن يصطدم عضوي بشيء قاسٍ وتُفضّ بكارتي. وما زلت أذكر حين وقعت مرّة عن حافّة سور حديقة بيتنا في القرية، وغبت فيها عن الوعي آنذاك، بدون أن يدري بي أحد. وحين وعيت ودخلت البيت، وأخبرت أمّي وأنا لا أزال أشعر بدُوار وألم، فما كان منها إلاّ أن صرخت في وجهي:

ـ وين وقعتي يا مشحّرة؟ على راسك؟ على ضهرك؟ قوليلي وين؟ عجّلي بالحكي. وقعي على راسك، على ضهرك، وقعي وين ما بدّك، بس ما توقعي عليه (وتقصد عضوي).

كنت أكره عذريّتي، وأحقد عليها، على عكس عزيزة، التي كانت تقول لي دومًا إنّ العذريّة دَينٌ تَدين به المرأة للرجل. طوال أيّام المدرسة، كانت تشكو لي مخاوفها حول فقدانها بكارتها، علمًا بأنّه لم يمسسها رجل. حتى اللون الزهري الذي كانت تلحظه عند مجيء الدورة الشهريّة، كان يجلب لها الظنّ أنّه دم بكارة، فيصفرّ وجهها، وهي تسألني ماذا ستفعل لو كان دم بكارة؟

مرّة سألتها:

ـ هيتك بتمارسي العادة السريّة حتى بتضلّي خايفة.

ـ إيه بمارسها ما بعرف ليه، مع إنّي بحبّ الحبّ العذري.

ـ طيّب وبتفوّتي إصبعك؟

ـ لأ، أبدًا.

ـ طيّب خلص، لشو خايفة.

كانت عزيزة أوّل من تزوّج بيننا. وحين زرناها لنبارك لها، تفاجأتُ بالتغيير الذي حصل لها. لم أرَ البنت الخجولة الضعيفة التي لا تتكلّم كثيرًا، وإن تكلّمت فلتتحدّث عن الحبّ العذري. احترتُ في أمرها وأنا أفكّر أيّ قوّة أعطاها الزواج، وأيّ ثقة بالنفس، برغم أنّها آنذاك لم تكن تعرف معنى اللذّة مع زوجها، ولم تكن تفقه شيئًا. وفي اللحظة التي اقتربت فيها منّي وهي تقدّم إليّ

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

فنجان القهوة على الصينيّة، همست في أذني ووشوشتني وهي تبتسم ابتسامة مزهوّة تعبّر عن إحساسها بأنّها نجحت من الامتحان، واكتشفَت كم هي صالحة وغير معطوبة، وقالت: طلعت عذراء يا نهلا، مش معقول شو مبسوطة!

فرحت عزيزة بفضّ عذريّتها، لكنّها أيضًا حدّثتني عن الألم المصاحب لها.

الألم الذي شعرت به ليلة زواجي كان جزءًا من إحساسي بالتكفير عن دين ساعدني على تحمّل الألم، وخفّف حدّته. لكنّي في تلك اللحظات كلّها، كنت أشفق على ذلك الرجل الذي امتطاني كما تُمْتَطى البهيمة، باذلاً مجهودًا لينغرز عضوه فيّ، ويحقّق نصره.

هكذا، بدا زوجي في ليلة زواجنا.

وبعدما نام معي ليلتها، خُيّل إليّ أنّ يد هاني امتدّت لتحنو على جسدي كي أنام. ورويدًا رويدًا وقتها، استحضرتُ رائحته في أنفي، وصعدت بها إلى النوم، وغفوت إلى جانب زوجي.

حين علم هاني بزواجي سافر إلى باريس، كان قد ضاق ذرعًا بالحرب التي بدت أنّها ستطول كثيرًا.

سافر هاني أواخر عام ١٩٧٥ بدون أن يتّصل بي، في سيّارة فولكسفاغن عتيقة برًّا مع أحد أصدقائه، خلال الرحلة البرّيّة انقطعت بهما السيّارة في مدن عدّة وذاق الأمرّين. لم يأخذ معه

سوى حقيبة صغيرة وضع فيها ثيابه، وكذلك كاسيتات الأغاني التي كنّا نسمعها معًا لعبد الحليم حافظ وفيروز ووردة الجزائريّة وعبد الوهّاب وأمّ كلثوم، ولا سيّما أغنيتها «ذكريات».

طوال الأيّام التي برّم فيها المدن، راح يستعيد ذكرياته معي، وصورة وجهي لم تفارق عينيه، كما قال لي لاحقًا. كان يتخيّلني أمامه بابتساماتي وجدائلي وشيطنتي وضجيجي وحناني عليه. وكلّما وصل إلى مدينة ونزل فيها هو وصديقه ليرتاحا ويأكلا، كان يشعر بأنّه يقوم بتمثيل فيلم سينمائي، والناس من حوله يتفرّجون عليه.

حكى لصديقه، والذي كان يقود السيّارة، كم كان مقهورًا ليلة زفافي. تكلّم مع نفسه على الأرصفة لأيّام. وحين كان يعود إلى البيت كان يغلق باب غرفته عليه، ولم يرد أن يسأله أحدٌ ما به.

ولمّا صارت السيّارة خارج الحدود اللبنانيّة، شعر بفراغ داخل صدره، وبأنّه بلا أضلع وقفص صدري، وليس فقط بدون قلب. شيء فارغ أحسّ به في هذه المنطقة من جسمه، ولم يعد إليه الإحساس بأنّ أضلعه موجودة بالكامل إلاّ حين عدنا والتقينا.

ـ ٦ ـ

أنا لست قدّيسة حبّ يا سعاد، قلت لها في مقهى السيتي كافيه، حين كنت برفقتها ذات يوم كالعادة، ذلك أنّها جزئي الثاني المستقلّ عنّي والمستعدّ دائمًا لأن يمدّ يده ليريحني. ابتسمت سعاد ابتسامة العارف بأحوالي، لكنّ نظراتها كانت تلاحق «الغارسون» الذي رحّب بها وأبدى اهتمامًا خاصًّا تجاهها، جعل عينيها تبرقان، وكتفيها المحنيّتين تعتدلان، كما لم تفعل منذ زمن.

عادت سعاد وأدركتْ قصدي بعدما انتبهت إلى رجل ستّيني لفتني كان يجلس إلى طاولة بالقرب منّا. كنت قد رأيته قبل بضعة أيّام يجلس أمام طاولة خلف المدخل الرئيسي للمقهى، يضع غليونًا في فمه، وأمامه عدد من الصحف والمجلاّت التي يقرأها، والداخل إلى المقهى والخارج منه، يسلّم عليه. خرجت بدون أن ألتفت إليه برغم أنّه كان يختلس النظر إليّ من تحت نظّارته. لم أعره اهتمامًا يومها لأنّني كنت لا أزال متوتّرة بعد الحماقة التي ارتكبتها بتعرّفي إلى شابّ في بيت هدى، هو قريب لها، ويصغرني بسنوات. كنت في حالة ضجر شديد، وعيناي ممتلئتان بالفراغ والبهتان. رغبتي في أن يحيا جسدي تفوّقت عليّ وأقنعتني بنسيان هاني. أثناء غيابه الطويل لم أكن أشعر إلاّ بسراب في الشفتين ألهو به شعرًا أقرأه لسعاد ثم أخبّئه في أدراجي. لم يكن يحييني سوى الشعر، كنت

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

كأنّي فاقدة عظامي، جسدي متيبّس حنينًا إليه لا يتجرّع سوى حموضة تفاصيل تافهة أبتلعها مع ريقي. وكان هاجسي أن أهرب من رغبتي فيه التي كانت تضجّ في جسدي مثل كتلة ضوء خرساء وأنا ممدّدة إلى جانب زوجي في السرير.

لكنّي لا أعرف لماذا وافقت بسرعة على الذهاب مع ذلك الشابّ إلى بيته. حين وصلنا تركني في الصالون أنتظر. دخل الحمّام، وأخذ دوشًا، خرج بعده لابسًا روب منشفة أبيض كاشفًا عن عضوه وهو يبتسم، معتقدًا بذلك أنّه يُغويني. كان منظره بشعًا ومقزّزًا، فحملت حقيبتي وخرجت، ولم أعد أردّ على اتّصالاته. وما جعلني أزداد قرفًا منه قوله لي قبل أن أفتح الباب وأخرج:

ـ لوينْ رايحة، هيك هيك جيتي، معليش مرقيللي إيّاها هالمرّة.

حين ذهبت هذه المرّة برفقة سعاد إلى مقهى السيتي كافيه، شعرت برغبة في لفت نظر ذلك الرجل الستّيني. وضعت كتابي الذي يتضمّن نصوصي الشعريّة على الطاولة بطريقة تلفت نظره، وطلبت من سعاد ألاّ تزيحه من مكانه ريثما أعود من الحمّام. وفيه رحت أحيك وأنا أبتسم بيني وبين نفسي، الحوار الذي يمكن أن يدور بيننا. وبمجرّد أن عدت وجلست في مكاني، همّ بالرحيل، بعد أن وقف أمام طاولتنا ونظر إليّ قائلاً:

ـ عنوان هالكتاب حلو.

ـ ولو، تفضّل خود هالنسخة.

أمسك الكتاب وسألني:

ـ ما بدّك تكتبلي إهداء؟

ـ «لا، خده بدون إهداء»، أجبته وأنا أبتسم.

ـ طيّب، اكتبيلي رقم تليفونك لأنّه أنا مسافر، وبسّ إرجع بحكيكي بعدين. ما بهمّك قلّك شو رأيي؟ كتبت على الصفحة الأخيرة من الكتاب رقم هاتفي الخاصّ بتردّد، وقلت له وأنا أكتبه:

ـ ما تنسى إنُّه أنا مجوّزة.

تقابلنا مرّات عدّة بعد ذلك. فارت مشاعري المكبوتة تجاه هاني، وشعرت بأنّي أحبّه وبأنّه أشعل شيئًا ما في داخلي. لكنّ الغريب أنّي ما إن بدأتُ بكتابة قصيدة، حتى صار هاني وحده حاضرًا في رأسي، كما يحضر في كلّ مرّة أكتب فيها شعرًا. كأنّي بكتابة الشعر كنت أحاول أن أستردّ مشاعري تجاه هاني، مثلما بدا لي أنّي أسعى إلى استرجاعه كلّما حاولت القبض على رجل.

حين نشرت القصيدة في إحدى الصحف، قالت لي سعاد إنّ ذلك الرجل سيكتشف أنّ القصيدة ليست له، وأن لا علاقة له بها حين يقرأها.

قلت مرارًا لسعاد إنّني لست قدّيسة حبّ. وكثيرًا ما حاولتْ أن تسألني عن سرّ نزواتي القليلة.

صحيح أنّني كنت أجيبها بأنّني أريد لجسدي أن يحيا، وأن يكون حرًّا كما هو، ولم أكن أكذب في ذلك أبدًا. لكنّي بيني وبين نفسي، كان يلتبس عليّ الجواب عن سرّ نزواتي: هل كنت أنقاد

وراء رغبتي، حيث لم أكن أستطيع أن أقاوم جسمي الذي كان يتمرّد عليّ أيّام شبابي، أم كنت ألجأ إليها لأقاوم رغبتي في هاني، أم أحاول الثأر من علاقة كانت محكومة بعدم الحياة؟

حين استعدت حبّ هاني الآن في منتصف العمر، التبس عليّ الجواب أيضًا. فهل لأنّني أسترجع رغبة مؤجّلة، بعد أن صار الموت ضيفًا قريبًا، أم لأنّنا في منتصف العمر نصير ندرك ما تريده أجسادنا، ولا تعود هذه الأجسام قادرة على الكذب في هذا العمر، بل لا تطاوعنا عليه لأنّها تصير قادرة على رفض ما لا تريده، مخلصة لمزاجها واختياراتها وانتقائها وصوتها ومشاعرها؟

أخبرتُ سعاد مرارًا أنّني أقمت علاقات عابرة، وأنّني عرفت بعض الرجال في حياتي. كانت التجارب تُغويني، حتى ولو كانت مجرّد نزوات. لكنّ تلك العلاقات جعلت جسمي مشدودًا أكثر إلى هاني وقرّبت علاقتي إليه أكثر، لأنّ معرفة الجسد لا تتمّ إلاّ مع الناس الذين نحبّهم. لذا، برغم أنّني أحببتهم حبًّا آخر مختلفًا (لأنّه ليس من علاقة تشبه الأخرى)، لم يكونوا سوى أشبه بالضيوف إلى جسدي. أمّا هاني فكان مقيمًا وحده فيه.

جسمي لم يكن حرًّا مع أولئك الرجال، ولم يذهب بعيدًا مع أجسامهم. ارتعاشاته مع هاني كانت مختلفة، ولذّته كانت حقيقيّة لعمق ذلك الغرام الذي جعل جسمي يعرف جسده، وجسمه يعرف جسدي. حتى هاني قال لي إنّه عرف نساء كثيرات، لكن لم يكتشف جسمه، ولم يعشقه إلاّ من خلال علاقتي به التي كان لها طعم آخر حين استعدنا الحبّ في منتصف العمر.

هو قال لي في لقائنا الأخير، إنّه صار يشعر بأنّ يديه موجودتان، وصار يهتمّ بتقليم أظافره كثيرًا والعناية بها، منذ أن وصفت له جمال كفّيه الكبيرتين وأصابعه الطويلة حين عدنا واحدنا إلى الآخر. صار يتأمّلهما أحيانًا في البيت، وينظر إلى تفاصيل الخطوط اللحميّة المجمّعة تحت بطنه بفعل الترهّل والعمر، ولا يخجل منها، لأنّني أقبّلها وأغازلها، ويحدّق أمام المرآة في عضلات صدره المرتخية التي ألامسها بيدي بشغف. أمّا علاقتي بسليم فكانت مختلفة.

• • •

طال حديث سليم على الهاتف مع أخي جواد، وهو يروح ويجيء في غرفة الصالون ببروتيله الأبيض وشورته المعرّق، وهما يتحدّثان عن نتائج فحوصاتهما الطبيّة، ويتبادلان أسماء الأدوية التي يتناولها كلٌّ منهما، للبروستات والسكّري والضغط والكولستيرول وغيرها، بينما كنت منصرفة لأتابع نشرة الأخبار المسائيّة، أنتظر سعاد لتتناول العشاء معًا.

اختلست النظر إليه من الخلف، وجلت بعينيّ على ظهره العريض والكتل اللحميّة المجمّعة حول خاصرتيه وعلى ساقيه النحيلتين اللتين ترهّلت عضلاتهما، وانتابني إحساس بأنّ جسده مهترئ ليس لأنّه عاشه، بل لكثرة ما استخدمه.

الشعور ذاته كان يصيبني حين كان ينام إلى جانبي في السرير، قبل أن أنتقل إلى غرفة نوم خاصّة بي بعد زواج ولديّ.

الحقيقة أنّي ما كرهت سليم يومًا، ولا حقدتُ عليه. الأوقات

التي كرهته فيها وحسبت أنّه يغتصبني، كانت فقط أيّام حملي بفاتن. الإحساس بأنّ ثمّة حياة داخلي أغلقت قابليّتي على الأشياء كلّها، فكانت آلام الوحام الصعبة من إحساس بالغثيان وانعدام الشهيّة والشعور بالقرف. ولا أدري لماذا كرهت رائحته إلى هذا الحدّ، برغم أنّها ليست كريهة، ولم تكن تنفّرني في الأيّام العاديّة. طوالَ حملي، كنت أجنّ حين يدخل البيت، وأشعر برغبة في التقيّؤ ما إن يقترب منّي، أو أفتح خزانته، أو أقترب من قميص له. لم أهرب من غرفته وحسب، بل لم أعد أجلس في غرفة واحدة معه. كان يستحمّ طوال الوقت ليرضيني، لكن عبثًا كنت أتحمّل رائحته ما إن يقترب منّي. طوال فترة حملي تولّد لديّ إحساس بأنّ هذا الرجل يعبث بجسدي كلّما اقترب منّي، وأنّ نظراته تنفذ إلى داخلي وتخترقني وتحوّلني إلى ما يشبه المعبد كلّما نظر إليّ. وبرغم أنّ وجهي تحوّل إلى وجه ملائكي، وصرت أكثر جمالاً، لكنّني نحلت جدًّا وبدا جسمي مثل هيكل عظمي.

ولا أنسى أنّي قلت مرّة لسعاد ونحن نتحدّث عن آلام النساء، إنّ كلّ شيء في أجسادنا له علاقة بالألم والتوقيت: من البلوغ والدورة الشهريّة إلى غشاء البكارة والولادة والإجهاض والوحام والرضاعة وانقطاع الطمث، حتى فعل الحبّ الذي يصير جزءًا من الألم، كأنّه عضو من أعضائه، وكأنْ ليس ثمّة حبّ وحياة خارج الألم. أضيفي إلى ذلك حبّ هاني الذي صار جزءًا من الألم في جسدي.

لكنّني لم أشعر يومًا بألفة مع جسد سليم، وأحسب دومًا أنّه لا

ينقصه شيء بالنسبة إليّ إلاّ الجسم، برغم قامته المربوعة الممتلئة ورأسه الكبير المستند فوق رقبة عريضة لافت قصرها.

لم أكن أشعر بأنّي أنام مع جسد، حتى قبل أن يصاب بالعجز الجنسي منذ زمن طويل. كنت أشعر أحيانًا بأنّه يستعير جسمه من رجل آخر. فقد كان يبدو غريبًا عنه، مرتبكًا به، لا يدرك أحاسيسه، وهو يريد استهلاكه بأيّ طريقة ما دام هو جسدًا مستعارًا.

يُخيّل إليّ أحيانًا أنّي أحبّه لطيبته وكرمه، ولا سيّما أنّه ساعد أهلي ماديًّا، وتكفّل بمصروف أمّي وجدّتي أمينة وعلاجهما قبل أن ترحلا. كما تعهّد بتعليم أولاد أخي جواد. لكنّي أستدرك إحساسي لأقول إنّه ليس الحبّ المتعارَف عليه بين المرأة والرجل.

لم أشعر يومًا بأنّي أخونه، برغم أنّي كنت دائمة الخيانة له. وما أشعر به وأنا عائدة إلى البيت بعد لقائي بهاني، أنّي سرقت من ماله. كأنّي فتحت حقيبته ونشلت منها ما تيسّر، ربّما لأنّ شعوري الدائم بأنّي رأسمال يصرفه. لكن لا أدري لماذا كانت عيناي تنهمران بدموع تفيض على وجهي بدون إرادة منّي عندما يغلبني الظنّ أنّه يعرف علاقتي بهاني، أو لديه على الأقلّ شكّ في ذلك. وبرغم ذلك، لا أعرف لماذا أرفض أن أسمّي شعوري تجاهه بالحبّ.

سعاد قالت لي: شو بدّك بهالحكي، ما في رجّال عربي بيعرف مرته عم تخونه، وبيسكت.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

هززتُ لها برأسي، وعدت إلى الموضوع. قلت لها إنّ الحبّ لا يقع في باب التخمين والشكّ لعمرٍ طويل. إنّه يجعلنا نبكي بكاءً لا يشبه البكاء، بل بكاءً من كثرة الحبّ. إنّ بكائي خوفًا من زوجي، مختلف عن بكائي أحيانًا من شدّة شوقي إلى هاني. إنّي لا أفعل ذلك بداعي الضعف. حتى وإن كان الواقع كذلك، فإنّ هذا لا يقلّل من كرمي العاطفي تجاهه بدون أيّ حساب، أو أيّ ميزان للشعور. أحسّ كم أحبّه وأنا أبكي، وأطلق سراح عاطفتي كي لا يغلبني فيضها ويصيبني الاختناق والغرق فيها.

مرارًا سألتها ما اسم هذا الغرام الذي يفتك بي ويحييني في آن. هل أنا منذورة لهاني مثلما كانت تعتقد أمّي أنّها كانت منذورة للشيخ الذي رأته مرّة، ورأت كيف اختصرتها نظرته إليها بلمحة بصر أيّ امرأة منذورة له؟ ما اسم هذا الغرام يا ربّي؟ سألته كثيرًا، بل أسأله كلّ يوم وأنا أكلّمه، كما تكلّم العاشقات ربّهنّ.

لماذا أعشقه إلى هذا الحدّ؟ كثيرًا ما سألت سعاد. هل لأنّه الحبّ الممنوع عليّ؟ أم لأنّه الحبّ الذي لم يتحقّق؟ أم لشعوري بالذنب لأنّني لم أستطع أن أدافع عن هذا الحبّ في وجهَي أمّي وأخي؟ أم لأنّه صار رمزًا لتمرّدي على تربيتي وذاكرتي؟ أم كونه غرامًا بالحياة الدافئة، ولأنّي لا أصدّق سوى جسمي وقلبي ورغباتي؟

ربّما، هو ذلك كلّه، وهو شغفي ودوائي كما أجابتني سعاد.

أخبرتها في ذلك المساء، ونحن نتناول العشاء معًا في بيتي، ما قلته لهاني، بأنّنا متقاربان ليس بالشكل وبالروح فقط. سألته ما إذا

كان صدفة اسمي نهلا وهو هاني. هل ترى حرف الهاء كيف يحاول أن يسبق النون في اسمي ويفلت، هل ترى الهاء كيف أنّها تسبق النون في اسمك وتلوي رقبتها أيضًا؟ انظر إلى هذا الاختلاف في علاقة الحروف ببعضها البعض في اسمينا. إنّه يجعلني أشعر بأنّ اسمي يختبئ في اسمك.

وقلت له حين التقيت به بعد زمن من الانقطاع، إنّني كنت مختبئة فيه، وهو يختبئ فيّ طوال الوقت الذي لم نرَ فيه واحدنا الآخر. ومن أجل ذلك، لم أنسَهُ، لأنّ الأشياء التي نختبئ فيها لا تُنسى أبدًا.

حكيت ذلك لسعاد التي كنت أخبرها كلّ أسراري، وأقرأ لها ما أكتبه في مذكّراتي. عندما أكون معها، أترك العنان لمشاعري ولأحاسيسي المتناقضة. كانت تلك اللحظات هي الوحيدة التي كنت أشعر فيها فعلاً باحتمال وجود هاني في حياتي، كما لو أنّ رغباتي كلّها قد تحقّقت.

• • •

رغبتي في لقائه كانت تحقّقت، حين رأيته للمرّة الأولى بعد زواجي عام ١٩٧٧. كنت حاملاً في الشهر الثامن بابنتي فاتن، والعبور بين البيروتين كان ممكنًا بفعل هدنة حصلت آنذاك بين المنطقة الشرقيّة والمنطقة الغربيّة.

رنّ جرس الهاتف ظهر ذات يوم، فتفاجأت بصوته على الخطّ. أصابني الذهول ولم أصدّق، صمتّ طويلاً ولم أقوَ على الردّ عليه

إلاّ بعد أن ردّد أكثر من مرّة أنّه هاني، وما إذا كنت أسمعه. وحين أجبت، سألني إن كنت قادرة على أن ألتقي به، قبل سفره إلى باريس لمتابعة دراسته هناك.

وجدتُ نفسي مدفوعة إلى الموافقة، متلهّفة إلى لقائه ولا سيّما أنّ زوجي كان مسافرًا. ثم إنّها ستكون المرّة الأولى التي أراه فيها بعد زواجي، أو ربّما لن أراه بعد ذلك أبدًا. فقلت له «طبعًا، طبعًا»، بعدها غرقتُ في صمت ولم أعد أصغي إليه. كنت أفكّر في أنّه يا ويلي! كيف قبلت بلقائه وأنا في الشهر الثامن، وجسدي يزن طنًّا؟ كيف سألاقيه، وبطني شاهد على خيانتي له، أي على تخلّيّ عنه، وعلى استسلامي وقبولي بالزواج من غيره؟

عاد صوته يسألني إن كنت لا أزال أسمعه، أو ما زلت على الخطّ، فانتبهت وقلت له: مشتاقة إليك يا هاني. ليتنا نلتقي، بودّي لو نلتقي الآن، وغدًا، وبعد غد، وعلى طول.

رنّت ضحكته القديمة في أذني. بدت لي كأنّها ضحكة غفران، واتّفقنا على اللقاء.

بعدما أغلقت الهاتف، رحتُ أخاطب ابنتي التي أسميتها فاتن قبل أن ألدها، وأعتذر إليها، لأنّ وجودها في رحمي جعلني أفكّر وأتردّد في لقاء هاني. خفت أن تكون الأجنّة قادرة على سماع أفكار الأمّهات. فربّتّ على بطني بيدي، وأنا أغصّ بالدمع، وقرّبت فمي قدر المستطاع من بطني ووشوشتها قائلة: يا ماما، بسّ إن شاء الله تجي وتكبري، بتفهمي وضعي.

كانت الشوارع شبه خالية، حين مرّ وأقلّني بسيّارة استعارها من صديق له، من أمام مقهى شعبي على كورنيش المنارة مقابل البحر كنّا نقصده أحيانًا أيّام الجامعة.

لم نتحدّث كثيرًا، ولم يلمس يدي. كنت أتنفّس بصعوبة، تعبة، ووجهي بدا متورّمًا جدًّا. أوقفنا السيّارة في طريق ترابي صغير ومعتم، متفرّع من آخر الكورنيش. كان القمر هلالاً ونوره الفضّي الخفيف يلمع على جانب من سطح البحر، لكنّه لا يكشف وجهينا داخل السيّارة التي كان زجاجها مغلّفًا بلاصق فوميه خفيف.

غرقنا في الصمت، وفي صوت أمّ كلثوم بعدما أدار هاني شريط أغنية «سيرة الحبّ» التي كنّا نعشقها ونسمعها معًا قبل زواجنا، ومشاعر راكدة عادت لتطفو وتملأ داخلي. مشاعر كأنّها محيطات أخرى من الألفة تعبرني. أسندتُ رأسي إلى ظهر المقعد وأغمضت عينيّ، متمنّيةً أن أدسّ يدي في يديه، وأقول له إنّه مستحيل أن يعبّر أيّ لحن وأيّ كلمة عن شيء أحسّ به تجاهك. الموسيقى والأغاني تساعدني فقط على أن يطفو حبّك بي أكثر، وأن أتدفّق وأقفز إليك أكثر. تمنّيت أن يقول لي أحبّك، مثلما كان يقول لي لأصير متحفّزة، كما كنت أفعل، لأسمعها منه مرّة أخرى. وكلّما ردّدها، أخرج عن طوري، ولا تتملّكني سوى رغبة سماع أحبّك.

وددت أن أقول له وقتها كلمات كثيرة، لكنّي لم أعرف ما أقول، كما لم أدرك وأنا أشعر بذلك المسّ الجنوني من الغرام وأنا جالسة إلى جانبه، ما إذا كنت أشعر بالاطمئنان أم بالخوف، الفرح أم الحزن، الرغبة في البكاء أم في الفرح والرقص. لكنّ غرقنا في

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

الصمت، وفي ضوء القمر لحظتها، لم يدم، وقطعه فجأة ظهور مسلّحين فلسطينيّين راحوا يصوّبون أسلحتهم في اتّجاهنا.

ارتعب هاني. أدار السيّارة فورًا ورجع بها إلى الخلف بسرعة جنونيّة لنهرب منهم، فأطلقوا النار في الهواء كي يقف. وحين لم يمتثل لأوامرهم أطلقوا النار على دواليب السيّارة، فخاف هاني عليّ، فدفعني بلحظة برق إلى أرضيّة السيّارة وغطّاني بجسده ليحميني بعدما خُيّل إليه أنّهم سيطلقون النار علينا حتمًا. تضايقت حين صار فوقي، وصرخت من الألم، بينما هاني لم ينتبه إلى أنّ الرصاصة الأخرى التي أطلقوها في اتّجاهنا ضربت الدركسيون، وأصابته شظيّتها إصابة طفيفة في ركبته، قبل أن يحاصرونا ويُجروا معنا تحقيقًا، عرفنا في خلاله أنّهم كانوا يراقبون المكان، لأنّ فتاة شابّة وُجدت مقتولة في الليل الفائت.

عدت إلى البيت في تلك الليلة وأنا أئنّ من الخوف والتعب، حضنت ابني أحمد ورحت أقبّله وأبكي، إذ ماذا لو أصابني شيء، فكيف سيعيش ابني ويكبر بدوني. وما زاد في بكائي اكتشافي أنّ هاني ما زال يحبّني كما في السابق، وحبّه تغلّب على الخوف من الموت والرصاص، وكان سيفتديني بحياته. ولا أنسى ما قاله لي يومها: إذا انصبتْ أنا مش مهمّ، المهمّ إنتِ وحياتك وقيمتك وعدم الفضيحة. زمطنا من شعرة. والله بحبّنا وروحي صلّي.

عندما فتحتُ عينيّ منتصف الليل لأشرب الماء، عدتُ وصرختُ وبكيتُ بعدما شاهدتُ صورة مسلّح فلسطيني على الروزنامة التي كانت سعاد قد أعطتني إيّاها بعدما تبرّعت لإحدى جمعيّاتهم. قمت

عن السرير وركضت إلى الحائط ونزعتها بعدما خُيّل إليّ أنّ الفدائي يطلق النار عليّ.

سافر هاني ودموعي تملأ وجهي. شعرت بالخوف بيني وبين نفسي. صحيح أنّي لم أكن أراه، لكنّه كان موجودًا في البلد. الآن، أحسّ بأنّه انتُزع منّي انتزاعًا وسوف تسرقه منّي تلك البلاد الغريبة إلى الأبد. وفي الوقت ذاته فكّرت في أنّه هو الذي يخذلني هذه المرّة، ولست أنا من خذله، وقد أشعرني هذا ببعض العزاء، لكنّ بكائي لم ينقطع.

لقاؤنا كان بطله الخوف، فلم أشبع منه ولم يشبع منّي. كان ثمّة كلام كثير أودّ أن أقوله له، لكن لا أدري لمَ ارتبط لساني. كنت أتطلّع إليه وأسرح فيه في السيّارة، وهو يتأمّل القمر ويستمع إلى أمّ كلثوم، كما لو أنّي أريد أن أبلع ملامحه وأختزنها في داخلي، فربّما تمرّ سنوات طويلة ولن أراه أبدًا.

ـ ٧ ـ

أطفأت نور الغرفة وتمدّدتُ على السرير. بحركة سريعة نزعتُ كيلوتي، ثم أغمضت عينيّ تاركةً جسدي مستسلمًا لقبلاته.

عرقه كان نديًّا وطريًّا. شعرت به لزجًا وحارًّا على جسمي، وحبته يلمع مثل النجوم في ليل الغرفة على جسدينا.

ملامسته الحميمة حثّت على اندفاع دمي في عروقي، وقبلاته سخّنت شهوتي، فتمرّد جسدي عليّ منصاعًا لفوران رغبتي. يداه الكبيرتان تراقصتا ابتهاجًا على جسمي، وهو فوقي مغمض العينين.

يحدث أن يزورني في المنام، لكن ها هو معي الآن بشحمه ولحمه وقبلاته في غرفتي وعلى سريري الزوجي. بعدما خرج سليم ها أنا وحدي معه. يداه وفمه تتناوب مشوارها على جسدي، وتدغدغ حواسّي كلّها. وكلّما ازداد شعوري بالتهاوي تحته، كنت أرتفع معه إلى السماء.

لم أفكّر في أنّني أخون سليم، بل لم أفكّر فيه أبدًا.

رائحة هاني ملأت أنفي، وتكويرة كتفه لمعت أمام عينيّ. سمعت صوتي ينطق عضوي، يكرّره ويردّده أكثر من مرّة، قبل أن أطلب منه أن يدخل فيّ، كما كان يدعوني لأفعل ذلك كلّ مرّة، كي

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

يصل إلى ذروة هيجانه. داهمَتني موجة من التقلّصات قبل أن تهدأ عاصفة جسدي، وتنحسر أمواج حوضي.

فتحت عينيّ، فلم أجد أحدًا في الغرفة. ليل وهدوء وصمت، بينما إصبعي داخل عضوي. جلتُ ببصري في أرجاء الغرفة بعدما تنبّهت إلى أنّني أمارس العادة السرّيّة.

منذ أن تزوّجتُ وانقطعَت علاقتي بهاني. وتخيّلاتي لم تنقطع. يحدث أحيانًا، حين أنفرد بنفسي، أن أغمض عينيّ. وأجدل شفتيّ على شكل فوّهة. أحبس أنفاسي، ثم أطلق سراحها على ما تصل إليه من جسدي، فأشعر بأنّها أنفاسه هو، وأصابع يمناي تصير أصابعه. أبلّل طرفها بريقي وألامس حَلَمتيّ فأحسّ بأنّه هو من يلامسها، وبأنّني فوقه أو أنا تحته، ولا أعود في حاجة إلى أن أغمض عينيّ. يصيرُ عينيّ. أوجّه نَفَسي السّاخن إلى صدري، وأستعين بيدي حتى تصير سخونة بشرته منتشرة في كلّ أنحاء جسمي.

كم حلمت دائمًا بطفل الحبّ منه.

شاهدت مرّة في منامي أنّني ولدته. رحتُ أتفحّص شكله مذهولة وهو بين يدَي الطبيب بعدما خرج من رحمي.

ومرّة أخرى شاهدتُ في منام آخر أنّ لديّ طفلة شقراء منه، وأنّنا نسكن معًا، في بيت لم أعرفه من قبل. حملتُ الطفلة بين يدَيّ، وقلت له: ليك يا هاني، هاي بنتك.

وجوده الطاغي وإحساسي بوجوده، كانا يمتعانني، لكنّهما كانا

يؤلمانني عندما أشعر بأنّهما افتراضيّان فقط، إلى أن قرّرت أن أمسحهما. كان هذا المسح غير ممكن قبل أن أعود وألتقي به شتاء ١٩٧٨، حين جاء إلى بيروت لتمضية عطلة الميلاد ورأس السنة، وعادت علاقتنا بشكل قوي، جعلته يبقى بقيّة العام في لبنان.

في تلك السنة، تعرّف جسدانا واحدهما إلى الآخر أكثر، وبات سكن كلّ منهما في الآخر أبديًا، وغير قابل للشكّ على الارتحال معًا في الرغبة.

أشياء كثيرة أحاول أن أتذكّرها، لكن عبثًا.

كأنّ ذاكرتي على رأس قمّة جبل شاهق، في كلّ مرّة أحاول الصعود إليها أقع قبل أن أبلغها وأتذكّر. أعاود الكرّة وأعمد إلى الصعود ثانية، مثل ديدان غامضة كلّما سقطت عن أغصانها، عاودت الزحف إليها، لكن عبثًا.

لكنّ ثمّة ذكريات تعود لتطفو أحيانًا ولا أعود أتذكّر غيرها. أذكر الآن أنّني كتبت عن ذلك اللقاء في أوراقي، وقرأت لسعاد ما كتبته. وعندما سمعَت ما قلته عن فراقنا ثانية، وضعَت يدها على صدرها مثلما تفعل عندما تتضايق، تصير كأنّها تفتّش عن داخلها وحالها ثم تصمت. هي دائمًا تفعل ذلك، عندما تنفعل تتبلكم، كأنّها تفقد النطق، وتصير كأنّها تستدرج أبجديّتها استدراجًا، لكن عبثًا.

في ذلك الصباح، كنت أشرب قهوتي على الشرفة. كان المطر

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

يحكي، حبيباته تكرّ على الحافّة الخارجيّة العلويّة للنافذة مثل دموع تهبط. مطر بدا كأنّه يتلو صلوات إيقاعيّة خفيفة قبل أن يهبّ هواء خفيف يتلاعب به ويراقصه. رحت أتأمّله وأنا أفكّر كيف تروي الحياة أسرار نداوتها وديمومتها وسقوطها أيضًا. وما إن هدأ المطر، حتى سرق عينيّ ثانية وميض برق جديد. وميضٌ يترك دائمًا إحساسًا لديّ كأنّه يخبرني بحدث صاعق مفاجئ.

جاءتني سعاد في ذلك الصباح، ورحت أقرأ لها القصيدة التي كتبتها في الليل الفائت. بعدما انتهيتُ من القراءة، نظرَت إليّ بعينيها السوداوين اللتين كانتا لا تزالان تبرقان، وابتسمت بثغرها الذي كان مزهرًا، وفاجأتني بسؤالها:

ـ ما عرفْتِ إنّه هاني هون؟

ـ كيف هون؟ أجبتها بعدما اصفرّ لوني.

ـ شفتُه مبارح بقهوة الروضة وسلّمت عليه.

ـ وشو كان عم يعمل؟ وأيمتى إجا؟ ومَع مين كان؟

كرّت الأسئلة منّي إلى أن أصابني الخرس، ثم غيّرتُ الحديث فورًا، خوفًا من سماع إجابة لا تعجبني، ورحت أحكي لها عن ولديّ، لكنّ كلامي كان يشبه أفكاري التي تشوّشت.

لم يكن مضى سوى يومين، حين تلقّيت مكالمة من هاني، قال لي فيها إنّه حاول ألاّ يتّصل، لكنّه لم يستطع، إذ كيف يمكن أن يكون هنا في بيروت ولا يراني.

في مقهى صغير في بيروت لا يقصده أحد من معارفنا، قابلته.

كأنّ روحي عادت إليّ حين التقيتُ به بعد انقطاع. وما إن جلستُ أمام الطاولة قبالته حتى شعرت بأنّ الدم تدفّق إلى قلبي. احمرّت وجنتاي، ولمعَت الحُمرة أيضًا في أذنيّ وأرنبة أنفي. حكينا أشياء كثيرة عن دراسته وعن ولديّ وعن الحرب؛ كنّا نهرب من الحديث عن علاقتنا.

رحنا بعد ذلك نمشي في الشوارع بدون هدف ومن غير أن نتنبه، ونتنقل من مكان إلى آخر متناسيين أنّنا متزوّجان. لم أكن أرغب في العودة إلى البيت أبدًا. وطوال الطريق كنت أتخيّل أنّ أيدينا متماسكة. إلاّ أنّنا لم نفعل ذلك.

كانت المرّة الأولى التي وصلت فيها متأخّرة إلى البيت بدون أن أخبر زوجي بأمر تأخّري. اتّفقنا قبل أن نترك واحدنا الآخر، على أن نلتقي في وقت قريب، أو أن نتواصل، لكنّنا تحاشينا اللقاء في الأيّام التالية خالقَين ذرائع كثيرة. مرّات تحجّجتُ بمرض أحد ولديّ وزوجي، ومرّات تذرّع هو بأنّ لديه ارتباطات ضروريّة. والحقيقة أنّه في الاتّصالات الكثيرة التي تمّت بيننا، كان هو من يتهرّب من اللقاء.

كنت متأكّدة من أنّه يحبّني مثلما أحبّه، ولم أشكّ مرّة في ذلك. لكنّي كنت أدرك خوفه من عودة العلاقة مثلما أدرك خوفي، وإن كنت أحيانًا أسأل نفسي ما إذا كان سيعود إليّ للانتقام من زواجي، ولأنّني تخلّيت عنه، بينما هو كان يريدني أن أنتظر. فهو عدا عن أنّه لم يكن قادرًا على القيام بالخطوة، لم يكن يدرك ما إذا كان شعوره تجاهي حبًّا حقيقيًّا، أم حالة نزوة، كما قال لي لاحقًا.

بعد مضيّ أسابيع على تردّدنا، أعطاني عنوان بيت صديق له في منطقة الصنائع في بيروت، يقيم صاحبه في باريس وأعطاه مفتاحه.

عندما ذهبت لملاقاته هناك في المرّة الأولى، رحت أفكّر كيف سيفتح الباب، وأين سأقبّله، وكيف سأغفو على كتفه، وكيف سيترك جسده في حالة التأهّب غير الطبيعيّة.

جلستُ في الصالون حذرة. جسدي منكمش، وعيناي تتلفّتان نحو الجدران، وتتنقّلان في أرجاء الغرفة متحاشية النظر إليه. وحين اقترب منّي وجرّني إلى غرفة النوم، مشيتُ بدون أن أفكّر. لكن ما إن وصلت إلى السرير وجلستُ على حافّته، حتى تحوّلتْ حرارة الشوق إلى صقيع في اليدين، فادّعيت برودة هاتلة برغم حرارة الصيف، متذرّعة بأنّني مريضة، ونفرتُ من أيّ لقاء جنسي، فخرجت من البيت بعد أن وعدتُه بأن أتّصل به قريبًا ومضيت. شعرت وأنا عائدة إلى المنزل كأنّي أبتلع زجاجًا متكسّرًا كلّما بلعت ريقي. كانت لديّ رغبة هائلة في النوم معه، إلاّ أنّني امتنعت، إذ ماذا لو لم أعد قادرة على تركه أبدًا؟ وماذا عن عائلتي؟ وماذا لو كان اللقاء الجنسيّ رغبة مستعادة وانتهى الأمر؟

في الأسبوع التالي بعدما تواعدنا على اللقاء في البيت نفسه، ذهبت بدون أن أرسم مسرحًا للّقاء، متوقّعة أن كلّ ما سيحصل سيكون ارتجاليًّا.

تركت جسمي في حالة انتظار، وخارج أيّ توقّع. كأنّي كنت أهيّئه ليكون مستجيبًا ومتفاعلاً خارج أيّ حذر، وأيّ وسوسة.

عيناه صارتا تقدحان نارًا. كأنّ نذير الشهوة فيهما يشير إلى أنّه

سيأكلني بنظراته. شهوته صارت نافرة وانتفخ ما بين فخذيه، ما إن فتح لي الباب ودخلت.

كانت لقاءات ذلك العام عاصفة.

كنت أخلع ثيابي وأقف عارية طويلاً أمام المرآة قبل أن أذهب لملاقاته. أتفقّد جسمي الذي كان مشدودًا، وبشرته الرخاميّة كما لو أنّي ذاهبة إليه بلا شيء يغطّيني. ففي لقاءاتنا تلك، لفت نظري أنّه لم يكن يرى ماذا أرتدي من ثياب، بل بالكاد كان يرى ثيابي الداخليّة. وكنت أحيانًا أبتسم في المصعد حين أفكّر لِمَ لا أبدأ بخلع ثيابي فيه وأدخل عارية إليه. ما إن أقرع الجرس وأدخل حتى يبدأ بخلع ثيابي عنّي، ثم أفعل مثله، فأمدّ يدي إلى أزرار قميصه وأبدأ بفكّها، في الوقت الذي يمدّ يديه إلى سحّاب تنّورتي أو بنطالي. تتابع يدانا مهمّتهما بانفعال شديد، فلا نعود نعرف مَن ينزع ثياب مَن. وبمجرّد أن نُسقط ثيابنا عن جسدينا، كان يبتعد كلٌّ منّا قليلاً إلى الخلف لنرى بعضنا البعض عاريين قبل أن نتّجه إلى السرير.

كانت المرّة الأولى التي نمارس الجنس فيها بالكامل.

في اللحظة التي سلّمته جسدي، شعرتُ كأنّي أسلّمه سرّي.

دمعي في اليوم الأوّل من استعادة العلاقة، الذي لم يلحظه في العتمة وهو فوقي، لم أعرف إن كان فرحًا باللقاء، أم حزنًا لأنّني سأفارقه ثانية، أم هو الاثنان معًا.

لم أشعر بأنّي أعطيه جسدي، أو أنّه يأخذ منه شيئًا. كنت أشعر بأنّه يعرّفني إليه، كما أعرّفه إلى جسده. حين غطّاني بجسده وقال لي إنّه يرغب في أن يدخلني مدفوعًا بحنين جارف ليعود إلى رحمي، تنهّدتُ تنهيدة عميقة ثم ابتسمت، وشددتُ شعيرات غرّته بفوّة إليّ.

حين راح يحكيني في السرير، كان صوته يصير الحواسّ كلّها وحين يلمسني تصير يده الدنيا بأسرها.

كان صدره حارًّا، كلّما دسست أصابعي في شعيراته القليلة التي لم يكن البياض قد وشّحها بعدُ، وكان يحلقها أيّام الجامعة لتصير أكثر كثافة ويُرضيني. مسامّات جلده كأنّها كانت شبابيك أسمع صوتها وهي تنفتح لتستقبل هواء الحبّ.

أدركتُ حواسّي في تلك اللقاءات، مثلما أدرك أنّ الزهور لا يمكن أن تتفتّح بالصمت أبدًا، وبدون أن يصدر منها صوت.

شعيرات جسمه التي أفترضها دليل رجولة ومؤشّرًا من مؤشّرات الرجال، بدت لي أشبه بسوسنات، أطباقها مزهرة على مساحة جسمه النحيلة، والتي لشدّة نحولها رأيتها مساحة مائيّة تستأنس السوسنات بملمس مياهها، ويصدر لها صوت وهي تغنّي. وفي لحظة من اللحظات، كانت شعيرات جسمه هذه تصير كمنجات صغيرة تعزف لحنًا جميلاً.

موسيقى الحواسّ أدهشتني في تلك اللحظات.

كنت أدرك أنّ الأصابع تقوم بأشياء كثيرة، وتعزف على الآلة

الموسيقيّة أيضًا. لكنّي لم أكن أعلم بأنّها يمكن أن تعزف على الجسم لحنًا جميلاً تسمعه. كنت أعتقد أنّ وظيفة العين أن ترى وقد تحكي أو تصمت، لكنّي لم أعرف مرّة من قبلُ أنّ في إمكانها أن تغنّي ويصدر منها صوت ولحن. وكنت أعتقد أنّ الأذنين تسمعان الحبّ في صوت الشفاه حتى وهي مُطبقة، بينما راحت الأذنان تسمعان كلّ شيء في داخلي من غبطة جسمي وزغرودته.

حدّثني في ذلك اليوم ونحن ممدّدان على السرير، عن رغبته في السكن في رحمي: الرغبة التي طالما أفصح لي عنها. ثم راح يقول لي كلامًا عن رحم المرأة لا أنساه. أخبرني أنّها المكان الفارغ الذي يمارس فيه الرجل فنّ العمارة مصحوبًا بعمل ممتع حين يحبّل المرأة. هي المكان الذي خرج منه الرجل ليعود ويحتلّه بشكل آخر، يخلق له معنىً ووجودًا، ويكون فيه فاعلاً وليس ضعيفًا. وبالعودة إليه، يشعر بأنّه مالكه وصاحب سلطة عليه. الإنسان، يا نهلا، محكومٌ باستعادة التجربة، لكن برغبة دفينة في أن يكون مكان الفعل، لذا، فإنّ الفراغ الذي يتركه في الرحم بعد خروجه منها، هو مشروع له لإعادة تصميمه بالبناء.

حين حدّثني عن إحساسه بالرحم، قلت له كلامًا لا أحكيه مع زوجي، بل لم أحكه إلاّ مع سعاد.

حين حملت بابنتي فاتن نسيت العالم منذ أن أخبرني الطبيب أنّي حامل. والغريب أنّك يا هاني آنذاك غبت عن بالي، وإن لم تغب عن مناماتي. رحمي بدت لي أثناء الفحص النسائي، وأنا أتابع الشاشة أمامي، أشبه بفضاء داخلي كأنّه عالم أنوثتي، وخصوصيّتي

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

الحقيقيّة. كوكب داخلي يا هاني فيه ما يشبه البرق والرعد، وتقلّبات جوّيّة فيه، كما لو أنّ الدنيا ستمطر، فيما ضجيج أمواج تتلاطم، أسمعه على الشاشة أمامي.

رحت أسأل نفسي عن طبيعة هذا الفضاء في داخلي، وما إذا كان سماءً وأنا أرى ما يشبه البقع والتكتّلات الضبابيّة، أم بحرًا وأنا أسمعُ هدير تلك الأمواج. ورحت أفكّر ما إذا كان جنيني مستأنسًا بالصوت الذي يسمعه أم منزعجًا بما أنّ حاسّة السمع هي الأقوى لديه. وتملّكتني يا هاني أحاسيس مركّبة وأنا أفكّر في تلك الدائرة المائيّة المغلقة والمحميّة التي يسبح فيها.

حضنني بعد هذا الحديث، وعاد وقال لي إنّه يرغب في إنجاب طفل منّي.

في ذلك اليوم، طوال الطريق وأنا عائدة إلى البيت، كنت أشعر بأنّي عائدة بلا جسد وبلا روح. لكن في اللحظة التي كنت أدخل فيها المنزل، كان وجهي يعود ليرتدي ملامحه العتيقة والمتناغمة مع ثياب العري التي اعتاد زوجي وولداي عليها. كان القهر يُعيد رسم تلك الابتسامة القنوعة التي كنت أشلحها حين أقابل هاني، وأنستني إيّاها سعادتي به. معه تعود ابتسامة القلب لتحلّ على وجهي، تلك الابتسامة التي كنت قد تغرّبت عنها كما تغرّبت عن ملامحي كلّها وأنا بعيدة عنه.

ابتسامتي التي تصير مشدودة حين ألتقي به، تعود وترتخي في البيت. عيناي اللتان تصيران تقفزان تجاه الخارج وأنا معه تعودان وتغطسان تجاه الداخل. وبدون انتباه منّي، كنت لوهلة أمسح عينيّ

بيديّ كأنّي أتفقّد مكانهما بعدما أشعر بأنّهما غارتا إلى الداخل.

• • •

سعادتي به كانت تغيّر إيقاع جسمي وملامحي كلّها.

وجهه الذي أطبق على بعضه في آخر لقاء بيننا ذلك العام، بقي ماثلاً طويلاً أمام عينيّ.

تفاجأتُ حين قال لي بعد صمت، إنّه تعرّف في الجامعة إلى فتاة لبنانيّة في باريس اسمها سوسن احتضنته هي وأهلها، ووقفوا إلى جانبه، ويفكّر في أن يتزوّج بها.

الخبر جاءني كالصاعقة على رأسي. السؤال التمع في عينيّ قبل أن ينطق به لساني:

ـ طيّب ما دام هيك، شو كان بدّك فيّي، ولشو رجّعت العلاقة بيناتنا؟ ما عم بفهم شو اللّي عم بيصير يا هاني...

قلت ذلك، ولم أستطع أن أكمل ما أردت البوح به، بعد أن غصصت بالدمع. بل لم أعرف ما أقول، فإذ به يجيبني:

ـ يا نهلا، لنكون واقعيّين، إنت مجوّزي. والبنت طيّبة وآدميّة وحابيها، وبفتكر بقدر عيش معها.

ـ إذا على الأودمة، كمان جوزي آدمي ومنيح معي ومع أهلي، وإلُه مكان عندي. وبهالمعنى بحبُّه وما بكرهُه. بسّ إنت شي تاني، ما بقدر إتخيّل إذا تجوّزت إقدر كفّي معك. ما فيّي إتحمّل الفكرة، بجنّ. على كل حال، إذا بتحبّك عشرة بالميّة من محبّتي إلك بتكون إمّك داعيتلك بليلة القدر. بتعرف يا هاني، إمّك ما بتحبّك قد ما

بحبّك. بسّ إذا إنتَ حابيها شي بيرجع إلك.

ـ أنا صحيح حابيبها، بسّ إنتِ حلمي وحياتي. وهيدا شي بتعرفيه. بدّك تاخدي قرار جنوبي وتقلبي حياتك، فيكي تتركي جوزك وولادك وتجي معي؟ فكّري بالموضوع وأنا حاضر. وإذا لأ، إنتِ تاني مرّة بتكوني عم تتخلّي عنّي.

نزلت الجملة الأخيرة على قلبي كالسكّين. لم أعد أستطيع أن أسمع المزيد. تركت ذلك البيت، وصعدت إلى أوّل سرفيس التقيت به، لفظت بالكاد عنوان بيتي للسائق. فصوتي كان مخنوقًا.

ما إن انطلقت السيّارة حتى انفجرت بالبكاء. لم أستطع أن أقمع دموعي. صارت تنسكب على وجنتيّ مثل نهر من الماء المالح، بلا توقّف. هالني الأمر. حسبت أنّ مجرى دموعي قد تفجّر، ولن يتوقّف الدمع إلاّ حين يتوقّف نبعه ويُصاب بالنشفان. وندّت عن كلّ تلك الدموع تنهيدة سمعها السائق الذي كان يتأمّلني من المرآة، فقال لي:

ـ يا ستّ، دخيلك شو فيّي إعملّك؟ ديعان هالعيون الحلوين يبكوا هلقدّ. حرقتيلي صميم قلبي من جوّا.

ـ «عندك ولاد؟ وبتعرف كيف بيكسّروا الراس»، أجبته وأنا أبكي.

قال لي إنّ لديه خمسة أولاد، لكنّه لم يتحدّث عنهم.

راح يشكو لي عن عذابه مع زوجته وهو يسترق النظر إليّ في المرآة:

ـ شو بدّي قلّك يا ستّ. آخ، آخ. عندي مرا ما بتخلّيني قرّب عليها، وعطول بتشتكي إنّها مريضة بسّ نفوت على التخت. يعني ما بدوق شي من اللّي إنتِ عارفتيه واللي بعلمك منّه، مرّة بالسنة. يعني شمّ ولا تدوق، حتى لمّن بقرّب عليها، العما بقلبها، قولي خشبة ويابسة.

لم أعد أسمع نهائيًا ما أكمل السائق. صوته راح يتلاشى في أذنيّ وأنا أسمع صوت أفكاري.

أدركت تمامًا أنّي سأقطع نهائيًا علاقتي به، إذ كيف سأترك ولديّ. وهل أستطيع أن آخذ قرارًا كهذا؟

ذاكرتي تحفظ كلّ لحظة تكبر فيها فاتن وأحمد، فكيف سيكبران أكثر بلا عينيّ؟ وهل سيبقى لي زندان بدون أن ينام أحمد على واحد، وتغفو فاتن على الآخر، كما لو أنّهما أشبه بحلمين ينامان فوق ذراعيّ. وما الذي سيحلّ بذراعيّ هذين بدونهما؟ ذراعاي اللذان ما عادا يتعانقان بعدما كبرا ورحلا عنهما، وبعدما كبرتُ أيضًا وصرتُ أنام منفردة نومًا أراحني من رائحة زوجي، ومن تفاصيله المقزّزة كلّها.

كيف سأعيش بدون رائحة طفولتهما؟

في السيّارة تخيّلت الخطوة الأولى عندما مشت ابنتي، حيث أدركت وقتها معنى الخوف الحقيقي. كنت أشعر وأنا أراقبها، بأنّي أمسكها بعينيّ، كما لو أنّ نظراتي إليها أشبه بمساند تسندها لتمشي خطواتها الأولى بدون أن تتعثّر.

تخيّلت نفسي كيف كنت أحصي أنفاس كلّ منهما قبل أن يناما لأتأكّد من أنّ صحّتهما جيّدة. أحصي عدد أنفاسهما وهما نائمان، لأعرف ما إذا زادت أو نقصت، لأطمئنّ إلى أنّهما بخير.

وإذا سمحت لنفسي بأن أنسى هذا كلّه، فكيف أنسى الحلم الذي أخبرتني إيّاه ابني الأسبوع الفائت عندما نهض من النوم وركض إليّ محتميًا بحضني، بدون أن يكفّ عن البكاء لوقت طويل؟ وحين سألته عن سبب بكائه، نهنهات طويلة كانت جوابه إلى أن هدأ، وقال لي:

ـ يا ماما لا تروحي وأوعي تموتي. أنا بخاف ضلّ لحالي، كيف بدّي ضلّ عيش لحالي بلاكي؟

أُصبت ببهتان، قبل أن أسأله بحماسة: وليش يا ماما عم تحكي هيك؟

أخبرني أنّه رآني في المنام شمعة تذوب وانطفأت. وحين حاول أن يمسك بالشمعة، لم يجد شيئًا. حمل يديه الفارغتين، وصار يدور في البيت ليفتّش عنّي. كلّ ما رآه ليس سوى منام، فلم يجدني.

قال ذلك بدون أن يتابع كلامه وانفجر بالبكاء مجدّدًا.

ابني الذي صار الآن رجلاً متزوّجًا، تصوّرته آنذاك متوحّدًا حزينًا. أحسست يومها بأنّه، بفقداني، سيشعر هو وأخته بأنّهما فقيران وضعيفان... وبلا حماية.

إزاء تلك المشاعر شعرت بأنّ ثمّة حبالاً طريّة قويّة تربطني بولديّ، لكنّها أقوى من حبال الحبّ. حبال في منتهى النعومة،

لكنّها أصلب من الحديد، فكيف لي أن أفكّ عراها؟

وكلّما كنت أذهب في قراري إلى أنّني لن أراه أبدًا، كان بكائي يزداد في السيّارة، لكن في الوقت ذاته كنت أتمنّى أن تعود دواليب السيّارة إلى الوراء، إلى حيث تركت هاني. وقلت لنفسي آنذاك بينما كانت السيّارة تمضي: ماذا لو كان قلب الواحد بوصلة سيره؟

حين ترجّلت من السيّارة، صرخ بي السائق: يا إختي، وين إجرتي؟

عدت وأعطيته أجرته. صعدتُ إلى البيت وأنا أتخيّل مشهد هاني حين لم يعد في مقدوره الإنصات إليّ وأنا أقول له إنّ علينا أن نترك بعضنا البعض. لكنّي حين مشيت تذكّر ذلك الجبل الذي شاهده وهو صغير، حين كان يومًا برفقة أبيه. كان الوقت مساءً والشتاء عاصفًا، وكان صوت الريح يشبه زعيق مارد. يومها تأمّل الجبل المقابل لقريتهم، وهو يمسك بيد والده، وسأل نفسه بخوف ما إذا كانت العاصفة قادرة على أن تجعل الجبل يهرّ. وفي تلك الليلة رأى في منامه أنّ الجبل تصدّع، وأنّ جزءًا منه قد انهار. اقترب من الجبل ووضع إصبعه على حجر صخري فيه، فشعر بالكتلة تتحوّل إلى فتات. في تلك اللحظة، راوده الشعور ذاته، والخوف ذاته أمامي. ابتسم ابتسامة ساخرة وحزينة حين مشيت، وقال بينه وبين نفسه إنّ خوفه آنذاك كان خوف طفل. فيا الله، كيف تتحقّق مخاوفي الطفوليّة الآن. الخوف الذي يجعله يتصوّر أنّ الجبل يهرّ، يتملّكه الآن في هذه اللحظة. الفرق الآن أنّه محلّ الجبل.

... هذا ما قاله لي لاحقًا.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ـ ٨ ـ

كنت أقرأ لسعاد كلّ ما أكتبه، وكانت نظراتها غامضة ومليئة بالأسرار وهي تسمعني. أنظر إلى عينيها اللتين صارتا ناشفتين بلا حركة أو ضوء، والأشبه بحفرتين صغيرتين فارغتين تطلّ منهما نظرات يابسة، وأسأل نفسي لماذا تنظر إليّ نظرات غريبة وأنا أقرأ لها؟ هل تخفي سعاد يا ترى رغبة في الكتابة، أم أنّها فعلاً تكتب ولا تريد أن تعترف لي؟ وما الذي تكتبه سرًّا، ولا تريدني أن أقرأه؟ هل تدوّن كلّ ما أرويه لها، أم ما تُخفيه من أسرار بعدما صار الصمت ملاذها الأخير، أم أنّه يُخيّل إليّ أنّها تكتب بعدما تحوّلت إلى آذان مصغية إليّ؟ أين ذهب ذلك الجمال كلّه، الذي كان يشعّ في وجهها أيّام الجامعة؟

لست أدري ما الذي أصابها، وما الذي فعله بها زوجها. ما أستغربه هو هذه الطاعة لزوجها الذي محا جسدها ووجودها. طاعة أستغربها من أستاذة جامعيّة مُفترض أن تتصالح مع حالها، وليس أن تكون ضدّها.

هي دائمًا اشتكت إليّ كيف كان يدلّعها أوّل زواجهما، بينما الآن لا يقول لها سوى «العما بقلبك»، و«قومي من وجّي، تحرّكي»!

أنا أعرف أن طاعتها لي أيضًا عمياء. عزيزة ونادين وهدى يسخرن منها دائمًا بسبب ذلك. هي دائمًا تلوّن علاقتي بها بكلّ الألوان، في الحقيقة ثمّة لون واحد للحياة بيننا. لكنّي أعترف بأنّها غالية جدًّا في حياتي. وحتى عندما أفكّر في الطبخ. لا أختار ما أحبّه أنا أو زوجي أو ولداي، بل أفكّر في ما تحبّه أوّلاً. وأكثر ما أطبخ الملوخيّة ولبن أمّه لأنّها تعشقهما.

جاءتني مرّة قبل ظهر ذات يوم تحمل كيسًا كبيرًا في يدها، ووجهها النحيل لا يتّسع لابتسامتها التي فاضت عنه. سألتها ماذا تحمل، فلم ترد، وسلّمت على عزيزة التي زارتني يومذاك وجلست تخبرني عن علاقاتها بالرجال وتضحك، فراحت سعاد تستمع إليها معي، وهي تقول:

ـ لا، لا، لا... أنا بعد إضهر مع عجايز كرمال المصاري، طلعو من عيوني الختياريّة. ولك حتى إذا الواحد منن تاعُه مش حلو ما عاد بدّي اياه. بحتال على الرجال اللي نمت معن آخر فترة لشوف الواحد منن بالزلط، حتى شوف عضوه كيف هو. يعني بستدرجه ليشلح ثيابه ويوقف هوّي وعاري. وإذا شكله مش حلو بقطع له كرت. وأكثر شي بثيرني العضو اللي بكون مستقيم وبيطلع لفوق لحظة الانتصاب. مبارح كان عاجبني شبّ كتير، وكنت مهيّجة بسّ، لمن شفت تاعُه رفيع ومثل زنبوعة البريق الرفيعة، وشكله مش متناسق مع جسمه، خلص ما عاد بدّي اياه.

انقلبتُ على ظهري من الضحك، بينما وجه سعاد اكفهرّ مثل سماء ملبّدة بالغيوم، ليس خجلاً ولا اعتراضًا، بل لأنّ الفراغ ينتشر

في ضلوعها في الليل في السرير، تخبو الشهوة عندها وتتحوّل إلى مومياءات تحت جلدها المتبقّع.

ما إن خرجت عزيزة بعدما شربنا القهوة وأفرغت ما في صدرها من أخبار، عادت الابتسامة إلى وجه سعاد مُنذرة بخبر سعيد وهي تعطيني الكيس الذي تحمله لأفتحه، محدّقة في عينيّ لترى ردّ فعلي.

فتحت الكيس، فإذا به ظرف بنّي مغلق يتضمّن رواية «الحبّ في زمن الكوليرا» لماركيز. أمسكته بيدي، ورحت أقلّب صفحاته. فتفاجأت برسالة كتبها لي هاني على الصفحات الثلاث الأولى الفارغة إلاّ من اسم الكتاب في وسط إحداها. راحت يداي ترتجفان قبل أن أقرأها. فما الذي سيقوله لي هاني بعد هذا الانقطاع الطويل لعلاقتنا:

حبيبتي نهلا،

لقد انتهيت للتوّ من قراءة الرواية، ووجدت نفسي مدفوعًا إلى كتابة هذه الرسالة إليك بدون تفكير منّي. فالرواية أعادت الأمل إليّ، لنبحر معًا يومًا ما في باخرة الحبّ التي أنتظر وصولها يومًا. وبالتأكيد ستصل. أنت حلم شبابي، وبقيتِ حلم كلّ الأيّام الآتية. أردتك أمس، وأريدك الآن ودائمًا. أنت طوق نجاتي، ويداك شبكة أمان حياتي، تلك الشبكة التي يضعونها تحت الحبل في السيرك. أنا لم أرتوِ منك، وأعرف أنّني لن أرتوي أبدًا، فأنت مائي وعطشي، أنت شبعي وجوعي الدائم، وستبقين بحري وسفينتي في

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

هذا الزمن وكلّ الأزمان. أريدك، قبل قراءة الرواية، وبعدها. أريد أكثر ما يمكن منك، من جسدك وروحك، لأنّك جسدي وروحي. وأريد أكثر ما يمكن من انبثاق الفجر الذي يكوّن ابتسامتك، يا فجري وابتسامتي. أريدك كاملة، بلا أيّ نقصان، بل أطمع في سنواتك التي مضت، وتلك الآتية. أريد أن أكرّر رغبتي القديمة الدائمة أبدًا في السكن في رحمك، لأعود إليّ وإلى الحياة. يا شهوتي، ويا من أشتهي كلّ شيء فيك يا من اكتشفت معك وحدك هذا الذي اسمه الغرام. أريد أن أذوب في شفتيك، وفي نعومة باطن فخذيك الممتلئتين. أريد أن أختفي في شبق صوتك وصمتك وكلماتك، وفي لون بشرتك الرخامي الأملس والناعم. وفي ارتعاشة قبلتك. أريد أن أنام في نعاس شفتيك ويقظة هضبتَيْ حلمتيك. حناني لك عارم ومحسوس وعميق وطافح، ويملأ قلبي. أنا أحسد نفسي لأنّني التقيت بك ذات يوم، وسأحسدها أكثر مع وصول باخرة الحبّ التي ستأتي وتقلّنا. وكم أنا خائف ومرتعب من أن أضيّعك ثانية حين تصل ولا تجدنا في انتظارها...

وقال لي في آخر الرسالة إنّنا سنلتقي حتمًا، وإنّه بالتأكيد سيأخذني بالباخرة، لكن في زمن ليس فيه كوليرا، بل نبحر معًا في زمن كلّه فرح دائم.

كان ذلك بعدما انتهت الحرب الأهليّة أوائل التسعينيّات، حيث كان هاني قد عاد من باريس قبل ذلك ليدرّس في الجامعة مادّة علم الاجتماع.

لم أكن قد قرأت الرواية بعد، قبل أن يرسلها إليّ. رحت أتعرّق

في ذلك اليوم الشتائي القارس وأنا أقرأ كلمات رسالته المحمومة والملهوفة. ألهبت مشاعري التي لم تخبُ أصلاً، بينما سعاد تمحلس بحنان على قطّتي المستأنسة بجلوسها في حضنها.

لم يكن زوجي في البيت، فعدت وقرأت الرسالة لسعاد التي قامت من مكانها وأعطتني محرمة ورقيّة بحركة مبالغ فيها لأمسح أنفي الذي تورّم من البكاء بعدما انتهيتُ من قراءتها.

عادت دموعي وهطلت في الوقت الذي يبتسم فيه وجهي وأنا أقرأ الرواية. فأنا أصلاً مشغوفة بالبواخر، حيث الأزرق تحتها والأزرق فوقها. وأكثر ثيابي من اللون الأزرق الذي أعشقه. وأوّل فستان رآني فيه هاني كان لونه أزرق. ودائمًا الباخرة مرتبطة في ذهني بالحبّ، ويُخيّل إليّ أنّ قصصه التي تحدّث فيها تصير أبديّة، تحملها الباخرة ذهابًا وإيابًا، وإن نزل منها أبطالها.

عندما انتهيتُ من قراءة الرواية، عدت وقرأت رسائل البطل التي كان يرسلها إلى البطلة، وأعدتُ قراءة بعض المقاطع، كما لو أنّي أحاول أن أمسك بكلّ الأشياء التي تتكلّم عنّي وعن هاني. فكّرتُ كم أحتاج من السنوات لأصير في عمر البطلة، وسألت هل من المعقول أن أنتظر هذا الوقت كلّه لنطلع على الباخرة ونروح نُبحر إلى الأبد؟

أغمضتُ عينيّ بعدما أغمضت الرؤية ورأيت نفسي أنا وهاني في الباخرة، فأحسست بهناء وغبطة بعد أن قطعت جميع القيود والحبال، ولم أعد أحسّ إلاّ بوجودي أنا وهاني على الباخرة.

استعدتُ زخم مشاعري بعد قراءة الرواية، وتولّد لديّ شعور

يقينيّ بأنّي سأستردّه، وخُيّل إليّ أنّ التفاصيل والحكي في الرواية كأنّها استشراف لمستقبلي. أحسست بانفراج، واستعدتُ نضارتي، وعاد إليّ بريق عينيّ في المرآة.

منذ أن عاد هاني من باريس، كنت أهرب من الأمكنة التي قد تجمعنا، وأعتبر أن الأمر غير أخلاقي. ثم إنّ تجنّبي الأماكن التي قد يوجد فيها، كان خوفًا أو تفاديًا لأيّ ارتباك أو ضعف، لأنّ قراري بقطع العلاقة كان أشبه بعقد أبرمته مع نفسي.

عندما كنتُ قد التقيتُ به صدفة الصيف الماضي في مقهى الروضة، شعرت بأنّي في مكان آخر يشبه الجنّة. تمنّيتُ أن تأتي اللحظة التي يتحقّق فيها شعوري هذا. وفي الأجزاء الثانية عينها، شعرت بأنّه أمسك الممحاة، وبدأ يمحو نفسه، وافترضتُ أنّي ما عدت أحبّه.

تجاذبتني القرارات ملايين المرّات كلّما حاول الاتّصال بي، عندما كان يعود كلّ صيف إلى بيروت، إلاّ أنّي لم أكن أتجاوب. لكن، كان من المستحيل أن أعدم وجوده، فهو موجود في داخلي، ولا ينفصل عن جسمي.

سألتُ سعاد كثيرًا، ماذا كنت لأفعل لو لم يعد موجودًا؟

سؤال بدا غريبًا، علمًا بأنّه تكرّر ملايين المرّات.

طرحته في الماضيين البعيد والقريب، والآن، وفي ذلك اليوم أيضًا الذي جاءتني فيه بالرسالة.

الغرابة أنّي كنت أسأل احتمال عدم وجوده، وكنت آنذاك على يقين بأنّني غادرت هذا الاحتمال.

لكأنّه كان غير موجود حقًّا لسنوات عدّة.

هل كنت أعدم وجوده في تلك الأعوام، حين كنت أسأل سعاد ما سأفعل في وحدتي التي تمنّيتها كثيرًا، لأعيش وحيدة حرّة بعيدة عنه مع زوجي وولديّ؟

كنت طوال تلك السنين عارية من كلّ تاريخ ذاكرتي التي جمّلتها به دومًا. لكنّ الحقيقة أنّني لم أكن أفكّر في وجودي خارج وجوده، ولا في حياتي خارج حياته. جعلته بالقوّة شبّاكَ الحياة. لم يكن شبّاكًا، إنّه كان كلّ الحياة أحيانًا.

لكنّني لم أكن أُدرك آنذاك أنّي ما زلت أحبّه، إلاّ حين قلت لسعاد منذ فترة، إنّنا بقدر ما نحبّ الحياة نخترع لها عالمًا آخر لنعيشها ثانية. وسألتها ما إذا كانت الجنّة أو النار مجازين، ونعيشهما في الحياة، قبل أن أسألها أيضًا:

ـ قولك يا سعاد، إذا متّ يبطّل حبُّه لهاني؟

ابتسمت سعاد وقالت لي حينها:

ـ موتي يا أختي، جرّبي لنشوف!

غيّرتُ بعد ذلك الموضوع، ورحت أحكي لها عن مدى تغيّر نادين، وعن جنونها وضياعها بين ميرنا والدكتورة سحر.

بعدما قرأت الرواية، صرت أروح وأجيء في البيت، تتقاذفني

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

المشاعر بين الاتّصال به على رقمه الخاصّ الذي دوّنه على الصفحة الأخيرة من الرواية، وبين عدم الاتّصال. وبعد حالة من الخدر أصابتني من شدّة توتّري، وجدتُ نفسي مدفوعة إلى طلب رقمه، واتّفقنا على اللقاء في اليوم التالي في أحد مقاهي بيروت المنعزلة.

لم أعرف كيف انبثقَ الفجر وأشرقت الشمس. شعرتُ طوال الليل بأنّ العتمة ليست سوى جدار عازل بيني وبينه، ووددت لو أهدمه وأزيله لأراه ويراني.

لم أدرِ لماذا كان طيف ماركيز يلاحقني وأنا خارجة للقائه في اليوم التالي بعدما جهّزت نفسي. ووجدت روحي وأنا جالسة خلف مقود سيّارتي أقول في داخلي: آه يا ماركيز، أنت بشّرتني باستعادة الحبّ، بسّ يا لطيف شو قصّرت عن وصف التفاصيل. ما كان بإمكانك تحكي عن التفاصيل لأنّه عيوني بيختلفو عن عيونك، وجسمي بيقرا غير ما بيقرا جسمك، والحبّ وحده اللي بيحسن القراءة.

عندما دخلت ورأيته في المقهى، زال ذلك الإحساس الذي رافقني وأنا ذاهبة إليه، بأنّي كبرت في السنّ، برغم أنّي كنت لا أزال في أواخر الثلاثينيّات، ومحافظة على شكلي وجمالي وشبابي. غريب الإحساس بالعمر، ليس له منطق أو أساس. أذكر عندما بلغت الثامنة عشرة شعرت بأنّي أصبحت هرمة وعجوزًا. الآن أضحك على نفسي كلّما تذكّرت ذلك. والذين كانوا في سنّ الأربعين أو الخمسين كنت أعتبرهم مسنّين وأستغرب كيف يقول عنهم الكبار إنّهم شباب. الآن، أرى إليهم كذلك. كأنّ الإحساس

بالشباب نحمله معنا من عمر إلى آخر، ونؤجّل عمر الشيخوخة كلّما كبرنا حتى لا نصل إليه. والغريب أيضًا أنّه عندما قطعتني الدورة ودخلت في سنّ الأياس، تضاعف إحساسي بالقوّة، كأنّ امرأة غيري في داخلي أطلّت منّي، لم أكن أعرفها سابقًا، ولم يلمسها لا إنس ولا جنّ قبلاً، امرأة نظيفة مختلفة صرتُ أعرفها وتعرفني، وتصالحت معها، كما تصالحت مع نفسي وجسدي في كلّ أعماري، لكنّها مختلفة عن تلك التي كانت تتغيّر أثناء الدورة، كلّ شهر وربّما كلّ أسبوع، بفضل الهورمونات، ولا شأن لي بها. عندما قلت ذلك لصديقاتي وأنا جالسة معهنّ في مقهى الروضة ذات يوم، اضطربت وجوههنّ. هدى راحت تحكي عن غزارة دورتها الشهريّة، وكيف أنها تضع فوطًا صحّيّة دائمًا في حقيبتها احتياطًا أثناء الدورة، لتذكّرنا بأنها أصغر سنًّا منّا، وتتباهى بأنّ الدورة ما زالت تأتيها. وصديقتها في آخر الستّينيّات من العمر، كانت جالسة معنا، راحت تقول إنّها ستقطعها، وإنّ هبّات ساخنة تُصيبها وهي تهوّي بيديها على وجهها، برغم أنّها أجرت عمليّة استئصال لرحمها منذ أكثر من عشرين سنة.

هاني وحده من اكتشفني في كلّ أعماري، وعرّفني على حالي.

ما إن جلستُ قبالته إلى الطاولة، حتى غطّيت وجهي وعنقي بيديّ، كما لو أنّني طفلة صغيرة، خوفًا من أن يراني أصبحت أكبر سنًّا. ثم زاغت عيناي بعدما حاولت أن أهرب بنظراتي بعيدًا عن عينيه. بعد ذلك نهرت نفسي لأثبت، وأنا أقول في سرّي: خلص،

خلصنا. ثم للحظة سمعت العصافير تزغرد في قلبي. انفرج وجهي على أنغام صوت العصافير تلك، بعدما رأيت نظراته إليّ وابتسامته الجميلة التي يقتصد بها عادة. نظرات الطفل الآمنة والمطمئنة حين كان يبتسم لي، لكنّها تصير نظرات مغمّسة بالشقاوة والشيطنة حين يحدّق بي بشهوة.

حدّقتُ أيضًا في وجهه، ثم وقعنا في صمت للحظات، بدت في خلالها الحيرة وأمارات الارتباك في وجهينا. الطريقة التي رحنا فيها نتبادل النظرات إلى بعضنا البعض، كانت تكشف أنّ كلّ واحد منّا بدا كأنّه يفتّش في وجه الآخر عن وجهه السابق.

كان يرتدي جاكيتًا قياسها بدا أكبر من قياسه، ربّما لتبدو كتفاه أكثر عرضًا. أنفه الفرعوني كأنّه فقد قليلاً من انتصابه القديم، وبدا منحنيًا قليلاً. «الحساسين» الثلاث في رقبته ما زالت كما هي، وكذلك عروق عنقه، إلاّ أنّ احمرارها زاد. يداه بقيتا محافظتين على جمالهما برغم نفور عروقهما قليلاً، لكنّهما صارتا أكثر امتلاءً وعرضًا برغم أنّه بدا فاقدًا من وزنه وأكثر نحولاً.

تطلّعتُ إلى يديه اللتين طالما عنتا لي كثيرًا، وعشقتهما عشقًا مميّزًا، وودتُ أن أمدّ يدي وأحضنهما، أسترجع لمسة يديه القديمة، وأستردّ ذاكرة اللمس التي أودعتها فيهما، إذ بعدهما لم أشعر بدفء يومًا.

اشتهيت أن أستفقده بيدي، مثلما رحت أستفقده بعيني، كأنّ ذاكرة حواسّي معه حضرت لحظتها في هاتين الحاسّتين.

جبينه صار أكثر عرضًا، أصبح بارزًا ومنتفخًا قليلاً بعدما خفّ

حجم شعره. نحوله وعظام كوعيه النافرة راحت تذكّرني برقّته، وحرّكت حناني ومشاعر الرقّة تجاهه.

شكله كان ضدّ توقّعاتي، إذ افترضتُ أنّه صار أكثر سمنة ومنتفخ البطن ومكرشًا مثل زوجي. تجاعيد رقيقة حول عينيه. لكنّ وجهه لم يكن قد امتلأ بالغضون والتجاعيد كما اليوم.

حين ابتسمتُ في وجهه، سألني عن السبب، فقلت له:

ـ عم بتسم، لأنُّه لقيتك متل ما تصوّرت. شفتك متل ما توقّعت شوفك. هيك تخيّلتك.

حملتني نظراته قبل أن يجيبني، فسَرت كهرباء في جسدي. انخبطتُ، وفقدتُ الإحساس بالزمن، ولم أستعد تركيزي إلاّ حين سمعته يقول لي:

ـ يا الله، ما نسيت وجّك يا نهلا، ودايمًا بطلّع بصورك. بسّ صرتِ أكبر شويّ.

ـ إيه أكيد كبرت، وإنتَ كمان كبرت. بسّ إنتو الرجال ما بتشوفوا إنُّه كبرتوا، صحّ؟ بتعرف أحيانًا بسّ كنت حسّ إنُّه ملامحك عم بتّوه عنّي، بحسّ إنّي بلا عيون.

ـ صحيح يا نهلا؟ على كلّ حال، صحيح كبرتِ شويّ، بسّ صرتِ أحلى. وبعدني بشوفك البنت الحلوة الشقيّة. وهول الضوّين بعيونك شو عملوا فيّ.

بدا صوته وهو يحدّثني كأنّه يختزن نبرة الحبّ. لم تكن نبرة عتيقة ولا رطبة ولا صدأ فيها، بل ساخنة وحارّة.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

تحدّثنا في ذلك اليوم، وحكينا وضحكنا كثيرًا، كأنّه لم يكن بيننا انقطاع دام لأكثر من عشر سنوات، بل كنّا كأنّنا نتابع حديثًا بدأناه بالأمس.

حين غادرني، شعرت بالإحساس ذاته حين كان يغادرني من زمان. كنت أحسّ بأنّه يجمع الكلام ويضعه في صرّة يترك ربطتها مفتوحة، وعندما أفكّر فيه تطلع منها الكلمات لوحدها وتدخل أذنيّ، تغزوني. يفعل ذلك حتى يبقى موجودًا ومهيمنًا عليّ. وعندما كنت أراه ثانية، كنت أقول له: يا لئيم، على طول بتعرف كيف تحاصرني. بتروح كأنّك ما رحت.

كانت علاقتنا في أوائل أربعينيّات عمرينا أجمل من الجمال ذاته. نادين وعزيزة وهدى وكلّ صديقاتي كنّ يتغزّلنّ بي ويُسمعنني أنّ العاشقات يصرنّ أكثر جمالاً، لعلّني أضعف أمامهنّ وأعترف لهنّ باستعادة العلاقة.

في كلّ مرّة كنّا نلتقي فيها، كنت أحسب أنّ العالم وُجد في تلك اللحظة ليجمعنا، وكنت أتمنّى أن يصير الزمن عندها واقفًا إلى الأبد في صورة فوتوغرافيّة لنا معًا.

• • •

في أوّل لقاء جسدي استعدناه، اكتشفت أنّ جسدينا ليسا غريبين أحدهما عن الآخر، بل بالعكس، اكتشفت كم أنّ جسد كلّ منّا ساكن في الآخر. عادت رائحته لتولّد فيّ أحاسيس عميقة جديدة. لمساته كانت تعبر ظهري، تنبّه أحاسيسي وتزيل العكر عن روحي وبشرتي. صوته الدافئ واللذيذ مثل المخدّر راح ينقلني من حالة

إلى حالة، ولا أعرف إلى أين يأخذني في السرير.

علاقتنا صارت حرّة أكثر، ربّما لأنّنا أدركنا مشاعرنا وحواسّنا أكثر، كأنّ صفحات كتاب الحبّ بيننا كتبناها معًا، كلمة كلمة، وحرفًا بحرف.

صوتي ملأ السرير أيضًا، كما لم يملأه يومًا. أحسست به أشبه ببخار ساخن يتصاعد من فمي وأنفي وأنا أحكي طوال الوقت. برغم أنّني في البداية رحت أتنفّس وفمي مغلق وأنا تحته، عاجزة عن أن أبلع أنفاسي التي تتكاثر في صدري وتعلو وتهبط بي. سكوتي شغل باله، فأحاطني بيديه وشدّ عليّ بحنان. وهو يسألني ما بي. صمتي أخافه، جعله يعتقد أنّي ربّما أفكّر في زوجي، أو في أحد غيره، أو أنّني ذهبت بعيدًا في تخيّلات لا دخل له بها. ثم إنّ هاني لا يحبّني أن أسكت. يستأنس بأن يلامس صوتي جسمه، أن يقوده إلى الإثارة، أن يكون مرشدًا إلى أماكنها فيه. فمي ويداي أيضًا كانت أشبه بالدليل. أقبّله، وأضع يدي أينما يطلب، وهو يفعل ذلك. بل أطلب المزيد وأقول له «بعد بدّي»، بدون أن أستحي منه، إذ أنا أدرك عندما أملك جسدي أملك جسده. وفي عناقنا وتوحّد جسدينا، شعرت بأنّ خصري، يديّ وعنقي، بل كل أعضاء جسدينا أشبه بحروف تدور وتلتفّ وتتوجّع وتشتاق وتتلهّف لتلتصق وتتداخل ببعضها البعض، وأن رحمي ليست سوى حرف نون يفتح يديه لاستقباله.

الكلام لم يتوقّف بعد الجنس. ومرّة سألني وهو يحتضنني ورأسي على كتفه:

ـ بتعرفي يا نهلا، كم اسم في بالتراث العربي لعضو الرجل؟

ـ «لا، ما بعرف»، أجبته.

ـ ميّة وعشرين اسم، على قدّ صفاته وأفعاله. تصوّري؟

ـ أوف، يا لطيف! على كلّ حال يا أستاذ، ما الحياة بتجي منّه. بسّ مش معقول العرب شو مجّدوا الجنس.

ـ وأسماء عضو المرا كمان كتيرة. بس بتعرفي، أكثر شي بخوّفني «العضّاض» اللّي بعضّ على عضو الرجل. هيدا بضلّ مرعوب منه، مش بسّ أنا، كلّ الرجال.

ـ إيه، وشو بيقولوا كمان الفقهاء الرجال يا أستاذ؟

ـ بيقولوا يا ستّنا، إنّه المرا عندها ٩٩ مكان للرغبة بجسمها، بسّ ما بذكر المرجع. وبيقولوا إنّه الحياء بيمنعها من إنّه تدلّ الرجّال عليها، أو تعلن عنها.

ـ ليش إنتِ مفكّر إنّه المرا عنّا بتعرف جسما لتدلّ الرجّال عليه بالأوّل. ولاّ الرجّال عم بخلّيها تكتشفه. كبّر عقلك. ياما نسوان بيصير عندن عشر ولاد وبعيشوا وبيصير عمرن تمانين وما بيعرفوا اللذّة.

ـ على كلّ حال، الرجّال بس يعشق مرا ما بشوف ٩٩ مكان للرغبة، ضفر إجرها ساعتها بيتهيّج عليه.

استعدنا العلاقة لمدّة سنة. أخفيت الموضوع عن صديقاتي

وقتها. وحدها سعاد كنت أحكي لها كلّ شيء، حتى ما نفعله في السرير، إلى أن جاءتني ذلك اليوم صديقة قديمة اسمها مهى عادت حديثًا من السفر، حيث كانت تشارك في مؤتمر في إحدى الدول الأوروبيّة، وأخبرتني أنّها أقامت مع هاني علاقة منذ شهرين بعدما تملّكتها رغبة شديدة تجاهه. كانت عيناها تزدادان اتّساعًا وهي تحكي لي بالتفاصيل كيف نامت معه. ومهى هذه متخصّصة في الفلسفة وزميلة سعاد في الجامعة، وتشارك كثيرًا كباحثة في المؤتمرات في الخارج. هي سمراء شبقة، عيناها بنّيّتان واسعتان، وأنفها الحادّ الصغير يشبه أنف القطط، ولها رائحة لا حلوة ولا كريهة أو دبقة، بل حادّة وتعلق في الأنف.

والغريب أنّها حدّثتني عن علاقتها به وهي تضحك في وجهي.

لم أصدّق ما قالته، فسألتها بطريقة عصبيّة حادّة ومجنونة:

ـ مع مين يا كلبة؟

ـ عم قلّك مع هاني، شو فيها؟ ما إنتِ قاطعة علاقتك فيه.

ـ بسّ أنا بعدني بحبُّه وإنتِ صديقتي. وهيدا شي مخبّرتك ايّاه.

ـ إذا بتحبّيه، يعني خلص بتصادريه، حتى وهوي مجوّز؟

بكيتُ بمرارة بعدما طردتها من بيتي، ورحت أضرب وجهي بيديّ بدون وعي منّي.

سعاد حاولت أن تهدّئني، فقالت لي: بسّ، شو بدّك بهالحكي، هي مرا لعوب، ويقصف عمرها شو حلوي وشو سكسي.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

لم أترك فرصة لهاني للإجابة، حين واجهته في اليوم التالي بعلاقته بها. كان كلامي مثلَ الرشق، بينما هو يحاول أن يقاطعني ويقول لي:

ـ طيّب هيّ شلحت ثيابها، وكانت نزوة وغلطة.

ـ ليش ما خبّرتني، أنا كلّ نزواتي خبّرتك ايّاها. ولو ما ضلّ شي منها ببالك كنت خبّرتني، وأكيد ضلّ حتى ما حكيت لي. ولو نزوة ما تكرّرت. وكمان قلتلك مرّة إنّه هاي المرا بتحبّ تغوي كلّ حدا بعرفه، حتى حاولت تغوي سليم زوجي، وجوز سعاد بالجامعة عملت علاقة معه. على كلّ حال، أنا مش ضدّ نزواتك، أنا مقهورة لأنّك كذبت عليّ.

ـ أيمتى كذبت؟

ـ كذبت لمّن مرّة كنت أنا وسعاد وميرنا وعزيزة بمقهى الروضة وشفتك معها عم تشربوا قهوة: سألتك على التليفون، ليش كنت معها، قلت لي إنّك شفتها بالصدفة.

تركته ومشيت بعدما قلت له إنّني لا أريد أن أصادره، لكن أرغب في أن أقطع علاقتي به لأنّه كذب عليّ. ثم إنّني أحسست بأنّه أقام معها علاقة سرًّا بدون أن يخبرني.

ـ يا إلهي، على الرجال، قلت له، ثم أضفت:

ـ ليك يا هاني، خلّينا نفترق، وما في شي يخدش حبّنا. أحسن نفترق وحبّنا بلا خدوش. على كلّ حال الاستمرار عم يجرحني ويجرحك. وإنتِ ما بتعرف قدّيش عم بتعذّب إنّه مشاعري معك،

وحياتي مع جوزي وأولادي. رغباتنا ما بتصلح فيها العلامات اللي عم شوفها متل السرقة، مع إنّه مقتنعة إنّه مش عم بسرق. عم بسرق شي ملكي وعم بستردّه، وإنتِ بتعمل نزوات وبتخفي عنّي، وبتكذب.

ـ «صدّقيني، نزوة وراحت»، أجاب، ثم صمت.

تركته ومشيت. أحسست وأنا أسير باتّجاه الشارع لآخذ تاكسيًّا إلى البيت، بأنّ قدميّ تسيران إلى الخلف، إلى حيث لا يزال يجلس على الكرسيّ في المقهى. اختلّ الزمن بي، وشعرت بأنّي مثل أرض يباب، أتصدّع وأتفسّخ لأتفجّر نارًا وبركانًا.

عندما وصلت إلى البيت، حضنت ولديّ ورحت أبكي، فسألاني بصوت واحد:

ـ ليش يا ماما عم تبكي؟

لم أردّ. لففت ذراعيّ حولهما، كما لو أنّي أريد أن أستردّ جناحيّ، إذ خفت أن يحلّقا بعيدًا عنّي، وأصير بدونهما أيضًا.

ـ ٩ ـ

أضأتُ ضوء غرفتها ودخلنا، فوجدناها ممدّدة في سريرها في العتمة تحدّق في النافذة المغلقة ستارتها بالكامل. ركضت عزيزة وفتحت النافذة ليتسرّب الهواء إلى الغرفة التي اختنقت بالحرارة والرطوبة ودخان سجائرها، وهتفتْ بها قائلة:

ـ ليش عاملي بحالك هيك يا ستّ سعاد. ليش مسكّرة على حالك بهالشوب كأنّك بقبر، وعابق الدخّان بالأوضة. كم علبة مدخّنة وإنتِ عم تموتي. ما بتشفقي على حالك؟

ابتسمَت سعاد ابتسامة خافتة بعد أن قامت وجلست ما إن رأتنا. طلبتُ منها أن تبقى في السرير. أسندتُ رأسها إلى تكّايتين كي تكون مرتاحة. العرق كان يتصبّب من وجهها في هذا الصيف، لونها شديد الاصفرار، والتعب بادٍ عليها، بعدما شعَرتْ بارتفاع مفاجئ في ضغطها وازدياد في دقّات قلبها.

جُنّ جنوني لما اتّصلت بي عزيزة، وقالت لي إنّ سعاد مريضة، وإنّها تفكر في زيارتها. بسرعة برق لبستُ ونزلتُ إلى سيّارتي ومررتُ إلى بيتها وأخذتها معي لنزورها ونطمئنّ عليها كما اتّفقنا.

كانت مضت ثلاثة أسابيع لم أرَ خلالها سعاد، ولم أستطع أن أخابرها لكثرة ما تضايقتُ منها.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

نادرًا ما تصادمت معها.

اتّهمَتني بإغواء عصام زوج صَديقتنا هدى. قالت لي بعصبيّة، وهي ترتجف، إنّه حاول أن يغازلني، وقد رأته يحدّق في نهديّ اللذين كشفت بلوزتي عن جزء منهما.

الأمر فاجأني. فسعاد أكثر من يفهمني. طوال حياتها لم تصرخ بوجهي كما فعلت. وهي أكثر من يعرف أنّي لا أفعل ذلك، ولا أفكّر إلاّ في هاني، ولا أرى رجلاً غيره في الدنيا، وخاصّة بعدما استرجعنا علاقتنا. فلماذا رمتني بمثل هذا الاتّهام البشع؟

موقفها المفاجئ صَدَمني وأبكاني. ثم عدتُ وهدأتُ بعدما فكّرت في علاقتها بزوجها سليمان، وإحساسها الغريب بالوحدة. ومن غيرها أعزّ على قلبي؟ الخوف من فقدانها، في الأسابيع الثلاثة التي مرّت، أوقد جمرة في أحشائي وأغلق مجرى تنفّسي. جذعي طوال الأسبوع لم يكن متماسكًا، وجسمي كأنّه فاقد توازنه. كأنّ الصديق يصير جزءًا من وزننا ولحمنا وعظامنا وأجسادنا كلّها. نُصاب بهُزال مفاجئ ونقصان في الروح والجسد لحظة فقدانه. طوال الوقت الذي مرّ بدونها، كنتُ أشعر بأنّ صوتي مقطوع عن حبل أحشائي. كأنّه كان يصل إلى فمي ببطء شديد لا يُحتمل، قاطعًا مسافات طويلة من الجبال والوديان، أو كأنّه غير قادر على أن يطلع من مكانه، فأخذ ممرّات أخرى طويلة، ووصل منهكًا ومهدودًا إلى فمي.

قبّلتها في جبينها، فابتسمت في وجهي كأنّ شيئًا لم يحدث بيننا. اطمأننت على مكانتي عندها، لكن صحّتها أقلقتني.

لم يُعرنا زوجها سليمان أيّ اهتمام. ظلّ يروح ويجيء من أمام الغرفة بكتفيه القليلتي العرض، وكرشه الكبيرة وساقيه القصيرتين، يأكل سندويشًا ويمضغ كما لو أنّه يقرش البونبون، إلى أن خرج.

ما إن تأكّدت عزيزة أنّه صار خارج البيت وأغلق الباب خلفه، حتى خلعت حذاءها ذا الكعب العالي، وتربّعت على السرير إلى جانب سعاد، وقالت لها:

ـ ليكي يا حمارة، ولِي رح تموتي يا هبلا، وساعتها الله لا يقيمك. ولِي هيدا جوزك بعد بدُّه يسكّرلك شرايين قلبك. مش عم بمزح. قومي روحي حبّي. الحبّ بفتّح شرايين القلب. ولك يا إختي إذا عشقتي مرّة بالشهر بتصيري مثل الحصان. إنتِ بتعرفي إنُّه النسوان ما بيختيروا إلاّ لمّن قلبن ما بعود يحسّ، وما بعودوا يحبّوا ولا يعملوا علاقة؟ شو مفكّرة الدنيا إنّه بسّ رحت من عند نهلا وجيت من عند نهلا؟ ومفكّرة الدنيا أكل وشرب. من فوق الواحد شو ما بدّو بياكل، بسّ من تحت بدّك تنغرمي يا حمارة.

ابتسمت سعاد وانفرجت أسارير وجهها كما تفعل عادة كلّما حكت عزيزة عن علاقتها بالرجال، ومثّلت أمامنا كيف صارت تدع الواحد منهم إذا أعجبها، ينزع ثيابه لتتفحّص شكل عضوه وهو عارٍ. تفعل ذلك كما لو أنّها تقوم بتمثيل دور في مسرحيّة. أتذكّر لحظتها موهبتها في التمثيل أيّام المدرسة، وحلمها آنذاك أن تكون ممثّلة مسرحيّة. أستعيد مشهدها وهي تقرأ قصائد جميل بثينة بأداء مسرحي، ونظراتها الرومنسيّة ترتسم أمام أعيننا ونحن نصفّق لها.

ثم أفكّر كم تغيّرت عزيزة وبدّلتها الأيّام. انطوى حلمها بالتمثيل مثلما انطوى ماضيها البعيد، وصارَت لا تحكي الآن، إلاّ بمتعة جسدها والماركات العالميّة التي لا ترتدي إلاّ منها.

حدّقت سعاد في حركات عزيزة بعينين مذهولتين، وبدت مستأنسة لكلامها كالعادة. والغريب أنّني بحضورها أكتشف وجهًا آخر لسعاد، ولغة أخرى، وهي أستاذة الفلسفة التي تختار كلماتها بدقّة. لغة أخرى شعبيّة لا تحكيها إلاّ حين تكون برفقة عزيزة. وربّما أكثر أوقاتها سعادةً هي حين نزورها ونشرب كأسًا في بيتها في منطقة رأس بيروت الراقية. عندها يصير وجه سعاد محتقنًا ومليئًا بالحياة والانفعال. وأحسب من نظراتها أنّها تتمنّى لو أنّ لها حياة عزيزة لتبيع جسدها مثلها من أجل اللذّة والمال معًا، أفضل من أن تبيعه للقهر والصمت والامّحاء.

كانت عزيزة أكثرنا فقرًا ومتحمّسة للحبّ الرومنسي أيّام مراهقتنا. تعيش قصصًا خياليّة. تهيم عيناها الزرقاوان وتسبحان في فضاء وجهها الحنطاوي وهي تردّد أشعار جميل بُثينة. ومرّة سألتها: إنت ليه بتحبّي الشعر العذري؟

ـ لأنّه بحبّ تضلّ البنت عذراء حتى بعدين جوزا ينبسط فيها، ويكتشف إنّها آدميّة.

ـ وبتعرفي المرا كيف بتنبسط يا عزيزة؟

ـ «عن جدّ؟ ليش المرا بتنبسط؟ وكيف يعني بتنبسط؟»، أجابتني بنظرات بلهاء، لكنّها تختزن شبقيّة لا تعيها.

كثيرًا ما تناقشنا حول الحبّ العذري والحبّ الإباحي، إلى أن حسمتُ الموضوع وقلتُ لها مرّة إنّني لا أحبّ أن أقلّد أحدًا، ولا أن أستنسخ شيئًا. أنا أريد أن أخلق نموذجي، وأكتشف الحبّ الذي يستهدي إليه قلبي وجسدي وشعوري.

طلب عزيزة عرسان كثر أوائل طلعتها لجمالها وخجلها، إلاّ أنّها رفضت لأنّها كانت مغرومة بأخي جواد. لكنّ أهلها عادوا وزوّجوها بابن عمّها عبد الحسين، وهي لا تزال في السابعة عشرة من عمرها.

منذ اليوم الأوّل لزواجها، قال حموها لابنه:

ـ أعطها العين الحمرا لتفزع منّك، وما تعود تروح وتجي بغيابك وين ما بدّها.

أعطاها العين الحمرا كي لا تخرج من البيت أثناء غيابه في الكويت حيث كان يعمل. لكنّه لم يأتِ مرّة إلى بيروت إلاّ وضربها. ومرّة كسر أصابعها الأربع، وما تزال إصبعان منهما معطوبتين.

ما زلت أذكر حين دقّت بابي ذات يوم وفاجأتني بعينها المتورّمة من الضرب، لأنّها سألته بعدما نام معها:

ـ حقّن يا عبد الحسين، المرا بتنبسط وبيجي ضهرها؟

ثار كالثور الهائج، وقال لها قبل أن يضربها:

ـ قوليلي مع مين عم تحكي؟ مين عم تعاشري؟ أي شرامط عم تلتقي؟ أكيد نهلا حكيت لك عن هالأشياء، أو سعاد.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ـ «ما حدا منن قلّي شي، بسّ أنا سمعت، وعم بسألك إذا المرا بيجي ضهرا ولاّ لأ، لأنه ما عم حسّ بشي»، أجابته وهي تبكي.

حاول بعدما ضربها أن يهدّئها ويُقنعها بأنّ المرأة لا تحسّ بشيء، وأنّها تنام مع زوجها لترضيه.

لم يقم عبد الحسين بأيّ جهد لتحسّ بشيء، حتى إنّه كان نادرًا ما ينام معها، لخوفه أن تعتاد الجنس وتتعلّمه، متخيّلاً أنّها ستضطرّ إلى خيانته في حال غيابه إن أدركت لذّتها. ثم إنّها سمعته مرّة يقول لأخيه الذي تزوّج بامرأة يحبّها كثيرًا:

ـ أوعى تنام معها كتير بتهدّك. بدّك تروح لبرّا روح، أمّ الأولاد للبيت، ولازم تضلّ آدميّة. وإذا كنت بتشتاقلها، اعمل واحد كلّ خمستعشر يوم أو أكثر إذا فيك تصبر. غير هيك لأ. أنا عم بنصحك.

هو لم يفعل حتى ما نصح به أخاه. كان هواه خارج البيت والقمار بعدما عاد من الكويت نهائيًا، ما جعلها تمتنع عن معاشرته ذات يوم، فمزّق ثيابها عنها ونام معها بالقوّة، ثم ضربها وفار الدم من رأسها. بعد هذه الحادثة، فرض أهلها عليه أن يطلّقها بعدما حاولت الانتحار وابتلاع حبوب دواء الأعصاب بكامله إثر حالة جنونيّة أصابتها. أعطاها الغضب قوّة لا تعرف من أين أتت، فحملت التلفزيون وضربته به، ثم أشياء أخرى من أغراض البيت بدون أن تعي ما تفعله. بعد طلاقها منه يومذاك، زرتها أنا وسعاد ونادين، حيث حكت لنا عن معاملته لها قائلة:

ـ العما بقلبه، ما خلّى مرا ما ضهر معها وأنا ساكتة. وعلى كل

حال، أنا جبت منه ثلاث بنات، بسّ أقسم بالله ولا مرّة إجا ضهري. كم مرّة يا نهلا سألتيني: بسّ تنامي معه بتخلّصي إنت؟ أنا ما بعرف شو يعني بتخلّصي. ما حسّيت بشي معه، بسّ إعملها لأرضيه، وما دِقِتْ معه إلاّ الفقر. وبعدين معه، يحلّ عنّي.

ـ «شو بدّك يا إختي، الرجّال ما بهمّه إلاّ حاله. واللي عينه بيضا بيخون مرته، ولو كانت ملكة جمال»، أجابتها سعاد.

لم تمضِ على عدّتها بضعة أيّام حتى عادت عزيزة وتزوّجت برجل من عائلة بيروتيّة راقية، يكبرها بنحو ثلاثين عامًا ولديه أربعة أولاد.

أحبّت عزيزة زوجها الثاني المحامي الكبير بسّام، لأنّها ذاقت معه حياة الرفاهية، وشعرت بأنّ الناس صاروا يحترمونها، ما أعطاها إحساسًا مسح شعورها بالدونيّة. وصارت ترى صورها في المناسبات الاجتماعيّة في المجلاّت النسائيّة، وأينما دخلت يقف الجميع لها. لكن ما كان يثير استغرابها امّحاء شخصيّة زوجها أمام أبيه. لم تكن تسمعه يناديه سوى بـ «سيدنا»، أو بـ «حضرة البابا». ينحني أمامه ويقبّل يديه كلّما دخل أو خرج من بيته. لكن برغم حنانه عليها، فهي لم تكتشف لذّتها الحقيقيّة معه أيضًا. أوّل ما اكتشفت إحساسها بجسدها كان في «بيديه» الحمّام، حين لامست المياه القويّة الدافئة نقطة حسّاسة في عضوها، فعرفت لذّتها. وصارت تروح وتجيء طوال الوقت من الحمّام وإليه. أحيانًا، كانت تتمدّد في البانيو، ترفع ساقيها وتفتحهما ثم تصوّب الدوش

على عضوها قبل أن تمارس العادة السرّيّة. زوجها بسّام كان يدرك أنّها تحصل على المتعة لحالها، فكان كثيرًا ما يدقّ باب الحمّام عليها حين تتأخّر في داخله، ويقول لها:

ـ يلاّ يا ستّ عزيزة. صرلك نصّ ساعة، خلصنا. شو كم مرّة بدّك يجي ضهرك؟

لم تحصل عزيزة من بسّام على إحساسها كامرأة إلاّ نادرًا، فعدا عن ضعفه الجنسي، لم يكن يهتاج إلاّ على الخادمات. لم يكن يقرب عزيزة إلاّ في فترات متباعدة يكون فيها ثملاً جدًّا وضائعًا لا يعرف فيها مع من يمارس الجنس. ثم عاد وانقطع عن معاشرتها بعدما وقع في غرام فيليبينيّة كان يختلي بها في مكتبه بعدما يتناول الفياغرا. وعزيزة جنّت. استأجرت رجلاً لمراقبته على مدار الساعة. وكثيرًا ما كانت تقصد مكتبه وتفتح الباب وتجد «كوندومًا» مستعملاً على كنبة المكتب. وذات يوم، بعدما حاولت التحرّش به في الفراش، قال لها:

ـ ليكي يا عزيزة أنا بحبّك وبحترمك، بسّ إذا بدّك الحياة تستمرّ بيناتنا وبدّك تحافظي عليّي، قصّة السكس ما لازم تكون موجودة. ليكي أنا بيزق على الحلال ليصير حرام لأستلذّ فيه.

كثيرًا ما جاءتني عزيزة باكية، تشتكي إليّ أنّها تلحق ببسّام إلى السرير، وتتمدّد إلى جانبه وتمارس العادة السرّيّة، بينما هو يتطلّع إليها ويراقبها إلى أن يغفو على كتفها وتنزل ريلته على صدرها بعدما يعود إلى البيت، ويكون قد أمضى وقتًا في مكتبه للمحاماة في رأس بيروت قبالة كليّة B.U.C، مع صديقته الفيليبينيّة التي

حملت منه مرّتين وأجهضت، فبكى بكاءً مُرًّا لأنّها أسقطت الجنين بدون أن تسأله.

لم تعد عزيزة تحدّثنا أنا وسعاد عن الحبّ العذري من زمان. لم ترَ آنذاك أحدًا وفيًّا لها ولجسدها سوى إصبعها. وما زلت أذكرها كيف وقفت أمامنا ذات يوم وقالت لنا إنّ إصبعها يساوي الدنيا عندها ويُغنيها عن الرجال. ثم ضحكت بعد أن قالت: ما بتعرفوا المتل شو بيقول؟ بيقول «من دهنو سقّيلو».

ثم عادت وضحكت، وقالت بعدما أخبرتنا أخت زوجي بحضورها، إنّ زوجها يغار عليها ولا يدعها تخرج بدونه:

ـ مجانين الرجال. إذا المرا مع الميّ بتعملها. قديش حمار الرجّال اللي بيسكّر الباب على مرته.

حياة عزيزة مع زوجها الأوّل نسيتها، ولا تذكر منها شيئًا. أمّا بسّام فتذكره بالخير، وتكنّ له عاطفة ما. ترمّلت وهي في بداية الأربعين من عمرها بعد موته المفاجئ في حادث سير مروّع على طريق الشام وهو عائد من شتورة وبرفقته شغّالة حبشيّة، بعدما انزلقت السيّارة بهما في يوم شتائي عاصف وضبابي. ولا أذكر أنّي شاهدت حزنًا عميقًا يحتلّ عينيها ويقبع فيهما إلاّ في تلك الأيّام لشدّة ألمها على فقدانه.

* * *

بعد عودتها إلى البيت في ذكرى مرور أربعين يومًا على وفاة بسّام، تمدّدت عزيزة في البانيو والحزن يهدّها، ولا سيّما أنّها

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

اكتشفت أنّ بسّام جعل أخاه وصيًّا على ماله وأولاده.

راحت تتذكّر أيّامها معه بحلوها ومرّها، وصدرها يعلو فوق الماء الذي يغطّيه كلّما تنهّدت. بين لحظة وأخرى، كانت تدفع المياه بيديها في اتّجاه كتفيها، ثم تمسّدهما وهي مغمضة العينين مستأنسة بصوت الماء في أذنيها. لمّا وقفت تحت الدوش، شعرت برغبةٍ في أن يغسل الماء الذي ينهمر على جسدها بغزارة، كلّ ذلك الشعور من الوحدة والقهر الملتصقين كالدبق.

أمام المرآة المثبّتة إلى جانب البانيو، شعرت كأنّها ترى جسدها للمرّة الأولى في حياتها حين وقفت عارية تتأمّله وهي تنشّفه. قبضَت على ثدييها ولصقتهما ببعضهما البعض، ثم جالت ببصرها على كلّ جسمها بعدما استدارت مرارًا وتطلّعت إلى مؤخّرتها العالية قليلاً. بياض جسدها اللامع والجميل أشعرها بصقيعه ووحشته. والغريب أنّ جسدها بدا لها يذهب بعيدًا في المرآة. يفلت منها، ويكاد يختفي. أمسكت بخاصرتيها كي تتأكّد أنّه ما زال معها ولها وبين يديها وأمامها في المرآة. أحسّت بعطشه ليدَي رجل يعشقه وليس ليديها. رغبت بشدّة في أن تتلهّف عينا رجل لتراه، وتتلمّس أصابعه جماله ونعومة بشرته، ليصير ساخنًا مثل أنفاسها، بعدما بدا لها ضَجِرًا من أصابعها ونظرها. قالت لي عزيزة أمام سعاد إنّها أحسّت به يفرفر تحت رأسها، كأنّه وكر نحل فائر وينتظر قطف عسله، وأخبرتني أنّي محقّة حين حكيتُ لها مرّة أنّ في جسدي موسيقى شديدة الإثارة والفتنة والصخب. أحسّت بتلك الموسيقى وسمعتها، وهي واقفة تتأمّله في المرآة. ثم صارت تتنصّت عليه

وتستمع إليه، وهو يحكيها، بينما كانت في السابق هي من يحكيه مثلما تفعل أمّي، ويبقى صامتًا لا يجيب.

قالت لي: يا نهلا لم يبقَ عضو في جسدي لم يعاتبني ولم يحكِ معي. وما هالها، وفتح عينيها على آخرهما، أنّه خطر في بالها سؤال: لمَ لا تعيش منه مثلما تفعل صديقة لها اسمها منى؟ بل لمَ لا تدعه يعيش ما دام هو على هذا القدر من الجمال والحياة؟

انزاحت هذه الأسئلة من رأسها لوقت طويل، ثم عادت وطرحتها بعدما تعرّفت إلى فادي الذي عشقها وكان كريمًا معها.

أوّل إحساس مختلف بجسدها اكتشفته معه.

جنّن فادي الذي يصغرها بعشر سنوات جسمها، وجنّنها. معه أدركت لذّة الجنس والمتعة. كان ينام معها مرّات عدّة في الليل، بعد أن يتعاطى الكوكايين. وبرغم ذلك، كانت تريد المزيد، وتشعر بأنّ ظمأها للجنس لم يرتوِ، وجسدها لم يشبع. ولا تدري لماذا كانت أحيانًا تتذكّر سعاد بعد ممارسة الجنس والتمدّد إلى جانب فادي في السرير. كانت تبتسم وتقول في سرّها «حرام سعاد». ثم تسأل نفسها ما إذا كانت تملك القدرة لتقاومه لو أنّ فادي غازلها، أو اقترب منها. كان يخطر في بالها أنّها قد تلتهمه بلقمة واحدة لأنّها تعتقد أنّ سعاد تعيش حالة جوع مموّهة بهذا الصمت والسرحان والتأمّل. كانت تشمّ رائحة جوع في جسدها. وكانت تفكّر ما إذا كانت نادين تتخلّى عن ميرنا ولا تعود سحاقيّة لو نامت مع فادي. وكثيرًا ما حدّثت نفسها أيضًا وهي معه قائلة: وينك يا نهلا تشوفي الغرام شو عامل فيّي. فاقتْ محلاّت بجسمي ما كنت

شايفتها ولا حاسّي فيها أصلاً. كنت تقولي: ما في مخزّ إبرة مش فايز بجسمي. أنا كلّ جسمَي فايز.

تغيّرت عزيزة أيّام فادي وازدادت جمالاً. كانت تصعد معه إلى الجبل في الويك إند، ثم تنزل إلى بيروت، ووجهها يبرق جمالاً، فتزورني وتقول لي:

ـ ليكي يا نهلا، شوفي وجّي كيف عم يبرق، مش معقول الجنس شو بحلّي المرا، ويخرب بيته فادي، كأنّه عنده ثلاث بيضات أو عشرة، مش بسّ اثنين!

أحبّها فادي وأدمن عليها مثلما أدمن على الكوكايين. حاول الانتحار بعدما تركته بسبب المخدّرات ودخوله السجن في دبي حيث يعمل. وكان هجومه على بيتها بعد خروجه منه لينام معها بالقوّة جنّنها، فأولادها خطّ أحمر في حياتها، وقد خافت عليهم منه. ولكثرة ما عشقها فادي، كان يأتي أحيانًا أكثر من مرّة في الشهر ليلتقي بها. لم يكن يأكل حين يكون معها قبل أن يُطعمها. ومرّة آلمتها رِجلها في مطعم كانا يتناولان الغداء فيه، فجلس متربّعًا على الأرض وخلع حذاءها، وراح يقوم بمسّاج لأصابع رجليها لترتاح. كان يعطيها المال باستمرار لمصروفها ومصروف أولادها، وأغدق عليها الكثير من الهدايا. ذهب مرّة إلى محلاّت الجميّل للمجوهرات واشترى لها «سوليتير» بسبعة قراريط طار عقلها بها.

عشقها فادي عشقًا جنونيًا، بينما هي تعتبر أنّها أدركت شهوتها معه فقط، وأنّ العلاقة به لم تكن ببلاش. شعورها بوجع الحبّ

الذي كان باديًا في عينيها، كان مع الدكتور جودت محمود، طبيب الغدد والسكّري الذي كان يعالج أمّها.

لاحظت اهتمامه بها بعدما تكرّرت زيارتها عيادته برفقة أمّها. اكتشفت تجاهه أحاسيس لم تشعر بها في حياتها. ذابت أمام ابتسامته الطالعة من قلبه حين يراها، ولبّت دعوته إلى فنجان قهوة في أحد مقاهي الضاحية الجنوبيّة. جاءتني مباشرة بعد لقائه، وعيناها زائغتان. استرخت على الكنبة، وراحت تحدّق في البحر من الشرفة. عادت عيناها الزرقاوان تسرحان كما أيّام المراهقة. أسندت رأسها على يديها اللتين عقدتهما تحته، وقالت لي إنّها تشعر بالدوخان من السعادة، ومبسوطة، كما لو أنّها شاربة وسكرانة حتى الثمالة.

سألتني يومها عن الحبّ، وماذا أشعر حين أكون مع هاني. حين سألتها لماذا تسأل، قالت لي إنّها لا تعرف إذا كان ما تشعر به اسمه الغرام.

حين جلس قبالتها في المقهى يحدّق في عينيها، ارتعش جسدها. ارتجفت يداها وساقاها وأحسّت بأنّ النار تخرج من رأسها. يداها الباردتان والمثلّجتان دومًا هبّتا بالنار، وصارت كفّها متوهّجةً شديدة الاحمرار، ظهرها كأنّه انقسم إلى نصفين وهي تحدّق في شفتيه وتتخيّل غرقهما وتواريهما عن الأنظار بقبلة. ثمّة شيء غامض كان يحدث في جسدها. شيء يشبه الوجع، لكنّه ليس وجعًا. شيء يشبه زقزقة الفرح، لكنّه ليس فرحًا خالصًا. سألتني وعيناها دامعتان عمّا إذا كان الذي تحسّ به يسمّونه الغرام.

قالت لي إنّ شهوتها تجاهه لا تشبه أبدًا شهوتها تجاه فادي. ربّما مع فادي كانت المسألة مسألة أعضاء تحتكّ ببعضها البعض مثل أحجار الصوّان، تنفجر وتشتعل بحسب قياس جوع كلٍّ منها للجنس وحجم هذا الجوع. قلبي يا نهلا الآن طري باشتعاله، يشتاق إليه ويتلهّف. رغبتي في غمره لا حدود لها. أشتهي أن أنام معه بأسرع وقت ممكن. أن يلتحم جسدي بجسده. كل ذرّة في خلاياي تشتهيه، لكنّي خائفة من أن يتركني إذا ما فعلتُ ذلك، لأنّه متديّن ومنتمٍ إلى حزب ديني، وأنا أحلم بالزواج به.

صوتها كان رقيقًا وشفّافًا ومغمّسًا بالعشق، وهي تحكي. ثم تطلّعت إلى سعاد التي كانت حاضرة وسألتها ما رأيها، فأجابتها:

ـ ما بعرف يا عزيزة. في رجال إذا نام الواحد منن مع المرا بيتركها، وفي رجال الجنس بعلّقهن. بسّ بعتقد إذا كان متديّن وتقليدي ما تنامي معه، ارسمي عليه ليتجوّزك. بسّ فيكي تتحجّبي إذا حجّبك؟

ـ بتحجّب ونصّ. ليش لأ، شو ما بدُّه بعمل، بسّ يتجوّزني.

ـ لَكِنْ حاولي ما تنامي معه لتشدّيه للزواج.

ـ ما فيّي قاومه. لو بتشوفي كيف بدوب قدّامه وبسوسح، أجابتها.

ـ يخرب بيتك يا عزيزة، شو صارت دكّتك قاشطة. اضبْطي حالك.

ـ ما فيّي، شو بعمل، بدوب بسّ كون معه؟

ضحكت سعاد التي تكنُّ عاطفة خاصّة لعزيزة، وقالت لها:

ـ يا إختي شوفي شو بتعملي. وإذا بدّك بسّ تشوفيه كبّي مَيّ على وجّك. اعملي أيّ شي إذا بدّك تتجوّزيه، بسّ ما تنامي معه.

لم تستمع عزيزة إلى كلام سعاد. نامت مع الدكتور، لكن بعد أن قام بعقد زواج متعة معها لأنّه متديّن. رفض أن يلمسها أو حتى يراها ويتكلّم معها بدون العقد، قائلاً لها: إذا ما بدّك عقد، كل واحد بطريق. مش سكس ما فيّي. ما فيّي حتى إلمسك، ولا إحكي معك حتى عالتليفون. إذا سمعت صوتك على التليفون وحسّيت بشي، هيدا كفر وحرام. ما فيّي إحكي مع وِحدي بحسّ فيها إلاّ بالحلال.

قبلت عزيزة بالعقد، لكنّه تركها بعد إشباع رغبته. مرضت من القهر لأيّام، ولم تفارق بيتها لشهور أمضت معظمها في السرير. إلاّ أنّها عادت وتماسكت، وقالت لي إنّه لا حبّ أكبر من حبّها لأولادها، ووحدهم يستحقّون عاطفتها.

في تلك الأيّام، صارت عزيزة تلتقي بصديقتها منى التي تعتاش من جسدها، وتصاحب رجالاً يصرفون عليها وعلى أولادها. ففكّرت لمَ لا تفعل مثلها، ولا سيّما أنّها جميلة، واعتادت على حياة الرفاهيّة هي وأولادها الذين لا حبّ بقي في قلبها إلاّ لهم. تذكّرت كيف كان فادي يغدق عليها المال والهدايا أيّام علاقتهما. وخطر في بالها أنّ العجائز منجم لا بدّ من العثور على الذهب معهم. وهي بذلك تضمن عيشها وعيش أولادها، وفي الوقت نفسه

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

تضمن عدم الوقوع في غرام أحدهم كي لا تتعذّب. وقالت بينها وبين نفسها إنّ العجائز بالتأكيد سيُفتتنون بجمالي.

وجدت عزيزة طريقة للتعرّف إليهم. صارت تبيع أغراضًا وملابس رجّاليّة وكرافاتات وما شابه، ثم تصاحب من تجده كريمًا ليصرف عليها. وأخبرت سعاد أنّها تتمنّى أن يعرض أحدهم الزواج عليها لتخدمه وليُريحها من هذه المهنة، حتى لو كان عاجزًا على الكرسيّ، فالمهمّ هو المال. ثم عادت وكفرت بالزواج وبالعجائز، بعدما حصل معها ما حصل مع أحد النقباء المعروفين في البلد، وهو صديق لزوجي سليم، تعرّفت إليه في عشاء كنتُ قد أقمته في منزلي.

جاءتني باكية ذات يوم، وقالت لي:

ـ رضينا بالخرا، والخرا ما رضي فينا.

بحلقت سعاد فيها بعينيها اللتين صارتا مدوّرتين، وسألتها:

ـ أوف، شو صار يا عزيزة؟ خبّريني؟

شردت عزيزة في عيني سعاد للحظة قبل أن تجيبها، وسألتها:

ـ وإنتِ دخلك يا سعاد كانو عينيك مشروحين شرحْ هلقّد، ليش صايرين مدوّرين وصغار قد تاع العقربة، وكلّ ما بيدّوروا؟

ابتسمت سعاد ابتسامة مرتبكة، وقالت لها: هلّق شو بدّك بعيوني، إنتِ خبّريني شو صار معك مع النقيب؟

زالت علامة الاستفهام عن وجه عزيزة. هدأ توتّرها، ثم ضحكت وقالت:

ـ هيدا النقيب الطزّ اللّي تعرّفت عليه هون عند نهلا، قلبي شفقني عليه وتمنّيت حتى يتجوّزني، رغم إنّه زلمي غير اللّي الله قاطع فيها ما بتعمل علاقة معه عن جدّ. وحياة أولادي كلّهن، إن شاء الله إشحد بالطريق إذا عم كذّب، ما عنده شي من تحت. دايب تاعْه منوب، وشفّاطة ما بتطلّع شي منه لبرّا. وكلّه هيّن قدّام قرفُه.

أخبرتنا عزيزة وقتها أنّه لم يتحرّش بها عند زيارتها الأولى له، ولم يشترِ شيئًا، لكنّه طلب منها أن تأتي إلى بيته في الأسبوع المقبل. بعد زيارات عدّة له بناءً على طلبه، أمر سائقه بأن يتركهما وحدهما وهما جالسان في غرفة الجلوس. كان يلبس شورتًا يكشف عن ساقيه المتقرّحتين من السكّري، وعن لون بشرته المتجمّدة الصفراء كما لو أنّه خارج من عمليّة جراحيّة للتوّ أنزفته كلّ دمه. طلب منها أن ترافقه إلى الحمّام ليغسل يديه. وبعدما عادا، جلس إلى جانبها على الصوفا، وقال لها وهو يضع يده التي ترتجف على ركبتها:

ـ إنتِ يا عزيزة بتعني لي كتير. أنا بتفاءل بالدنيا بسّ شوفك. هيبتك مخلصة كتير.

ـ «إيه يا نقيب، يخلّيلنا ايّاك. أنا اللّي بحبّهن من قلبي، أكيد بخلصلهن»، أجابته.

فتح الشنطة التي إلى جانبه وأعطاها خمسمئة دولار. ثم قرّب وجهه وقبّلها. بين قبلة وأخرى كان يجمع قواه ليأخذ نَفَسًا كي لا يختنق. أخفت عزيزة مشاعر اللعيان التي أصابتها، وقالت بينها وبين نفسها:

«طوّلي بالك يا عزيزة. إذا البوسة بخمسمية دولار، فكيف النومة»؟

أغمض عينيه على الكنبة في اللحظة التي فكّرت فيها في ذلك، أمسك بثديها، قبل أن ينقل يده إلى مناطق حساسة أخرى في جسدها، وسألها:

ـ هيدا البزّ لمين؟

ـ إلك يا نقيب.

ـ وقفاك لمين؟

ـ إلك يا نقيب.

ـ وتاعك لمين؟

غامت عيناه على صوتها وإجاباتها، فارتخى على الكنبة طالبًا منها أن تفتح أزرار بيجامته وترضع.

انقلبت عزيزة على ظهرها من الضحك، وقالت لي:

ـ مدّيت إيدي يا نهلا لشوف شو الموضوع، شو هالحكي! ما في شي خالص. والشعرة هالقدّ، وريحة الصنّة طالعة، قال لأنّه ما بحبّ يتحمّم، مع إنّه نقيب قدّ الدنيا، ويا لطيف.

كادت عزيزة تتقيّأ ما إن فعلت ما طلب منها، ثم تركته وركضت إلى الحمّام وفعلتها. حاولت إقناعه بأن تُدخله الحمّام وتحمّمه، لكنّه لم يقبل لأنّه يكره الاستحمام. بعد هذه الحادثة، لم تعد عزيزة تخرج من بيتها بدون أن تحمل بخّاخًا مطهّرًا للفم، إذ لا أحد يدري ما يستجدّ معه.

ما أغاظ عزيزة أكثر، أنّه حين أوصلها إلى البيت مع سائقه ومرافقه، راح يغمز في كلامه ليتباهى أمامهما بقدرته الجنسيّة، كما لو أنّه خائف أن يفقد هيبته أمامهما وسلطته عليهما إذا علما بعجزه، فراح ينقلب على ظهره من الضحك أمامهما، وهو يقول:

ـ يخرب بيتك يا عزيزة شو عملتي فيّي. هلكتيني قدّ منّك شيطانة. أكتر من مرّتين وتلاتة يا مجرمة!

تغيّرت عزيزة وبدّلتها الأيام.

نسيت حلمها القديم بأن تكون ممثّلة مسرحيّة، ولا تتذكّر سوى حلمها بألاّ تنزلق إلى الفقر القديم. تنهّدت تنهيدة عميقة ذات يوم قبل أن تقول لي إنّ حياتها مسرحيّة عاشتها ومثّلتها، لكنّها لا تعرف إن كتبتها هي أم الآخرون. لكنّها تريد أن تبقى البطلة، وإلاّ فالمسرحيّة ستنتهي، وتسقط هي عن الخشبة.

ما زالت عزيزة محتفظة بشبابها وجمالها المثير للرجال. تمزّق حجاب خجلها القديم، وصارَت مفعمة بحيويّة ممزوجة بعبثيّة عميقة في هذا العمر. تريد أن تغبّ الحياة غبًّا، وأن تحصل على اللذّة والمال معًا. عيناها الزرقاوان تتوهّجان دومًا بالرغبة في وجهها الذي يزيد من حنوّه شعرها الأسود المنسدل على كتفيها. عمليّات التجميل أعادت تألّقها، صدرها الكبير مكشوف دومًا في عزّ الشتاء والبرد، وجسدها ممتلئ قليلاً كأنّه يختزن قوّة فرس، لم تكن تمتلكها أيّام شبابها الأولى.

تفجّر الشبق الذي كان محبوسًا في جسدها، وكان مقموعًا أيّام صباها، وصارت مهنتها هي العيش من جسدها ومصاحبة الرجال القادرين على مصروفها ومصروف أولادها في الجامعة، وتعتبر أنّ الحبّ الحقيقي في حياة المرأة هو أولادها.

ومرارًا قالت لي: أغلى من الولد ما في، ولو المرا بتعبده للرجّال. أيّ ضرر على ولادي واحد بالميّة ما فيني.

لم تعد تخرج مطلقًا مع رجال عجائز. صارت تختار من يُرضي جسدها وجيبتها، لأنّ ما تبقّى من العمر أقلّ بكثير ممّا فات. وتعتبر أنّ الرجل الذي لا يستطيع أن يصرف عليها لا يغويها ولا يمكن أن تحبّه وتحترمه.

وكم ضحكت سعاد، حين قالت لنا ذلك اليوم الذي زرناها فيه، وهي تتربّع إلى جانبها على السرير:

ـ شو الواحد بدّه يركبها للوحدي ببلاش؟ إبيه المرا بطبعها ما بتحبّ تفرشخ حتى لجوزا ببلاش. وإذا ما عطاها وصَرّف عليها بتكرهه. وأنا يا حبيباتي، ما عاد عندي شي ببلاش أبدًا. بسّ بالوقت نفسه ما عدت صاحب واحد ما بنبسط معه، من بعد هالنقيب المهري. شو الله جابرني. حتى تاعُه (تقصد عضوه) للواحد صرت أفحصه. وصار الرجّال إذا حطّ شفافه على شفافي وما رغبته بقلّعُه. صار تمّي مفتاحي، وبعد هيك يا بكمّل، يا ما بكمّل. وياما لمّن بشوف تاعو مش حلو ما بكمّل. بسّ لما بستأنس بكمّل. وحياة الله، لو بدُّه الواحد يملّكني الدنيا وما بدّي كمّل ما بعملها لو ما معي ولا قرش. بدّي إستمتع، قدّيش بعد في بالعمر؟

ثم نظرت إلى سعاد وقالت لها:

ـ وإنتِ يا هبلا، خلّي قلبك يدقّ من الحبّ والغرام مش من الضغط. يلاّ قومي روحي عيشي وزتّي هالمقبور جوزك ورا ضهرك.

لم تعد عزيزة تخرج مع أحد منذ تعرّفت إلى جورج فغالي، في حفل غداء دعتها إليه صديقة في منطقة جبيل، وكانت برفقة منى. افتتن جورج بها وأحبّته لأنّه وسيم ويصرف عليها في الوقت ذاته.

لكنّ عزيزة خائفة من أن يتركها جورج بعدما أخبرتها منى أنّ صديقها الذي تقيم معه علاقة منذ خمس سنوات ويصرف عليها، قطع علاقته بها ولم يعد يدفع لها ولا يردّ حتى على اتّصالاتها الهاتفيّة منذ أن أصيب بالعجز الجنسي.

ذات يوم دخلتُ بيتها فوجدتها تصلّي، فاستغربت من الأمر. حين انتهت من الصلاة، قلت لها: شو... عم تصلّي؟ شو هالإيمان، الله هداك؟

فأجابتني وهي تضحك:

ـ اسكتي يا نهلا، والله ميتة من الخوف. صلّيت لـ الله ليوفّقني ويوفّق أولادي، وقلت بصلّيلو كم ركعة زيادة ليخلّيلي تاع جورج. شو بعمل إذا صار عنده عجز جنسي وقطع عنّي المصروف وصار ما بدُّه يشوفني، متل ما عمل صديق منى؟

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

- ١٠ -

شيء ما في ذلك الصباح، كان يدعوني إلى الكتابة.

طوال الليل كنت أفكّر في هاني. شوقي إليه أشعرني كأنّ اللغة تفتح يديها وتدعوني إلى أن أغرف منها ما يعبّر عن هذا الشوق، وأكثر.

فتحتُ النافذة على هواء ربيعي بارد، أنيق وطيّب الرائحة. تنفّستُ الصعداء، ثم اتّجهتُ إلى مكتبي، وجلست خلفه لأبدأ بالكتابة كعادتي في الصباح، بعد أن شردتُ متأمّلة ضوء الشمس الضارب إلى نصف الغرفة كيف يختفي ويظهر بفعل الغيوم العابرة القليلة، وحيث بدا لي أنّ الشمس تلعب معي لعبة الغمّيضة لأكتشف أين اختبأتْ أثناء غيابها.

لم أكن قد كتبتُ سوى بضع كلمات حين رنّ جرس الهاتف، وتفاجأت بنادين على الخطّ تطلب منّي أن تراني لأمر ضروري. صوتها كان مجروحًا كما لو أن سكّينًا حادّة حزّته. قالت لي إنّها مشت لأكثر من ساعتين على كورنيش المنارة المحاذي للبحر وحدها حزينة، ولا تستطيع أن تحكي ما بها لأحد سواي. شعرتُ بأنّ أمرًا ما حدث لها، فدعوتها إلى بيتي.

رمت رأسها على كتفي وانفجرت بكاءً لمّا فتحتُ لها الباب. وبعدما سألتها تكرارًا عمّا بها، أجابتني:

ـ الدكتورة سحر رح تجنّني. خلّتني يا نهلا إتعلّق فيها وحبّها وفكّر فيها ليل نهار، وهيّ عم تلعب فيّي.

ـ مين الدكتورة سحر؟

ـ وِحدي تعرّفت عليها ومغرومة فيها لفوق راسي.

ـ طيّب، بعلمي إنّك إنتِ وميرنا...

ـ إييه ميرنا حياتي وحبيبة قلبي وما في أحلى منها، وهي حاسّة قدّيه عم بتعذّب. بسّ الدكتورة سحر من بعد ما عملت علاقة معي وعلّقتني فيها، قطعت لي كرت، وما عم تردّ على تليفوناتي.

ـ يا دِلّي أنا، يعني إنتو بتتعذّبو وبتنوجعو بالحبّ مثلنا نحن والرجال؟

ـ إييه شو لكن، وأكتر. شو نحنا مش بشر يا نهلا؟

ـ طيّب ما دام بتحبّي ميرنا، شو بدّك بالدكتورة هاي؟

ـ أنا صحيح بحبّ ميرنا، بسّ عاملي Passion قوي على الدكتورة، مش بإيدي. واللي مجنّني قال هيّ عندها صديقة بتحبّها كتير، وما فيها تتركها ولو خانتها. وقال أنا مش أكتر من نزوة بحياتها. ولو بتشوفي صديقتها هاي اللي مغرومة فيها، بتسوا صرماية. بشعة. ما إلك نَفس تطلّعي فيها. قصيرة ونحيفة أكتر منّي، وشعرها مقصوص متل الصبي. واللي خاوتني إنُّه أنا عندي

تجربة وبعرف أشياء كتيرة وأساليب وبقدر إسطها أكتر منها بكتير.

كان وجه نادين شاحبًا وهي تحكي وتفتح لي قلبها، وتروي لي أسرارًا لم أعرفها من قبل برغم أنّها صديقتي منذ أيّام الطفولة. كلّ ما كنت أعرفه هو علاقتها بميرنا، وتعلّقها القديم أيّام الطفولة بالمدرّسة لبنى، التي كتبت مرّة حرفَي اسميهما على قلب رسمته للتعبير عمّا بينهما من مشاعر. أحبّت نادين الرسمة وأحبّتها، لكن آنذاك لم تنشأ علاقة جنسيّة بينهما، والأمر لم يتعدَّ الملامسة.

حكت لي نادين عن أسرار وذكريات كما لو أنّها تحكي عن امرأة أخرى لم تعذّبها أو تجرحها يومًا، أو تحوّل مشاعرها في اتّجاه آخر مثلها.

كانت أرنبة أنفها العالية محمرّة من البكاء، بينما شعرها الأحمر المتجعّد المنسدل على كتفيها تردّه خلف أذنيها بين لحظة وأخرى، فيصير النّمش المتوزّع على وجهها أكثر بروزًا ولمعانًا.

قالت لي ذلك الصباح، إنّها عشقت الدكتورة سحر، وشعرت تجاهها بشغف لم تشعر به تجاه أحد، حتى مع حبيبتها ميرنا التي ساعدتها في تربية أولادها منذ طلاقها من زياد.

تحرّشت بها الدكتورة سحر في عيادتها.

نزعت الكمّامة عن فمها، تاركةً أنفاسها تتداخل بأنفاس نادين، وهي تحشو ضرسها برقّة ودقّة شديدتين، بينما موسيقى أغنية Sympathy تخدّر جسدها رويدًا رويدًا، وهي مغمضة العينين، ممدّدة على الكرسيّ.

فتحت نادين عينيها لمّا انتهت الدكتورة سحر من عملها، فانغرزت نظراتهما ببعضها البعض، في الوقت الذي راحت فيه الدكتورة سحر تلامس رقبتها بطريقة حسّيّة وبطيئة، وهي تسحب الفوطة الصحيّة المربوطة في عنقها، وتقول لها إنّهما وحدهما في العيادة بسبب مرض سكرتيرتها. أدركت الدكتورة سحر أنّ نظرات نادين سُبقتها في الاستسلام لها، وأنّ جسدها ارتخى وغير راغب في أن يبرح الكرسي الجالسة عليه. مدّت الدكتورة سحر يديها وحضنت بهما خدّيها. سألتها ما إذا كانت قد انزعجت من فتح فمها الشهيّ الجميل لحوالى ساعة، فأمسكت نادين بيديها وهزّت لها رأسها بإشارة النفي، ثم عادت وأغمضت عينيها. وبأقلّ من ثانية، وجدت نفسها هي والدكتورة سحر متعانقتين فوق الكرسي قبل أن تهبطا إلى الأرض وتبدآ بنزع ثيابهما وتناما معًا.

قبل أن تغادر نادين بيتي في ذلك الصباح، اتّفقنا على اللقاء في اليوم التالي في بيت ميرنا حيث دعتنا أنا وهدى وسعاد لتمضية حفلة رأس السنة. سعاد لم تكن متحمّسة للسهرة، إذ كانت راغبة في تمضيتها في منزلي وحدنا، إلاّ أنّها عادت ووافقت بعد أن لاحظت حماستي، فسليم كان خارج البلاد، وهاني سيمضي السهرة مع زوجته وأولاده.

لم تكن سهرة عادية. غنّينا ورقصنا إلى ما بعد منتصف الليل.

لم أرَ سعاد تشرب كما فعلت تلك الليلة. احمرّت عيناها وبدتا

زائغتين، بينما وجهها تلاعبت به جميع الألوان، فبدت البقع الحمراء أكثر سطوعًا فيه. هدى لم تُوقف نكاتها عن الرجال العاجزين جنسيًّا، إلاّ حين توسّعت حدقتا عينيها وهي تتأمّل جسد ميرنا كيف يتلوّى بحنان وسخونة باتّجاه نادين، التي رقصت معها قليلاً، ثم عادت وجلست على الكنبة.

بدت نادين قلقة ومهمومة طوال الوقت. كانت منهمكة في إرسال «مسّاجات»، كأنّها ظلّت بلا جواب، بينما الغيرة راحت تلمع في عيني ميرنا التي أخذت تلاحقها وهي مشغولة بهاتفها الخاصّ، متجنّبةً التقاء نظراتهما. إثر خروجنا، بقيت نادين في بيت ميرنا لتبيت عندها، لكنّها أدارت لها ظهرها في الفراش وراحت تتقلّب بين لحظة وأخرى وهي تتنهّد، ما جعل ميرنا تقوم مرارًا وتضيء «اللمبادور»، وتسألها وهي تحتضنها ما بها.

بكت نادين وشكت إليها أنّ الدكتورة سحر تتهرّب منها، وأنّ الغيرة تملأ قلبها لأنّها بالتأكيد تمضي ليلة رأس السنة مع صديقتها. ملأ السماح قلب ميرنا لشعورها بصدق ألمها، وانزاحت مشاعر الغيرة عنها، لتغلب عليها مشاعر الحنان التي تجرف جبالاً، وليس أحاسيس الغيرة فقط. راحت تهدّئها، متمنّيةً في سرّها أن تمرّ عاصفة رغبتها تجاه الدكتورة سحر لتعود إلى أحضانها. بعد أن كفكفت دموعها قالت لها:

ـ بقلّك شو؟

ـ شو، قوليلي؟

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

- بعتيلها ميساج قوليلها Happy New Year Love.

- صرت باعتتلها مية مرّة بسّ ما عمّ تردّ.

- رجعي بعتيلها.

أعادت نادين كتابة الرسالة، بل بقيت طوال الليل ساهرة، ترسل إليها برسالة تلو الرسالة، لكنّ الدكتورة سحر لم تردّ. أمّا ميرنا فبقيت تداعب شعرها حتى ترتاح وتشعر بالأمان، إلى أن غفت فجرًا بين أحضانها.

كانت نادين منذ تعرّفت إلى ميرنا لا تفترق عنها أبدًا. إلاّ أنّ جنون عشقها للدكتورة سحر لم تعرف كيف هبّ عليها، وهي التي لا يستهويها سوى أفلام الويسترن، بينما نادين عاشقة للسينما الخلاّقة والمركّبة والمبدعة. استغلّتها الدكتورة سحر لتغيظ صاحبتها في وقت أحسّت فيه بالضجر، لكنّ نادين أحسّت معها بما لم تعرفه مع غيرها. معهنّ كانت تعمل على إثارتهنّ وإشعارهنّ باللذّة، أمّا معها فكان الأمر معكوسًا. لكنّها تركتها وعادت إلى صاحبتها.

ولا تنسى ميرنا كيف وقفت نادين إلى جانبها حين تعرّفت إليها، وكانت في حالة ضعف شديد، إثر طلاقها من زوجها أوائل التسعينيّات بعدما اكتشفت أنّه على علاقة حبّ بسكرتيرته وتزوّجها سرًّا. وكانت ميرنا قد أسلمت بسببه وتزوّجت به بعد قصّة حبّ طويلة جعلتها تنتقل من الأجواء اليمينيّة المتطرّفة إلى اليسار ومناصرة للقضيّة الفلسطينيّة مثل زوجها.

آنذاك تعرّفت نادين إليها في بيتي، حين عهدتْ إلى ميرنا بتغيير ديكور البيت والأثاث، فهي مهندسة ديكور، إلاّ أنّها مهتمّة بالموسيقى العربيّة القديمة، ما جذب إليها نادين، العاشقة للموسيقى والسينما والرقص الشرقي والمسرح، برغم تخصّصها في إدارة الأعمال. لكنّها صارت تعمل منذ انتهاء الحرب أوائل التسعينيّات في مجال التسويق الإعلاني والدعائي في إحدى الشركات.

كانت صدمة ميرنا بزوجها كبيرة، وكانت قد فقدت الثقة بنفسها، حين مدّت نادين يدها إليها، وصارت تتردّد على بيتها وتساعدها في تربية أطفالها. تتبادلان العاطفة والحنان، كانتا جائعتين إليهما، إلى أن جمعتهما خيبات الحرب، برغم الاختلاف الاجتماعي بينهما. فميرنا من عائلة مسيحيّة ميسورة، بينما نادين مسلمة من أصول فقيرة. وحكت لها منذ الأيّام الأولى لصداقتهما، قصّة انتحار أختها ربيعة، أيّام طفولتها، وعذابات أمّها مع أبيها.

ولم تنفر ميرنا من نادين حين أخبرتها ذات ليلة، بميولها بعد جلسة مصارحة وثقة بينهما، وإن توتّرت لبضعة أيّام. ونادين لم تعد تحدّثها في الموضوع، وتركت الأمور على مجراها.

ذات ليلة، عادتا معًا إلى بيت ميرنا إثر عشاء في بيتي دعوت إليه سعاد وعزيزة أيضًا، وكانتا قد شربتا كثيرًا، فاستجابت ميرنا لمشاعرها، إذ كانت تحت تأثير الكحول.

كان السرير غارقًا في العتمة والصمت، بينما الإضاءة منبعثة من شاشة التلفاز، حين تسمّرت عينا نادين في عينيْ ميرنا، بعدما

تمدّدتا على جنبيهما في السرير، ورأساهما على مخدّتين متقابلتين.

سألت نادين ميرنا إذا كانت تحسّ بما تحسّ به بعدما مرّرت يدها فوق كتفها، وقالت لها إنّ كتفها باردة. ابتسمت ميرنا وأمسكت بيد نادين ولفّت ذراعها حول عنقها، فقرّبت نادين وجهها وقبّلتها على خدّها، ثم مسحت يدها على شعرها بلطف وحنان. همست لها بكلمات لم تستطع ميرنا أن تسمعها، إلاّ أنّ أنفاسها الحارّة شعرت بها في أذنها. بعد لحظات مدّت نادين إصبعها ولامست شفتي ميرنا وابتسمت، ثم انتقلت إلى ملامسة رقبتها ومداعبة جسمها بعدما شعرت بأنّه راح يسوح تحت أناملها.

تلك الليلة تعذّبت فيها ميرنا لتبلغ النشوة، لأنّها كانت المرّة الأولى، ولم تكن بعد معتادة على جسد امرأة، وكان زوجها لا يزال يسكن في جسدها، إلاّ أنّها كانت مُثارة ومرتبكة وسعيدة. لكنّ ذلك اللقاء العاصف الأوّل بينهما أبقى ميرنا في البيت أسبوعًا فاتحةً ساقيها، ولن تستطيع المشي بعدما عضّتها نادين في عانتها عضّة قويّة طبعت شكل أسنانها عليها، حين تملّكتها رغبة في الإيلاج فيها، ولم تكن تستطيع بالطبع.

لم تعرف ميرنا لماذا كانت تحبّ شعيرات جسم نادين. كثيرًا ما تساءلت إذا ما كانت تذكّرها بسِمة من سمات الرجال، أم لأسباب أخرى تجهلها. لكنّها لم تعد تفكّر في الأمر بعدما قالت لنفسها ذات يوم: يا إلٰهي، كيف تتداعى الأشياء بالذاكرة، ولماذا يريد الواحد أن يعرف أسباب الأشياء. يكفيني أن أعرف مسألة واحدة، وهي أنّي أحبّها، ولا أشعر بأنّي شاذّة أو منحرفة. ذهب ذلك

الإحساس بأنّي غير طبيعيّة تمامًا، ويذهب أكثر حين أكون معها، أو حين ألتقي بها في السرير.

القبلة صارت تعني لها شفتي نادين. ذهب أيضًا ذلك الإحساس الذي رافقها طويلاً حين كانت القبلة تذكّرها بشفتي زوجها، منذ رقصت معه قبل زواجهما في حفلة، وكانت لا تزال شابّة صغيرة. يومها لامست شفته السفلى زاوية فمها، فشعرت بسخونة. طُبعت تلك القبلة في مخيّلتها طويلاً. وراح أيضًا الإحساس بالذنب الذي تولّد لدى ميرنا في الأيّام الأولى لعلاقتها بنادين المسحورة بأنوثتها. صحيح أنّها ضخمة الجسم، مثل الدكتورة سحر، لكنّ المسحة الأنثويّة غير منحسرة مثلها. تنفض شعرها الطويل الأسود حول وجهها البيضاوي الحنطي باستمرار في حركات متحرّرة ومُغوية لتُبعده عن وجهها، لكنّ رائحتها تغيّرت، كما لو أنّ للهورمونات والأحاسيس رائحة تتغيّر مع تغيّرها. نبتت لها أيضًا بعض الشعيرات في ذقنها. أمّا الدكتورة سحر فكانت قصيرة الشعر، تضع نظّارتين، وترتدي باستمرار بنطالاً من الجينز وجاكيتًا جلديّة سوداء في الشتاء، وتصرّفاتها كانت تذكّرها بثريّا، زوجة زعيم كبير أيّام الحرب، ولم تكن يومها مصدرًا للحبّ فقط، بل للقرار أيضًا.

ثريّا، هي أوّل من قاد نادين إلى درب السحاق أواخر الحرب الأهليّة اللبنانيّة. كانت نادين آنذاك في أوائل الأربعينيّات، تائهة ويائسة من الرجال، ومن الحرب التي عاشت فصولها في الأزقّة

وانجرفت إلى متاريسها، وعاشت تجربتها في الزواريب وخطوط التماسّ، وشهدت أبشع صورها من خطف وذبح على الهويّة، وقتال وتدمير عبثيّين. وكم شهدت بعينيها مجازر يرتكبها رفاق التنظيم، ما دفعها إلى تعاطي الكوكايين لنسيان ما رأت وشاهدت. آنذاك، لم تعد نادين الفتاة الخجولة التي كنت أعرفها منذ الطفولة، بل ازدادت غموضًا وجنونًا وضياعًا. وكانت دائمًا تائهة، كأنّها تفتّش في نفسها عن شيء يُنسيها ذاتها، ويجعلها إنسانًا آخر لا تكرهه أو تمقته فيها. تجربتها في التنظيم جعلت جسدها يتوه في خراب يفتّش عن ملاذ وأمان. رفاقها في التنظيم أيّام الحرب، كانوا يقنعونها بأنّ ممارسة الجنس مع رفيق جزءٌ من النضال والحرّيّة. ورياح التجربة قذفتها من حضن إلى حضن، فشعرت بأنّها منتهَكة ومستغلّة. وكلّما أقامت علاقة برفيق كان يتخلّى عنها بعدما يمارس الجنس معها. والذي جنّنها أنّ أحدهم بعدما عشقته وحلمت بالزواج به، طلب منها أن تمارس الجنس مع صديق له معجب بها.

هي تدرك أنّها فشلت في إقامة علاقة مهمّة بسبب الذكريات البشعة مع من أقامت علاقات معهم من الرفاق المنظّرين، أو المقاتلين، الذين كانت رائحة العرق والدماء تفوح من أجسادهم وأنفاسهم ولباسهم. وحاولت الخروج مع شابّ، حتى بعدما تحوّلت إلى سحاقيّة، إلاّ أنّها لم تحسّ بأيّ ميل تجاهه، فكفّت عن ذلك بعدما صارت تكره العضو الذكري، ويصيبها القرف منه.

كانت نادين قد اضطرّت للبقاء في منزل ذلك القائد العسكري في الحرب بسبب الأوضاع الأمنيّة الصعبة، ونامت في غرفة زوجته لعدم إمكان الذهاب ليلاً إلى بيتها بسبب القصف المتواصل. أدخلتها ثريّا إلى غرفتها بعدما أصابهما الضجر من أحاديث الرفاق الساهرين وهم يتفاخرون بعدد الشهداء في التنظيم. وقبل أن تدخل غرفة ثريّا، كانت نادين قد جالت بقرف على وجوههم وأجسادهم، وهم يقهقهون و«يكوكنون» ويشربون أفخر ويسكي في البلد، برغم ادّعائهم أنّهم يدافعون عن الفقراء. كما استوقف بصرها القميص والبنطال الأسود للقائد، وزنّاره الأبيض المليء بالأمشاط، ومسدّسه الفضّي الذي يلمع على جنبه.

وفي الفراش، همست لها زوجته ثريّا في أذنها، أنها تكره زوجها وتكره جسده وعضوه الذي يشبه مسدّس القتل. وطلبت منها أن تداعبها لأنّها لا تغفو بدون يد حنونة تلامسها. ثم أمسكت بيد نادين وصارت تلامس بها أمكنة حسّاسة في جسدها، لأنّ ثريّا لا تتخلّى عن دور الأنثى. ثم حدث ما كانت تجاهلته نادين طويلاً، وما صارت تتهرّب منه من الرجال الذين تكرههم. فقد كانت قد مرّت بتجربة عابرة بسيطة مع أستاذتها لبنى، إلاّ أنّها لم تصل إلى الجنس، ولم تكن مباشرة وواضحة كما حدث. ولم تكن تعي ما صار يريده جسدها، إلاّ في تلك الليلة.

كانت زوجة السياسي مهفهفة راقية وجميلة. وبرغم أنّ صورها في المجلاّت الاجتماعيّة والنسائيّة تكشف عن أنّها تلبس ما يُظهر أنوثة فائضة، وما خفّ من الثياب التي تكشف عن صدرها وكتفيها

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

في المناسبات الاجتماعيّة، فإنّ نادين اكتشفت أنّها تلبس البوكسر الرجّالي في ليلة الحبّ، وتفضّل أن تُلبس شريكتها الثياب الداخليّة السكسي كالبيبي دول والملابس التي يمكن خلعها بسهولة. وبرغم ماكياجها الكامل، فهي تحبّ في المرأة التي تعشقها، أن تكون طبيعيّة، وألاّ تخضع لعمليّات تجميل. وكثيرًا ما قالت لنادين إنّها لا تحبّ أن تصطبح بوجه بشع إلى جانبها مثل زوجها، ولا إلى امرأة مسترجلة، وإلاّ لما أقامت علاقة مع امرأة، ولا انتقلت إلى غرفة خاصّة بها، وأبقت مكانها في السرير إلى جانب رجل.

أوّل ما لفتها في نادين، شكلها، إذ إنّ أكثر ما يُثير انتباهها في المرأة، عيناها الحلوتان وشعرها الأشقر أو الأحمر، وكذلك شفتاها وصدرها، وتثيرها السكربينة التي تضجّ أنوثة في قدميها. وكثيرًا ما طلبت من نادين أن تتعرّى أمامها على أنغام موسيقى جميلة في جوّ مثير، وخاصّة عندما تكون «مكوكنة». أخبرتني نادين أنّها لا تفضّل استعمال الأدوات الاصطناعيّة، ولا تكتفي بمرّة أو اثنتين في الليلة، وحين تنطفئ تبكي وتنام. كانت تكره البوز المفاجئ، لأنّها كما قالت لها، حسّاسة في الفراش، ويمكن لأيّ حركة مزعجة أن تتسبّب في ردّ فعل عدواني منها، وقد تضربها كما فعلت بكثيرات. لذلك تفضّل التفاهم قبل الشروع في العمليّة الجنسيّة.

لم تكن العلاقات تأتي على طبق من الفضّة لثريّا. تطبخها وتنتظر المبادرة من الأخرى. ولا تطيق أن تغازِل، بل تذوب حين تغازلها الأخرى، وتُحسن الحكم على مظاهر ومؤشّرات قد لا

تكون صحيحة ودقيقة. تتقرّب من البنت تلقائيًّا كونها ودودة واجتماعيّة، فتجسّ نبضها بحذر، ثم تدعوها إلى بيتها أو إلى الخروج معًا، وتُسمعها عبارات يمكن تفسيرها غزلاً فتستجيب أو لا تستجيب. وهي تحبّ النساء كثيرًا مثل زوجها الدائم الخيانة لها، وتحبّ الإمساك بزمام الأمور مثله. صارت أنانيّة لأنّها ذاقت عذاب الحبّ معه، وصارت تحسب حساب حالها قبل غيرها. هي لم تطق إقامة علاقة مع امرأة متزوّجة، لأنّ أوّل علاقة أقامتها، وهي في الثانية والثلاثين، كانت مع امرأة متزوّجة عشقتها، ثم تخلّت عنها بعدما تعلّقت بها، وشعرت معها بما لم تشعر به مع زوجها. إلاّ أنّ نادين قطعت علاقتها بها يوم دعتها إلى ممارسة الجنس الجماعي في ليلة كانت «مكوكنة فيها»، وتعذّبت قبل أن تنساها.

برغم هذا الضجيج كلّه الذي تعيشه ثريّا، كثيرًا ما قالت لنادين إنّها امرأة وحيدة برغم العجقة حولها. يعذّبها الشعور بالوحدة الذي لم تقوَ عليه وتعتده.

تجاوزت نادين العدوانيّة تجاه الرجال وحسمت موضوع هويّتها الجنسيّة، وصار لها أصدقاء كثيرون مع الوقت. لكن ما يؤلمها أنّ بعض الأصدقاء يقولون لها علنًا إنّهم يحبّون مراقبة النساء السحاقيّات وهنّ يمارسنّ الجنس. وكثيرًا ما يلمّحون ويغمزون في كلامهم، للإفصاح عن رغبتهم في مراقبة اثنتين تمارسان السحاق، فكان هذا يؤلمها لشعورها بالاعتداء على خصوصيّتها، وخاصّة حين يقول الواحد منهم لها إنّه لا شيء يثيره أكثر من مشهد امرأتين

تمارسان الجنس مع بعضهما البعض، حتى إنّ بعضهم لا يتورّع عن طلب الالتحاق بهما في الفراش، هي وميرنا. وهذا ما جعلهما تتجنّبان الرجال كثيرًا. وقد شكت لي ذلك أكثر من مرّة.

حين قالت لي ذلك، لا أعرف لماذا فكّرت في أنّ أخي جواد لا تعنيه المراقبة بالتأكيد، وأجزم بأنّه لا يمكن أن يتخيّل جسده مقصيًا عن الفعل، وأنّه غير فاعل ومستبعَد، ولا شأن له.

- ١١ -

رنّ جرس هاتفي أكثر من مرّة وأنا عائدة من المستشفى بعد إجراء فحوصاتي الطبّيّة. فأزمة السير الخانقة أخّرت وصولي إلى البيت. كان سليم على الخطّ، يقول لي إنّه ينتظرني مع أصدقائه الذين دعاهم إلى الغداء، بالإضافة إلى أخي جواد، وعليّ ألاّ أتأخّر. أكّدت له أنّ كلّ شيء جاهز، وأنّ السفرة ستكون حاضرة في دقائق بعد وصولي.

طوال الطريق وأنا منزعجة. الفحوصات النسائيّة التي أُجريها سنويًّا بصورة منتظمة في هذا العمر، تكدّرني. تُشعرني كأنّ أحدًا جرّدني من الإحساس بأنوثتي، ومن ذاكرة جسمي، والمشاعر التي تختزلها أعضائي الحميمة. فحص «الموغرافي» سبّب لي اكتئابًا. أمسكَت الممرّضة بثديي وشدّته بأقصى ما يمكن من قوّتها، وألقَت به على الآلة ثم ضغطَت بالجهاز عليه فصرختُ من الألم. شعرتُ بأنّ ثديي ينسحل، وأنّ أحدًا ما يمسحه أو يساويه بالأرض، أو هو ليس سوى قطعة لحم همبرغر، نضغط عليها بشدّة لتستوي فوق النار. أمّا فحص الزجاجة فسبّب لي اكتئابًا آخر.

نزعتُ ثيابي وارتديت الروب الأبيض، ثم تمدّدتُ على سرير الفحص، فاتحةً ساقيَّ على آخرهما. طلبَ منّي الطبيب أن أهبط

بجسدي قليلاً وأثبّت قدميّ بطرف السرير ليتمكّن من إدخال الآلة. عضضتُ على شفتي وأغمضت عينيّ بعدما شعرتُ كأنّ أحدًا نتش بأسنانه جزءًا من رحمي، أو انتزع شيئًا منها. الإحساس بأنّ شيئًا يُقصّ منها، ولّد لديّ شعورًا بالاغتصاب. هذا الشعور الذي لم أعرفه مع زوجي، وإن كنت أنام معه إرضاءً له، وليس بدافع الرغبة.

الإحساس بالانزعاج كان لا يزال باديًا عليّ حين وصلتُ إلى البيت. أصوات الرجال في الصالون كانت تصدح عاليًا. لفتني كم صار صوت أحد أصدقائه عاليًا في حين كان شديد الخفوت أيّام شبابه. ولحظتُ كم تغيّرت رائحة الصالون بحضورهم. تغيّرت روائحهم كما تتغيّر روائحنا نحن النساء. من زمان حين كانوا يأتون، كانت روائح عطرهم ممزوجة برائحة الشباب التي تفوح من أجسادهم. الآن، تمتزج بروائح الأمراض والأدوية التي يتناولونها.

الأسطوانة ذاتها التي تتكرّر عدتُ وسمعتها. كم تغيّرت أحاديثهم وأنا التي أعرفهم منذ سنوات طويلة. كأنّ الكلام يلحق بصاحبه، وليس الرزق فقط، كما يقول المثل.

شفاههم راحت تتلمّظ وهم يستعرضون المأكولات والأطايب المحرومين منها بأوامر الأطبّاء، فأكثرهم يعاني أمراض السمنة والتقدّم في العمر. زوجي سليم بلع ريقه، مسح عينيه اللتين صارتا دائمتي التدميع من تحت نظّارتيه الطبّيّتين، حين راح صديق له يتباهى كيف أكل ليلة أمس عشرات الأسياخ من لحم الغنم

المدهن، عدا الحلويات العربيّة الدسمة. كانت ابتسامة طفوليّة ترتسم على وجه صديقه وهو يلامس كرشه المكوّمة أمامه، ويحكي بافتخار كيف أنّه لا يحرم نفسه من متعة الأكل، لأنّ فحوصاته الطبّيّة نظيفة والحمد لله.

مسح أخي جواد جبينه بيده، وقال له:

ـ نيّالك يا خيّي على هالنعمة اللّي الله عاطيك إيّاها. أنا الحكيم حارمني من كلّ الأكل. مبارح استحليت آكل كنافة بجبن. يا أخي اشتهيت. ويا لطيف! نطّ السكّر وطلع قدّ ما بدّك. دخت وكنت رح أوقع بالأرض. إيه، هاي عيشة؟ يحرق حريشها ملاّ عيشة!

رحتُ أفكّر، وهم يتحدّثون عن شهوتهم للطعام، كم أنّ الدنيا غير عادلة، تصير مُتَع الشهوات واللذائذ ممنوعة، أو شبه مستحيلة مع تقدّمنا في العمر، برغم أنّنا لم نكن ندركها بهذا العمق، أو لم نكن نعرف أن نلتذّ بها كما نصير نفعل لاحقًا. كما خُيّل إليّ أنّ اللذائذ تصير شفويّة. كأنّ الفم يستعيض عن المُتَع الأخرى، ويصير مركز اللذّة. تذكّرتُ ما قالته لي سعاد التي كانت شديدة النحول لكرهها الطعام. صارت تلتذّ به في هذا العمر، وتدرك قيمة اللذائذ المحرومة منها.

جال بصري بدون إرادة منّي على ما بين أفخاذهم وهم يحكون عن الطعام. أصحاب البطون المنتفخة من أصدقاء زوجي الجالسين، بدت أعضاؤهم كأنّها مبتلعة أو ممسوحة، بينما الضمور بادٍ، والانتفاخ هابط بين أفخاذ البعض، بعكس أيّام الشباب حيث يكون الانتفاخ عاليًا. ومنهم من كان عضوه يتدلّى على جهة واحدة

من البنطال، كما لو أنّ هذا العضو مطاطيّ الرأس، أو منكّس. فكّرت كم أنّ ذلك لا ينتقص أبدًا من رجولتهم أو جاذبيّتهم أو إنسانيّتهم، على عكس ما يُخيّل إليهم.

الحديث عن أمراضهم لم ينقطع ونحن نتناول الغداء. راح يستعرض كلّ واحد منهم الأدوية التي يأخذها، وكذلك الفيتامينات والمقوّيات التي يأخذها. ودار نقاش طويل ما إذا كان فيتامين «فارماتون» أفضل، أم «السينتروم»، وأيّ المقوّيات أفضل: الفرنسيّة، أم الأميركيّة، أم الكنديّة، أم السويسريّة.

لم أسمع شيئًا من التلفاز حين انتقلت إلى غرفة الجلوس بعد الغداء عندما بدأوا بلعب الورق في الصالون. كانت ضحكاتهم تصلني حين أخبرهم زوجي سليم قصّة عمّه رضوان. تزوّج وهو في الثمانين من عمره بامرأة في الخامسة والثلاثين. تغيّرت مشيته ونظرته، وظهره ما عاد منحنيًا وعادت لمعة ما إلى عينيه. لكنّه صار لا يخرج من البيت إلاّ ليحكي عن رجولته، وكيف أنّ الزواج بالصبايا أهمّ من الأدوية وأنّه سعيد في حياته لأنّه استعاد عافيته. لكنّه في المدّة الأخيرة أُصيب بالخرف. لم يعد يحكي إلاّ عن قدرته الجنسيّة وهو بالكاد يمشي. ذات يوم، جاءته شابّة صغيرة في الحيّ الذي يسكنه، وقالت له:

ـ عمّ رضوان، عمّ رضوان، جارنا أبو علي عم بموت، بدُّن ياك تجي تدير وجُّه على القبلة وتقرأ له الشهادة ليحفظها ويُسمعها للملايكة بالقبر بسّ يجوا يحاسبوه.

فأجابها بدون أن يفكّر، وهو يشيح ببصره عنها، ويلوّح بيده إلى الخلف:

ـ روحي خلّيه ينام مع شي وحدي صبيّة صغيرة بترجّع روحه إلُه. النومة مع الصبيّة بتشيل الواحد من القبر.

حكاية عمّ زوجي نقلتهم إلى الحديث عن النساء، فقال أحدهم:

ـ شو هالحكي يا إخوان. إذا الوحدي مش صغيرة وفرفورة وبتشقّ القلب وجسمها بيحكي حكي لشو؟ يا عين الوحدي لمّن بتكون سحبة إجريها وصدرا غير شكل. إيه بتجنّنك.

راحت قهقهاتهم تصلني ومعها أشمّ روائحهم. وعَلَت ضحكاتهم حين صاروا يحكون عن عجائب الفياغرا. روى أحدهم كم طالت مدّة انتصابه وهو يمارس الجنس مع امرأة هام بها كثيرًا، وضُبطت معه أخيرًا. راح يصف قدراتها، وكيف أثارته بجمال جسمها وحركاتها. صارت تفرفر بين يديه مثل الدجاجة إلى درجة أنّها أفقدته صوابه. وختم حديثه بالقول:

ـ يحرق حريشها مش متل هالمرا اللي عندي. لا بتهشّ ولا بتنشّ.

هزّ سليم رأسه كما لو أنّ ذلك الرجل عبّر عمّا في صدره.

انسحب أخي جواد من بينهم، ولم يشارك في الحديث عن الفياغرا التي يرفض الاعتراف بتناولها، مثلما رفض تقدّمه في السنّ وصبغ شعره وشعر صدره. وكاد يكذب على الطبيب بعدما أجرى له الفحوصات الطبّيّة، حين سأله:

www.mlazma.com ^RAYAHEEN^

- وكيفك بالجنس؟

- بُمبا يا حكيم.

- أوف، والله إنك وبهالعمر؟ ما شاء الله عليك. يعني ما بوصفلك مقوّيات جنسيّة؟

- بصراحة يا حكيم، صارت القصّة صعبة، أجاب الطبيب بعدما سمع بالمقوّيات.

- وليه بدّك تتعذّب؟ ليش الطبّ مش لخدمة الرجال؟ لشو الفياغرا وغيرها؟ أجابه الطبيب.

لم يصدّق أخي جواد خبرًا. صارت الحبوب الزرقاء لا تفارق جيبته احتياطًا، وهو الذي لم يعد يشغل باله سوى قضيّة عضوه، بعدما كانت قضايا الأمّة العربيّة الكبرى تشغله أيّام شبابه.

كاد يجنّ حين أُصيب بعجز موقّت يومًا. بقي لشهور لا يستطيع أن يقرب زوجته سميحة، ولا أيّ امرأة أخرى بعدما رأى عضو أمّي. دخل غرفتها في المستشفى قبل رحيلها، وشاهده بعينيه، في اللحظة التي كانت فيها الممرّضة تفتح ساقيها وتنظّفها إثر سحب الزحّافة من تحتها. هاله المشهد. أغلق عينيه بيده، وولّى هاربًا من الغرفة. راح يتعرّق في الممرّ والنار تغلي في بدنه، وفي وجهه المحمرّ الذي بدت الدماء فيه ستنفجر. بقي لفترة طويلة يُصاب بالارتخاء ويتخيّل عضو أمّه أمامه كلّما نام مع سميحة أو غيرها ممّن يقيم علاقة معهنّ. طار من السعادة بعدما استطاع أن ينام أخيرًا مع سميحة. قام عنها، وراح يمشي عاريًا في غرفة النوم

ذهابًا وإيابًا، نافخًا سيجارته إلى الأعلى متباهيًا بجسده، مختلسًا النظر إليها ليرى ما إذا كانت تتطلّع إلى عضوه وهي ممدّدة على السرير. وفي الحمّام، وقف تحت الدوش مستمتعًا بالصابون، وبالماء الساخن الذي ينهمر على جسمه، سعيدًا وفخورًا بعضوه، يغسله بين يديه، ويقول له بينه وبين نفسه: آه يا ملك، برافو عليك يا شاطر، يلّلي بيّضت وجّي، وما خذلتني.

غيّرت الأيّام أخي جواد، وبهدلته بعدما كبر في السنّ.

كان الشابّ الوسيم الدونجوان الذي ذابت بغرامه عزيزة، وعشقته أجمل بنات الجامعة اللواتي كان يغرّر بهنّ، ثم يترك الواحدة منهنّ بمجرّد أن ينام معها. كما اعترفت لي نادين بأنّها أقامت معه علاقة لفترة من الوقت. كان يتحدّث مع الواحدة منهنّ عن الثورة وضرورة التحرّر، أمّا في البيت فكان إنسانًا آخر. كان هو السيّد الذي لا تصير كلمته اثنتين. منعني من الزواج بهاني، ووقف في وجه أبي وكاد يتضارب معه حين قال له إنّها تعرف مصلحتها وإنّ حياتها ملكها. كان المدلّل عند عمّتي رُقيّة، وأمّي التي ربّته على الصورة التي تريدها لسلطة الأخ.

طيلة عمره، كان أخي جواد مهووسًا جنسيًّا، ولا يرى في النساء سوى أعضائهنّ الجنسيّة. حين يعبر بسيّارته من أمام منزل أيّ امرأة من النساء اللواتي أقام معهنّ علاقات، يدلّل على بيت الواحدة باسم عضوها.

لا يستطيع أن يتخيّل امرأة تعجبه ولا ينام معها. يمرض إلى أن

يستحلم بها، إن لم يستطع الوصول إليها. وحين ينام مع زوجته أو أيّ من عشيقاته، يفكّر في أنّ هناكِ امرأة ما تعبر في الشارع وسينام رجل آخر معها.

الافتخار يبدو عليه، حين يقول كلمة «عشيقاتي» بالجمع. فمن نقصان الفحولة أن لا يذكرهنّ بالجمع. وحين سمع مرّة من صديق له يقولّ إنّ قياس القدم الكبير يعني أنّ عضو الرجل كبير، صار يتقصّد أن يمدّ رجليه أمام فتاة تعجبه لأنّ قياس قدمه كبير.

لم تكن تستهويه بنات الجامعة بقدر ما يشتهي بنات الهوى اللواتي اكتشف متعته معهنّ. أمضى حياته في البارات والكابريهات، هاربًا من سميحة زوجته. والغريب أنّه حين كان يقع في غرام أيّ امرأة كان يهيم بها حبًّا عذريًّا. الحبّ بالنسبة إليه غير الشهوة أو امرأة الخيال التي لن يلتقي بها أبدًا. والمرأة التي يهيم بها لا يقدر على لمسها، أو تخيُّل نفسه ينام معها.

تحمّلت سميحة من أخي جواد ما لم تتحمّله امرأة. لم تستطع تغييره وجعله يحسّ بوجودها إلاّ بعدما صارت مريضة وفي حاجة إلى الرعاية، وبعدما استنفد هو قواه.

كانت سميحة قويّة، لوت عنقه وفرضت عليه الزواج بعدما صدّته يوم غازلها. لم تسمح له حتى بلمس يدها، فكسرت رأسه، وهو الذي يعتبر نفسه زير نساء لا يُقاوَم. استقوت عليه بعد الزواج بعذريّتها ثم بأولادها، كما كانت تستقوي عليه بمعاداته خلال نزواته النسائيّة خارج البيت. لا تصالحه وتنام معه إلاّ بعد أن يعلن توبته ويقبّل يديها ويلعن الشيطان الذي لعب برأسه، والنساء اللواتي

هنّ شرّ مطلق ويُلهين الذِّئب عن عليقه كما يقول المثل. وسميحة صابرة، تبلع ريقها والمرارة حزّت صوتها فصارت بحّتها الدائمة مَعلَمًا من شخصيّتها. لم يكن يناقشها في شيء، بل نادرًا ما يحكي معها. وصارت مع الوقت ضعيفة بعدما استنزف قواها.

زارتني مرّة وشكته إليّ بحضور سعاد وهدى. ثم قالت لي أمامهما إنّها صابرة راضية بدور الضحيّة. ثم تنهّدت وقالت: ليس المهمّ أن يشرّق ويغرّب مع النساء. المهمّ أنّه في آخر المطاف يعود إلى بيته، وينام في حضني.

هدى قالت لي بعدما خرجت سميحة:

ـ بتعرفي يا نهلا، تفو علينا نحنا النسوان. باسم القوّة منكون ضعاف، وباسم الصبر متبهدل. الوحدي بتحبّ تكون ضعيفة ليصير يشفق عليها جوزا، ويقول ما أحلاها ما بتترك هالمرا. كيف فيهن النسوان يعملو هيك؟ يعني الوحدي قاعدي بالصورة اللّي مرسومة للنسوان. المهمّ يقلّها يا مرتي يا حبيبتي، ويبعبص فيها ليوم القيامة. خلّي هالنسوان ينبسطوا، خرا عليهن، قال آخر النهار بيركع وبيقلّها بحبّك يا مرتي. بتضلّ المرا ناطرة هالكلمة، ولو راح عمرها.

لم تعد سميحة تبالي بأخي جواد، وهو الذي لا يقرب منها منذ أُصيب بالضعف الجنسي بسبب أمراضه، ولا تُقيم له وزنًا، ولا سيّما بعدما وجدت مرّة الحبوب الزرقاء في جيب بنطاله. ما حرصت عليه هو طقوس عاداته. تعدّ له قهوته الصباحيّة، وتضع

تفّاحة واحدة على الصينيّة لبأكلها، قبل شرب القهوة، وبعد أن يتهي من دوشه الصباحي.

ذات صباح دخل غرفة الجلوس ليشرب قهوته، فوجد «جاطّا» من الفواكه بدلاً من التفّاحة الواحدة. لمّا جلس على الكنبة، تناول تفّاحة وراح يكدشها مستهجنًا تدليل سميحة له، ثم أدرك أنّها تكافئه بجاط الفواكه بعدما تذكّر أنّه نام معها في الليل. مسح شعيرات صدره بيده، وانفجر ضاحكًا وهو يقول بينه وبين نفسه:

ـ يا الله على النسوان، ما أنا بعرفهن ومقبّع ضراسي منن. كلّهن قحاب. يعني هيدا اللّي بدها اياه المرا من الرجال لتعبّره وتغنّجه.

كان أخي جواد قد أخذ حبّة الفياغرا وهو في طريقه بسيّارته لمواعدة امرأة تعرّف إليها، لكنّها اتّصلت بهاتفه النقّال وألغت الموعد. عاد إلى البيت ونام مع سميحة بعدما قال لها إنّه مشتاق إليها كما لم يشتق من قبل. أدركت هي بينها وبين نفسها أنّ شيئًا ما حصل. هي تدرك جسمه وحجم قدرته. وهو لا يأخذ الحبّة الزرقاء من أجلها، لأنّه سيجد نفسه مفضوحًا أمامها، وغير قادر على التباهي بفحولته. الحبّة عندها لن تُرضي صورته أمام نفسه، كما أمام النساء الغريبات الجاهلات قدرته.

الحبوب الزرقاء التي لجأ إليها أخي جواد كانت سببًا أوقعه في المهالك أكثر من مرّة.

حدث ذات مرّة، أن حجز غرفة في أوتيل مطلّ على البحر في

جونية بعدما تواعد مع امرأة ليمضيا ليلة فيه معًا. ملأت رائحة عطره البيت قبل أن يغادره. احتارت سميحة وتوتّرت من السعادة البادية عليه بعدما أقنع المرأة بالموعد، وهو الذي حام طويلاً حولها. وضع حبّة الفياغرا في جيبه وحبّة المنوّم في الجيبة الأخرى لإدراكه أنّه غير قادر على النوم بدونها حين يغيّر مخدّته وسريره. لمّا وصلا إلى الغرفة انتظر دخول المرأة إلى الحمّام ليأخذ الحبّة، وليصير لها مفعولها بعد أن يقبّلها ويداعبها. لكنّه خوفًا من أن تخرج وتراه يأخذها، أخطأ في هدفه، وشرب على عجل حبّة المنوّم بدلاً من حبّة الفياغرا. وفي خلال دقائق راح يتثاءب وهي مستلقية إلى جانبه، وغطّ في النوم وصار يشخّر. نهض صباحًا فلم يجدها، فاستغرب ما حصل وأصيب بالخيبة. لم يكتشف ما جرى معه إلاّ بعد أن مدّ يده إلى جيبه، ووجد أنّ الحبّة الزرقاء ما زالت فيها، فضرب على رأسه ولعن ساعة النساء.

اتّصل بها في اليوم الثاني معتذرًا، ومتذرّعًا بأنّه كان شديد التعب. رضيت عليه بعدما قال لها إنّ شعوره بالأمان معها جعله يسقط سريعًا في النوم. عادت وواعدته في منزلها، لأنّ أمّها التي تعيش معها ستكون في الجبل وستبقى فيه ليومين.

وضع أخي جواد حبّة الفياغرا في علبة صغيرة في جيبه كي لا يحدث أيّ خطأ هذه المرّة، وقصد بيتها. فتح العلبة ليأخذ الحبّة على عجل في اللحظة التي ذهبت فيها المرأة لتحضير كأس له، فوقعت منه الحبّة الزرقاء على السجادة الزرقاء. ضاعت ولم يستطع أن يعثر عليها. ولمّا عادت المرأة وفي يدها الكأس تفاجأت به

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

يمشي على أربع قوائم، مثل الدوابّ ويمسح السجّادة بيديه، ووجهه ملتصق بها لضعف بصره. وقف مرتبكًا لمّا سألته ماذا يفعل وعمّا يفتش، وأجابها:

ـ لا، لا، حبيبتي ما في شي. هالسجّادة عاجبتني وبتاخد العقل، وعم شوف نوعها إذا حرير ولاّ قطن. يخرب بيتها ما أجملها هالسجادة.

لم ينقذه من الفضيحة أمامها سوى اتّصال أتاه من صديق، فقال لها بعد أن أغلق الخطّ:

ـ بعتذر منّك كتير حبيبتي. في موضوع كتير مهمّ بالبيت، ولازم إرجع.

خرج من بيتها وتنفّس الصعداء. وقف أمام المصعد متوتّرًا منتظرًا وصوله على أحرّ من الجمر والعرق يتصبّب منه قبل أن يولّي هاربًا. لم يحاول أن يتّصل مرّة أخرى بتلك المرأة خجلاً، لكنّه صار أحيانًا يأخذ الحبّة الزرقاء قبل أن يخرج ليلاً ليسترزق في الكابريهات والبارات، وإن لم يسترزق فسميحة حاضرة للاسترزاق.

في خريف عمره صار أخي جواد، الأستاذ الجامعي في الفيزياء، يقصد البارات ليسعد ويمرح مع المومسات بعد أن منعه الطبيب من الفياغرا وحذّره منها. والغريب أنّ الجنس لم يعد يعنيه. همّه حين يختلي بالواحدة منهنّ أن تزكزكه بعد أن يقف أمام

الحائط، كما كان يقف ساعة يعاقبه أستاذ القرية أيّام طفولتنا، رافعًا يديه مديرًا ظهره لها. ولا أدري لماذا يفعل ذلك، وإذا ما كان بزكزكته يستعيد بذهنه نشوته الأولى مع المومس قوت القلوب التي لم ينسها أبدًا، أم أنّه يجد هذه النشوة في اللعب مع جسده. غرابة سلوكه الجنسي لم تقف عند هذا الحدّ، ففي أحد الأيّام راح يلفّ بيروت بسيّارته في الليل، فأوقفته في أحد زواريب شارع الحمرا شابّة صغيرة بدا عليها أنّها تمارس الدعارة. لمّا صعدت إلى سيّارته وجلست إلى جانبه، طلبت منه أن يعطيها خمسة دولارات. التفتّ إليها بنظرة متفحّصة، وسألها:

ـ وليش بدّك خمس دولارات؟

ـ بيسطك فيهن وشو ما بدّك، أجابته.

ـ لا، ما بدّي، خذي هالخمس دولارات بسّ فرجيني عليه.

تصلّبت نظراته على عضوها وراح يحدّق فيه بعدما رفعت فستانها وأنزلت كيلوتها وهو يقود سيّارته. ثم سألته إذا كان يعطيها خمسة دولارات أخرى مقابل أن تكشف له عن صدرها، فأعطاها ما طلبت، ثم رفعت بلوزتها ليراه، فيما أوقف سيّارته في زاروب معتم وخالٍ من المارّة. وقبل أن تنزل من السيّارة أعطته رقم هاتفها، وقالت له:

ـ اتّصل فيّي وقت ما بدّك. أنا حاضرة فرجيك قد ما بدّك يا إستاذ.

تاب أخي جواد عن النساء بعدما صار عضوه يتخذله، وصار

خادمًا لزوجته سميحة لمّا هدّها المرض وباتت في منتهى الضعف، أضعف من أن يتحمّل رجل النظر إليها أو الرغبة فيها. راح يرعاها ويحمّمها ويغسلها ويأخذها يوميًّا إلى المستشفى لغسل كليتيها.

بكاها كثيرًا إثر موتها. لم يدفنها في القرية، بل في بيروت ليزورها باستمرار. والغريب أنّه صار يقف أمام قبرها ويحكي معها ما لم يكن يحكيه في حياتها، وصار يبكي لأتفه سبب بعد موتها.

وذات ليلة، نهض وسط الليل على صوت مطر ينهمر بغزارة، بعدما سمع صوتها وهو نائم، وخُيّل إليه أنّها تناديه. استفاق وصار يفكّر في أنّ سميحة تكره البرد، وأنّها بالتأكيد ترتجف الآن من البرد القارس في قبرها، وإلاّ لما نادته وهو نائم بأعلى صوتها. تقلّب كثيرًا في الفراش وحده وهو يفكّر فيها. وبدون أن يعي، نهض من السرير، نزع شرشف النايلون الذي يغطّي طاولة المطبخ وقصد المقبرة تحت المطر الشديد، غطّى القبر به، وراح يحكي معها وهو يبكي، ودموعه تمتزج بماء المطر.

ـ ١٢ ـ

طوال الطريق وسعاد صامتة كعادتها، ونحن نشقّ الضباب على طريق الجبل في اتّجاه البقاع. ضباب كثيف مثل غول أبيض يبلع سيّارتي التي أقودها، ثم يجري مسرعًا فوق القرى والجبال والغابات لالتهامها. أبهجني ما أراه. دفعني إلى الرغبة في الصراخ، وربّما إلى البكاء. فالجمال لا يُبهج فقط، بل يوجع كما تفعل اللذّة. فجأة وجدتني أصرخ وأنا أتأمّل مشهد الضباب والطبيعة:

ـ يا الله، أنا شو بحبّك. أكتر شي بحبّك بسّ شوف جمال. ويا لطيف شو بشوف وجّك فيه.

نظرتْ إليّ سعاد بذهول، ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة. كانت المرّة الأولى التي أرافق فيها سعاد إلى قرية أمّها في البقاع، بعدما دعتني إلى حضور عرس ابن خالتها منيرة التي أحبّها كثيرًا. رقصتي لفتت الأنظار. جعلتني أشعر بأنّي أطير على أجنحة نظرات المحتشدين حولي والإيقاع الموسيقي لتصفيق أياديهم. زوج سعاد بدا مبهورًا بي. رقص معي، وأسمعني بعد ذلك كلمات غزل حسبتُها ليست موجّهة إليّ، بقدر ما هي كلمات يختزنها صدره وأفرغها أمامي.

عدنا من العرس مشيًا على الأقدام إلى بيت جدّتها لننام، البيت

الذي كانت تمضي سعاد فيه أكثر أيّام صيفيّتها ونحن صغيرتان. كان اللون الأزرق قد اختفى من السماء. تلوّنت بطبقة خفيفة من غيوم داكنة تتراوح بين البنّي والأسود والرمادي، بعد أن كانت أمواج من الألوان تتلاعب بها.

قمر البقاع في الليل يُذيب القلب. من الصعب أن يراه أحد بهذا الجمال في أيّ منطقة في العالم. كأنّ بيته الأصلي ومسكنه هناك. مستأنس وسعيد وفي كامل راحته وجماله. ضوؤه الساطع وسط سماء قريبة يُبهر الروخ ويبدّد أيّ كرب أو عتمة فيها. تمنّيتُ لقربه الشديد لو أنّ يدي أكثر طولاً لمددتها وطلته بها، وسرقته وأخفيته في جيبي.

كان فوقنا كأنّه يتبعنا طوال تلك الطريق الترابيّة ونحن عائدتان إلى بيت جدّتها وسط أوراق الشجر الصفراء المتساقطة على الأرض في خريف ذلك العام. كنت أسمع موسيقى حفيفها ونحن ندوس عليها. كان لا يزال أمامي مشهد جدّها، ذلك العجوز الثمانيني الذي كان يرقص وسط حلقة من الشباب حوله، يتفرّجون عليه بعدما أفرغوا المساحة له. خبط أرجلهم الهادر، اختزن قوّة الشباب، لكنّ دبكته، بموسيقى جسده وأحاسيسه وحركاته، اختزنت كلّ أسرار الذكورة والفروسيّة. كتفاه ترتفعان كما لو أنّ نجوم السماء تلمع عليهما، وهو يتمايل ويرقص بجسده النحيل على إيقاع خيزرانته. انخطفت عيناي لغواية جسده، وللحنان الذي يشعّ في أخاديد وجهه، ولخيزرانته التي كانت تشطح كأنّها تجلد الهواء والزمن والضجر.

في بيت جدّها العتيق المبني من الحجارة القديمة، جلسنا في غرفة الجلوس فوق صوفا يغطّيها بساط شرقي، خلفها مساند مصنوعة من قماش البسط وألوانه الشرقيّة المزركشة الدافئة. كانت المرّة الأولى التي أراها في بيت جدّها. هناك بدت مرتاحة في حركة جسمها وفي كلامها على غير عادة.

للمرّة الأولى منذ زمن طويل، أحسستُ بأنّها تتصرّف على سجيّتها، وممتلئة حبورًا ورضىً وطمأنينة.

تلك المشاعر ظهرت دفعة واحدة، على عكس الأيّام الماضية، حيث كانت تكتفي بسماعي أُحدّثها عن هاني وغراميّاتي. نادرًا ما كانت تتحدّث عن نفسها، وإن فعلت فسرعان ما تصمت. فجأة ألكزها قائلة: «كمّلي، وبعدين؟»، فتنظر وهي مبتسمة، وتبقى صامتة.

في ذلك اليوم طفح وجه سعاد بأسرار كثيرة وأوجاع أكثر. كان دمها حائرًا في كلّ جسمها، بين أخمص قدميها ورأسها، وعلى وجهها كلام. لم يسبق أن حمل فجأة هذه الرغبة في الحكي، ليس لأنّ لقاءاتنا لم تكن تتّسع سوى لهمومي وأسراري، بل لأنّها كانت تفضّل أن لا تحكي عن علاقتها بزوجها وأولادها، خاصّة بعدما أصابها المرض الجلدي. فجأة، أتاني صوتها مليئًا بالأرق، وزالت عن وجهها علامات الرضى والطمأنينة التي كانت بادية عليه، فأحسست بأنّ لديها شيئًا ما تودّ أن تقوله. ولم يكذب إحساسي. استلقت أسفل الصوفا على الطرّاحة، كأنّها تريد أن تحكي بدون أن أراها:

ـ لاحظت سلوك زوجي؟

ـ شو قصدك؟

ـ أكيد حاول يغازلك. بدّي تعرفي إنّه هوّي رجّال عينه بيضا وما بتفرق معه إذا إنت صاحبتي ولاّ لأ. ما عنده فرق بين مرا ومرا، صاحبتي، تلميذته، مش فارقة معه، المهمّ الوحدي مرا.

ـ ما تقوليلي إنّك عم تغاري. كبّري عقلك يا سعاد.

ـ لا أبدًا. الموضوع مش موضوع غيرة أصلاً. نسيتها من زمان. يا ريت عندي إحساس بالغيرة. شعوري هو خليط من القبول والطاعة والقرف والتسليم واليأس، وكل شي بيشبه هالأحاسيس. اسمعيني، وما تعلّقي. اربْطي لسانك واكتفي بالسماع.

أخيرًا نطقت سعاد.

يترك سليمان البيت، ويترك خلفه رائحة عطره قبل أن يتوجّه إلى الجامعة. فلا همّ له سوى جذب تلميذاته والخروج معهنّ ومغازلتهنّ. تغرق عيناه في عسل السعادة حين يأتيه اتّصال من إحداهنّ. يُطيل الحديث معها في غرفة نومنا التي تركتها له مذ صرتُ أنام في غرفة ابني بعدما سافر إلى أميركا لمتابعة تعليمه.

دسّ سليمان يده بشعيرات صدره المتلبّدة البيضاء داخل قبّة روبه، وقال لها باستهزاء:

ـ شو عم تحتجّي إنّه عم بحكي مع تلميذاتي. ليش إنتِ مفكّري

حالك مرا. رُوحي يا إختي حلّي عن وجّي، وطلّعي بحالك وبوجّك بالمراية.

للمرّة الأولى انفجر صوتها في وجهه عاليًا. أحسّت بأنّ جسدها كلّه بركان صوتي ينفجر، بل شعرت كأنّ صوتها العالي جرّها بقوّة وصدمها بحائط أو بعمود حديدي فتكسّرت، بعدما خُيّل إليها أنّه يهرّبها، وتلحق به ليأخذها إلى الخلاص. أحسّت بأنّ الأذيّة وصلت إلى كليهما، وهي تحاول أن تخيفه بصراخها وترمي رعبها عليه لتتحرّر من هذا الرعب. الصراخ كسّرها، إلاّ أنّها شعرت بشماتة بكلّ الذين يصرخون بهذه الطريقة، ووعدت حالها بألاّ تصرخ ثانية أبدًا.

في الفترات التي كانت تريد فيها أن تستقوي على زوجها لتستعيد إحساسها واعتبارها ذاتها بأنّها أقوى وأهمّ منه، كانت تفرش صورها أيّام شبابها في البيت كلّه. كانت تقول لنفسها وهي تتفرّج على الصور، إنّه يمكن أن يشوّه كلّ زمنها الحاضر، لكنّه لا يستطيع أن يشوّه ذلك الزمن.

أكثر من مرّة وزّعَتْ صورها في زوايا متعدّدة في غرف البيت، لكنّه كان يمرّ من أمامها بدون أن يلتفت إليها. مرّة، لمحته يلتفت إلى إحداها ويتوقّف أمامها، لكنّها فهمت من نظراته كأنّه يتطلّع إلى صورة امرأة جميلة لا يعرفها ولا يتذكّرها يوم تعرّف إليها، وتبدو غريبة عليه كلّ الغربة. تلك النظرة زادت الإحساس بغربتها عن ذاتها، وعن صورها القديمة ونكران ماضيها لها، وباتت غير قادرة على مشاهدة صورها. فجمعتها ووضعتها في درج خاصّ في

www.mlazna.com ARAYAHEENA

خزانتها، ولم تعد تتطلّع إليها. وفي مرّة من المرّات، فتحت الدرج وكلّها رغبة في تنظيفها وترتيبها. وما إن فعلت ذلك حتى صعدت إلى أنفها رائحة عفونة. شعرت بأنّ ماضيها كلّه قد تعفّن، فأغلقته ولم تفتحه ثانية أبدًا.

في البداية كانت سعاد الطرف الأقوى في العلاقة مع سليمان. فرضته على أهلها، وفرشوا له بيتها الزوجي. مهّدت له حياته المهنيّة بأن عرّفته إلى الدكتور الذي أشرف على الدكتوراه التي أعدّها، كما أنّ أهلها لجأوا إلى سياسي كبير لدعمه في توظيفه كأستاذ جامعي. كما كانت ناشطة اجتماعيًّا وسياسيًّا، لكن لا أدري لماذا صارت عندها حيثيّات اجتماعيّة دونيّة، فاعتبرت بينها وبين نفسها أنّه شيء جيّد أنّه قَبِل بها. هل لأنّها انصدمتْ بالتغيير في الحرب وانسحبت من التنظيم الذي انتمت إليه في خلالها، أم بسبب التشوّهات الجلديّة التي أصابتها، أم أنّ كلّ شيء تبدّل في حياتها وعائلتها، فانقلبت رأسًا على عقب؟

في المقهى الذي التقينا فيه مع صديقتها هدى، التي صارت من أعزّ صديقاتي، أخبرتنا يومها أنّها اتّفقت على الزواج مع سليمان. كان ذلك في بداية التسعينيّات. جاءت ترتدي قميصًا واسعًا فوق جينزها الأزرق، ووجهها ممتلئ بالكلام، والانفعال بادٍ على محيّاها. حجرا عينيها اللتين كانتا مشروحتين آنذاك، يبرقان ويلعبان بمرح وسط بياضهما النقي. قالت إنّ سليمان جذبها، وأحسّت بكيمياء تجاهه، لكنّ قرار الزواج الذي اتّخذته مبنيّ وفق معادلة

منطقيّة: الزواج والأولاد يقوّيان المرأة. وسليمان بسيط وطيّب ومناسب. لم أتدخّل في الحوار الذي جرى بينهما، حين راحت سعاد تحكي عن الزواج على أساس معادلة:

ـ خلص يا هدى ما تنغّصي عليّ سعادتي. أنا كبرت بالعمر ولازم إعمل معادلة، وبدّي إتجوّز وجيب أولاد. وعلى كلّ حال، خَلَص اتّفقنا.

ـ بسّ الزواج ما بينبنى على معادلة «بسّ».

ـ مبلى، ما إنتِ كمان عاملي تسوية بينك وبين طارق، جوزك، حتى إذا خانك بتغضّي النظر.

ـ أنا عاملي تسوية، وبغضّ النظر عن هفوات يمكن يعملها. بسّ بعرف إنّه بحبّني قد ما بحبّه وأكتر، وبعاملني كتير منيح، وأنا بموت عليه.

ـ وأنا هيّتي رح حبُّه، وعاجبني. وهلّق فهمتُه لسليمان أكتر، وقبلته أكتر، وما في مشكلة بالزواج.

ـ بين تحبّي وبين تقبلي في فرق.

ـ بين الحبّ وبين القبول في بوّابة بدُّه الواحد يفتحها، ومرّات الواحد ما بينتبه إنّه البْواب مفتوحة. وإذا على الحبّ، في الواحد يفيّق شي بداخله. يفتّش على الحبّ وينمّيه ويسقيه ميّ على قد ما بيحتاج. يعني متل زهرة، لمّن بتعرفي قدّيش بدّك تسقيها بتعيش.

ـ شو هالحكي هيدا. أنا حبّي ما بقدر قرّر قدّيش بدّي إسقيه. الحبّ هو اللي ما فيكي تقمعيه وتحدّيه متل النهر. اللّي عم تحكي

عنّه شكل من أشكال الحبّ. هلّق في ودّ ومحبّة وفي فرق. الحبّ اللّي عم بحكي عنّه فيه ولع وتيه ومفردات كتيرة، تحت عنوان الحبّ والغرام.

– شوفي يا هدى، أنا ما عاد بدّي إفتح الشبّاك على الآخر، وإترك البرداية تلعب وتخبط بالهواء. صحيح إذا فتح الواحد الشبّاك على الآخر بينتعش شويّ، بسّ الدنيا بتتخربط كلّها وبتتبعثر الأغراض. ويمكن الواحد يبرد كمان. لأ، صرت فضّل إفتح الشبّاك شويّ أو سكّروا ودوّر المكيّف على الريموت كونترول، وأقعد وكون أكتر أمان. كلّ الأشياء المحدّدة أسهل، وبتخلّيكي تعرفي دورك. إذا فتحتي الشبّاك شويّ، فيكي تحصي النجوم، بسّ إذا وقفتي بفضا كبير مكشوف ما فيكي تحصي النجوم، وبتضيعي، وبتتخربطي.

– بسّ في أحلى منها إنّه الحبّ يخلّيكي مكشوفة على فضا واسع، وتشوفي كم نجمة في بالسما؟

على الكنبة ذاتها التي اعتاد سليمان أن يجلس عليها في الصالون كلّ مرّة يزور فيها أخاها يوسف، راحت نظراته تلاحق سعاد كلّما عبرت الممرّ في اتّجاه المطبخ. توهّج وجهه وبرقت عيناه الكبيرتان حين أتت بصينيّة القهوة، وجلست قبالته. راح يختلس النظر إليها وهو يتناقش مع أخيها يوسف في السياسة وأمور البلد، بينما أطراف أصابع يده اليمنى تنقر على يد الكنبة الخشبيّة بطريقة انفعاليّة. وكان سليمان قد غازلها حين فتحت له الباب، مُبديًا

إعجابه بتألّقها بالكنزة الحمراء ذات القبّة العالية التي ترتديها في ذلك اليوم الشتائي القارس.

في الأيّام الأولى التي تعرّفت فيها سعاد إلى سليمان، لم يلفت نظرها، بل لم تشعر بوجوده. كانت على علاقة سرعان ما انقطعت مثل علاقات سابقة مرّت بها، بعد انقطاع علاقتها بحبيبها السابق مروان أيّام الجامعة. ما زلتُ أذكرها كيف كانت تجلس على ركبتيه بشعرها المعقود ذيلَ حصان، تتدلّع عليه، سعيدة بكنز الغرام الذي عثرت عليه. لكنّها أجهضت لاحقًا أيّ محاولة للتفكير فيه بعد انقطاع العلاقة، ولم تكشف لي أسرار نهايتها، مكتفيةً بالقول إنّه لا يستحقّ مشاعرها. وفي كلّ علاقة أقامتها لاحقًا، كانت تكتشف أنّ الحبّ الذي تعيشه ليس حقيقيًّا، وأنّه ليس الغرام الذي تحلم به، إلى أن اقتنعت بسليمان. عادت فكرة الزواج تراودها بعدما كانت قد أزاحتها عن رأسها طويلاً. كانت مضت مدّة طويلة على إغلاق الباب على علاقتها بمروان وكفرها بهذا النوع من الرهانات. وكانت آنذاك قد صارت ضدّ الزواج وإنجاب أطفال في بلاد تعيش حروبًا كلّ عشر سنوات، أو عشرين سنة على أبعد تقدير. إنجاب الأطفال ليس سوى وقود للموت وأدوات للحروب أو للهجرة فقط. وافقها طارق آنذاك، في اليوم الذي دعتنا فيه زوجته هدى إلى عيد ميلادها في بيتها. يومها قالت سعاد إنّه لم يعد يهمّها سوى تدريسها الفلسفة في الجامعة، وإنّها تولي الجانب الأكاديمي في حياتها شأنًا كبيرًا.

في اللحظة التي طرق فيها سليمان الباب وفتحت له، لفتتها طريقة

نظرته الشهيّة لها، التي لا تنمّ عن نظرة افتراسيّة، بقدر ما تعبّر عن انبهار وفرح بها. وفي اللحظة التي غرق فيها سليمان في الكتبة، راح يتحدّث عن أحلامه في متابعة دراسته لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة مثلها. بدا لها متواضعًا وطموحًا. حكى عن ظروفه المادّيّة الصعبة، وبدت ثقافته في الفلسفة واسعة حين راح يتناقش معها، وخاصّة قراءته نيتشه، الذي عادت وقرأته مرّة ثانية بعد خروجه. في لحظة من اللحظات، انقلبت صورته في عينيها، فلم يعد سليمان صديق أخيها، المعدم الفقير والقصير، بل رأته طويلاً أمامها، حاضرًا بالقوّة التي يلمع فيها الحبّ والطموح في عينيه. خُيّل إليها أنّ بؤبؤي عينيه يسحبان جسدها لتصير جالسة فيهما، يحتضنان بعضهما البعض. كما أحسّت بلذّة غير طبيعيّة وهي مسحوبة إليهما. حدث ذلك في لحظة مكثّفة بدت كأنّها زمن طويل، وهو إحساس لم تشعر به من زمان، منذ انقطعت علاقتها بمروان.

فرضت سعاد سليمان على أهلها وهي في سنّ الثلاثينيّات آنذاك بعدما استهواها. وما جعلها تقتنع بالزواج، بعدما أزاحت الفكرة طويلاً من رأسها، أنّها آمنت بمقولة نيتشه بأنّ الأمومة تهب القوّة والسلطة للأمّ. وهي كانت في حالة ضعف شديد في الحرب.

لم تترك سعاد لأهلها أيّ ذريعة لرفض سليمان. فهي البنت المدلّلة عندهم. تغيّر وضع سليمان، واكتسب ثقة بالنفس، بل صار يضطهدها ويحتقرها، ويقرف منها، ولا ينام معها، وخصوصًا بعد المرض الجلدي الذي أصابها.

• • •

بعد انقطاع لأشهر طويلة، وللمرّة الأولى في حياتنا منذ الطفولة، إثر زواجها، التقيت بها صدفة في إحدى الندوات. عادت صداقتنا لتصير أقوى، بل رجعت الصديقة الأقرب إليّ، كما أيّام الطفولة والمراهقة. لكنّي في ذلك اللقاء لم أعرفها نهائيًّا حين رأيتها. كنت أعرف أنّ الإنسان يتغيّر، لكنّي لم أسمع أنّه قد ينقلب ليصير شخصًا آخر فاقدًا ملامحه السابقة كلّها. أحسستُ بأنّ سعاد تلك وُلدت وعاشت وماتت، ثم بُعثت إلى الحياة وهي كبيرة في السنّ بهذه الملامح التي اكتسبتها.

كانت نحيلة جدًّا، وملامحها رقيقة، ونظرتها طفوليّة إلى درجة تبدو فيها كأنّها كائن طيفيّ. لم أكن أدري لماذا كانت تعطي الآخرين الإحساس بأنّها قابلة للانكسار لشدّة رقّتها، فتولّد لديهم رغبة في حمايتها ورعايتها والوقوع في غرامها، مع إدراكهم أنّها غير قابلة للكسر، وأنّ لها قوّة داخليّة خفيّة تمنعهم من السيطرة عليها.

تفاجأتُ حين لاحظت كم تغيّرت، وأندهش باستمرار كيف صارت الآن.

ملامح وجهها النحيل كأنّها ضمرت وصارت أقلّ. شفتاها الزهريّتان الرقيقتان صارتا مبلوعتين وبنّيتي اللون وأقلّ نحافة. لا أدري ما العضو المعطوب فيها الذي جعل جلدها مقشّرًا وشرايين جسمها تتفجّر، فصارت بشرتها مرعبة بلونها النيلي وشرايينها النافرة. أمّا سحنة وجهها التي كانت مائلة إلى اللون الحنطي الجذّاب، فصارت شبيهة بلون الشعير العكر، وممتلئة بالبقع الكبيرة الداكنة اللون.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

وما هالني في سعاد أنّه تولّد لديها شعور بالدونيّة لم تكن تشعر به في حياتها سابقًا. وأذكر كم كانت تنتقد عزيزة لشعورها بهذا أيّام مراهقتنا. فقدت ثقتها بنفسها، وخاصّة بعد المرض الجلدي الذي ربّما أصابها من القهر والتوتّر والألم والوحدة، وانقطعت علاقتها الجنسيّة بزوجها سليمان بسببه.

ذاتَ يوم، أواخر أيّام الحرب، كان الطقس حارًّا والكهرباء مقطوعة، فلبست شورتًا لتشعر بالبرودة، وتخفّف الحرارة عن جسدها. تطلّع زوجها إلى تبقّعاتها الجلديّة في ساقيها، وقال لها:

ـ قومي خبّي مرضك عنّي. مين بيحطّ عنده مرا متلك ببيته. كسّ إخت شنصي شو أخو شرموطة.

في تلك اللحظة تهاوت مشاعر سعاد كلّها تجاهه. شعرت بأنّ هذا الرجل الذي تزوّجت به وفرضته على أهلها بشكل سريع، هو أكثر ما تكره في الدنيا. وفي الوقت ذاته أحسّت بأنّها عاجزة عن تركه لشعورها بالضعف واللااحتضان، من أهلها ومن أولادها.

لم تفكّر سعاد سوى في خالتها منيرة التي تحبّها لدفئها وتشعر بالأمان معها كلّما قصدت بيتها. تضع رأسها في حضنها وتصير ترقيها. تتشاءب خالتها كعلامة أكيدة أنّ سعاد مصابة بالعين. تمسّد على جبينها. تداعب شعرها فتشعر بطمأنينة وبزول ألم رأسها.

نزلت سعاد من بيتها الكائن في شارع الوتوات في منطقة الصنائع، واتّجهت نحو منطقة زقاق البلاط القريبة من خطوط التماسّ، قاصدة بيت خالتها منيرة. راحت تسير في الشوارع الخالية بسبب القصف، لا تعرف من أين تنهمر دموعها. عبرت

الشوارع غير آبهة بالمسلّحين المدجّجين بالسلاح والقنابل والمنتشرين في زوايا الأزقّة ومداخل الأبنية وعلى سطوحها. أمام باب نصف مفتوح لمحلّ يبيع ثيابًا مستعملة، ناداها صاحبه، وقال لها إنّ لديه صناديق جديدة فتحها اليوم وأكيد ستجد فيها ما يعجبها. الشارع كان خاليًا من المارّة، والمحلاّت كلّها مغلقة باستثناء دكّانه. كانت دموعها قد هدأت، والإحساس بالفراغ والحزن دفعها إلى دخول المحلّ، بعد أن رفع صاحبه جرّاره إلى الأعلى.

كان الشابّ طويلاً، أصلع الرأس، وكتفاه عريضتان. لونه يميل إلى البَرَص، ووجهه مجدّر، وعيناه خضراوان فيهما نقاط سوداء كأنّها نقاط شهوة. أمّا رموشه البنّيّة فأطرافها فاتحة اللون.

داخل المحلّ انتابها إحساس غريب. شعرت بأنّ جسدها بالٍ ومستعمل مثل الألبسة، وفي الوقت ذاته غائب مثل أصحابها، لكنّ رائحة العتق والرطوبة والعفونة في هذه الثياب أثارتها وحرّكت مشاعرها الغرائزيّة. كانت هذه الرائحة تصل إلى أنفها فتشمّها باستئناس كلّما عبرت من أمام محلاّت البالية. لمّا دخلت بين الثياب في الممرّ الضيّق للمحلّ أحسّت بأنّ نظرات الشابّ تلاحقها. التفتت إلى الخلف فشعرت بأنّ ثمّة خيطانًا مشدودة ومتوتّرة بينها وبينه حين التقت نظراتها بنظراته. لحق بها ووقف إلى جانبها يفتّش بين الثياب المكوّمة على الأرض مثلما تفعل. وراح يمسك بين لحظة وأخرى قطعة ويطلب منها أن تجرّبها، وهو يقرب منها ويلامس صدرها بيديه. عرقه كان يتصبّب متجمّعًا نقاطًا فوق

شفته العليا، آثاره تركت دائرتين كبيرتين تحت إبطيه بقّعتا قميصه الأصفر الفاتح. لاحظت سعاد أنّه مهتاج، انتفخ ما بين ساقيه تحت بنطاله، وراحت أنفاسه تتعالى. طلب منها أن تقيس قميصًا اختارته، وفتح لها باب الحمّام في مؤخّرة المحلّ. أخذته سعاد من يديه ودخلت مغلقةً الباب خلفها. رائحة الرطوبة في الحمّام الصغير الذي بالكاد استطاعت الوقوف فيه، كانت قاتلة. أرضه ممتلئة بالماء الذي ينشّ من السقف والجدران، والمرآة الصغيرة فوق المغسلة أفسدتها وغبّشتها الرطوبة والوسخ. وفي الوقت الذي شلحت سعاد لتجرّب القميص فتح الشاب الباب وهجم عليها، راكعًا على الأرض، وبدأ يقبّلها بين ساقيها. استجابت، ونزعت بنطالها بعدما فعل، وراح وهو يقبّلها يُسمعها كلامًا عاطفيًّا، ويقول لها «يا تقبريني». أغمضت عينيها واستسلمت للنزوة. رَسَمَت شخصًا آخر في عينيها لم تقل لي من هو. وبلحظة برق نام معها. لبست بعدها سعاد ثيابها على عجل وخرجت من المحلّ بدون أن تلتفت إليه. كان شعرها مبلّلاً من العرق ومن نقاط الماء التي سقطت من السقف على رأسها. عادت دموعها لتنهال أكثر بسبب ما فعلته. أحسّت بأنّها متوحّلة ومتّسخة، لكنّها قالت لنفسها بعدما هدأت، إنّه استمتع بجسدها المتبقّع، بينما هي استمتعت بكلمات تخيّلتها على لسان رجل أكثر رقيًّا ومدنيّة. يا لطيف، كم أنّ الإنسان قادر على خيانة نفسه، أضافت بعدما تنهّدت.

منذ ذلك الوقت لم تعد سعاد تمرّ في الطريق نفسها المؤدّية إلى بيت خالتها كي لا ترى الشابّ، بل تسلك طريقًا آخر. وبعد تلك الحادثة، لم تعد خيانات سعاد سوى في أفكارها، ولم تعد تحكي

لي عمّا تفكّر به، لأنّها لو تكلّمت فمعنى ذلك أنّها عادت وارتكبت الفعل.

• • •

لم تعد سعاد تتكلّم كثيرًا. غلبها الإحساس بالقهر، وأصبحت شاردة على الدوام، هي التي كانت البنت المدلّلة وسط عائلة من الذكور فقط. عائلة لم تعد ليبراليّة ومنفتحة، بل تغيّرت، وصارت متديّنة ومتعصّبة بعد الحرب، بسبب الأجواء الطائفيّة والاحتقان المذهبي الذي ساد في لبنان والمنطقة. حتى أخوها بلال الذي كان ماركسيًّا وقياديًّا في حزب يساري، تغيّر وصار قياديًّا في حزب ديني. طلّق زوجته ريما بعدما رفضت أن تتحجّب. ريما التي أحبّها وتساكن معها في باريس أثناء دراستهما هناك لسنوات، ثم تزوّج بها بعد قصّة حبّ طويلة، أرسل إليها ورقة الطلاق بعد أن وقفت في وجهه مفضّلةً الطلاق على ارتداء الحجاب. وعلى طريقه سار أخوها أحمد، الأصغر سنًّا في العائلة، المحامي الذي جُنّ جنونه على زوجته في البيت لأنّ ابنته البالغة سنتين من العمر بان كيلوتها أمام الزوّار الرجال، حين جلست على الأرض في الصالون تلعب بلعبها. هدّدها بالطلاق إذا ما بان كيلوت الطفلة مرّة ثانية أمام الرجال. وسعاد نفسها تحجّبت لفترة من الزمن. خُيّل إليها أنّها بالحجاب تستطيع أن تُخرس جسدها وتُميته، لكنّها اكتشفت أنّ باستطاعتها حجبه عن الآخرين، لكنّها لا تستطيع أن تحجب صوته عن أذنيها، وبقي يحدّثها، فعادت وشلحت الحجاب، واكتفت باللباس الطويل لتُخفي تشوّهاتها.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

كلّ شيء في حياة سعاد صار يُشعرها بالغربة عن حاضرها وماضيها. شعورها دائم بأنّها وحيدة ومنبوذة، ولا حضن لها أبدًا. حتى أولادها صاروا مثل أخوالهم، يرفضون سُفورها بعدما كبروا وتديّنوا. وزوجها يتعاطى مع أولاده كما لو أنّه أنجبهم وحده. هي لا تشعر بأنّهم يبادلونها العاطفة. تتحدّث عنهم بإعجاب كبير لتفوّقهم في الجامعة وذكائهم الحادّ، لكنّها تحكي عنهم كما لو أنّها تتحدّث عن أناس بينها وبينهم شكل من أشكال القرابة فقط، لكنّها ليست قرابة أمومة وانتماء. كأنّها تقتنع أحيانًا بأنّها ليست أمّهم، كما يريد زوجها. صارت تُخفي مشاعرها تجاههم وتقمعها. أكثر ما كان يُشعرها بتحقيق ذاتها، هو تدريسها في الجامعة. فلديها موقع أكاديمي مهمّ، وهي أستاذة فلسفة كفوءة. عندما قالت هدى ذات مرّة، ونحن جالسات في مقهى الروضة، إنّ المهنة مثل القبر والموت لكثرة ما تثير الملل، ابتسمت سعاد وقالت إنّها متصالحة مع مهنتها التي تعطيها إحساسًا بالحياة، وتشعر أنّها موجودة فيها إلى حدّ أنّها كانت تفترض أنّ مهنتها مصدر فعاليّتها الوحيدة، وليس الأمومة التي خذلتها، ولم تستطع أن تهبها القوّة. بل بالعكس جعلتها تقبل بأشياء لم تكن لتقبل بها أبدًا، لكنّها لم تكن تملك القدرة على الكفر مرّتين. مرّة بإيمانها بالحبّ والحرّيّة، ومرّة الكفر بالأمومة. هي صدّقت نيتشه، وذهبت إلى الزواج والأمومة ولم تعد تملك سوى هذا الخيار، إنّما خارج الصفّ في الجامعة، لم تكن تبادر إلى التحدّث مع أحد. لكنّ سعاد كانت تعيرني أذنيها في كلّ الأوقات وتستمع بانتباه إلى ما أقوله عن كلّ الأشياء. تجلس أمامي، ترفع تنّورتها، تمدّ رجليها، كما لو أنّها تريد أن يقبل أحد

بمرضها. أن يحبّها، ويعترف بأنّها إنسانة، وليست أنثى منفّرة. هي لم تعد تحكي كثيرًا مع أهلها. تستمع إليهم بلا مبالاة وهي صامتة. لم تحكِ سوى مع أبيها حين دخل في الكوما لأشهر طويلة. والدها الذي كان محافظًا ومؤمنًا. هو الوحيد الذي تصالحت معه آنذاك. كانت تزوره، وتحكي معه لوقت طويل في الغرفة وحدهما، وهو مغمض العينين وغائب عن السمع. تحكي معه وتشكو إليه زوجها وأولادها وإخوتها. ولم تكن توقف كلامها إلاّ حين تسمع صوتها وتنتبه إلى أنّها تتكلّم وحدها.

لا تكفّ سعاد عن الكلام مع حالها إلاّ حين تكون معي، حيث تشعر بأنّها تجلس مع ذاتها. والحقيقة أنّه لا أحد يمكنه أن يأخذ مكانها عندي، ولا أحد يستطيع أن يسلبها حيّزها منّي. تملّكتني الرغبة مرارًا في أن أحكي لها عن حضورها الخاصّ في حياتي، الذي لا يزيحه أيّ حضور آخر، حتى أولادي. مرّة واحدة حكيت لها كم هي حاجة حياتيّة لي، وسبب جميل لحياتي. قلت لها إنّها هي وهاني وأولادي يتقاسموننني. أحبّ كلّ واحد منهم على نحو مختلف، لكن بالقوّة ذاتها. والغريب أنّي لمّا كنت أحكي أحيانًا عن رغباتي وجسدي ومشاعري، كنت أشعر من نظراتها إليّ، بأنّي أحكي كلامًا طواه داخلها لسانها المبلوع.

الصمت دائمًا صار ملازمًا لسعاد.

شفتاها الرفيعتان، تبدوان لي موجتين تتقلّب عليهما الكلمات، ثم تسقط عنهما. ومثلما أحوك حكايتي بالكلام، تخيط فمها

بخيطان الصمت. صمت كأنّه ليس نابعًا من حزن أو من انكفاء اجتماعي، ولا هو صمت لجهل بالأمور، أو قصور وعدم فهم، بل هو صمت غامض لا أعرف أسراره. كأنّها بلعت صوتها، أو فلتَ منها وأضاعته. وحتى حين تمشي، لا أحسبها سوى كومة من الصمت تمشي.

لم يكن أحد يلتفت إليها غيري سوى عزيزة وهدى. ولا تبدو أنّها كانت تهتمّ بانصراف أنظار الرجال عنها. ضحكت مرّة، وبرمت يديها تعجّبًا حين أخبرتها عن امرأتين أعرفهما تخاصمتا بعد قصّة صداقة طويلة بينهما، عندما لطّش إحداهما وغازلها شابّ مشى خلفهما في شارع الحمرا. كلّ واحدة منهما ادّعت أنّه غازلها هي، وقامت القيامة بينهما برغم أنّهما في أربعينيّات عمريهما. مرّةً واحدة شعرَت بسعادتها عندما كنّا نجلس في مقهى السيتي كافيه. راح النادل يسألها باهتمام ماذا تريد أن تطلب بدون أن يلتفت إليّ. هو كان دائمًا يفعل ذلك حين نكون معًا، بينما لا يلتفت إليّ حين أكون وحدي. كان هذا النادل يبدّد فكرتي عن نفسي بأنّي أجذب الآخرين. سعاد كانت تستغرب، وتبدو الدهشة في عينيها، وأفهم منها أنّها تتساءل بينها وبين نفسها عن سبب اهتمامه بها وهو في سنّ أولادها.

كلّ الأشياء التي كانت تفعلها بإتقان لم تلغِ شعورها الدائم بالفقدان. فقدان مَنْ، وأيّ الأشياء، لا أعرف. إحساس غامض لم أدرك يومًا أسراره وكنهه ومصدره. كأنّها تعوّدت عليه وصارت معه مثل الحجر. الطراوة في حياتها لم تَطُل. السماء أحيانًا تعطيها فرصًا كثيرة، تهبها هدايا صغيرة، لكنّها كانت تتبخّر فجأة.

- ١٣ -

هدأ جسدي للتوّ من الطيران. إحساس بالمتعة لم أشعر به منذ زمن طويل. كان يراودني كثيرًا أيّام شبابي منام الطيران ذاته فوق ذلك الوادي السحيق في قريتنا. أخرج من جسدي ومن السرير، وأطير في الوديان. أنخفض ثم أعلو، وأتسلّق الهواء وأرفرف بمتعة في الفضاء. أحيانًا كثيرة كنت أرى نفسي أسقط فأفيق من النوم مرعوبة، وأحمد الله أنّ وصولي إلى حافّة الموت كان في المنام فقط.

أفقتُ على المنام ثم نسيته. فاسم هاني كان في فمي هذا الصباح، كأنّي أريد أن أناديه، بعد أن اتّصل أمس وتواعدنا على اللقاء. مرّت أيّام قليلة لم أرَه فيها بسبب انشغالاته. وبرغم أنّه كان يتّصل بي يوميًّا، لا أدري لماذا تملّكني رعب الهجران بدون مبرّر. جرحه القديم أشعر به يصير مفتوحًا ثانية على نار وهواء قاسيين وموجعين كلّما غاب. هذا الخوف دفعني إلى أن أقوم بأشياء تلهيني عن التفكير فيه. زرتُ قريتي التي لم أزرها من زمان، والتقيت بهدى مرارًا لأتعلّم منها كيف تحبّ زوجها، وكيف تحلم بأن يشيخا معًا. وقضيت وقتي كالعادة برفقة سعاد وبقيت أفكّر فيه. وحدها ولادة ابنتي أسعدتني وألهتني عن التفكير المتواصل فيه.

صباحي كان مشرقًا وبهيًّا. الشمس الضاربة إلى نصف مساحة

الصالون كأنّها أزالت رطوبة الانتظار عن روحي وجسدي. أخذت دوشي الصباحي كما لو أنّي أغتسل بماء السعادة والأمل. بدّلت بيجامتي، شربتُ قهوتي وقرأت الجريدة، ثم رحت ألعب مع حفيدتي البكر قبل أن تأتيني سعاد وهدى، بينما ابنتي فاتن ما زالت نائمة مع مولودتها الجديدة في الغرفة التي كانت مخصّصة لها قبل الزواج. شعرت وأنا ألعب معها، بأنّ حفيدتي حفيدة هاني، وأنّه في لحْظة من اللحظات جاءني من الخلف وأنا ألاعبها وأمسك بي، في اللحظة عينها رنّ جرس الهاتف وسمعت صوت سليم يسألني: كم كيلو لحمة بدّك اليوم.

لا أدري لماذا تذكّرت جدّتي أمينة، وأنا ألعب مع حفيدتي. جدّتي التي بقيت أفكّر فيها طوال الأسبوع الماضي منذ زرتُ قريتي. خوفي من هجران هاني مرّة أخرى، ولّد لديّ الرغبة في زيارة بيت أهلي في القرية. ربّما دفعني الهجران إلى الذهاب إلى أمكنة تشبهني، أمكنة حميمة وعزيزة، مهجورة مثل قلبي المهجور، وجسمي اليباب. أدرتُ سيّارتي بدون تفكير منّي، واتّجهتُ جنوبًا وحدي. أوّل ما فعلته زيارة قبور أبي وأمّي وجدّتي. قرأت لهم الفاتحة، وتحدّثت مع ضريح أبي طويلاً، ثم تطلّعت إلى أضرحة الشبّان الصامتة التي تكاثرت في الحرب، وفكّرت كم أنّ الحروب تزرع مقابر، وفي المقابر صمت وسلام ولا أعداء.

عواصف الوحشة والحنين والوجع هبّت من عينيّ لمّا وقفت أمام باب بيتنا الخشبي العتيق المغلق على عمر وذكريات، بل على حياة بكاملها غابت في داخل ذلك البيت.

الدار بكاملها مهجورة، وأبواب البيوت في الحيّ كلّه مغلقة، فعجائزه جميعهم رحلوا، بينما الأبناء يعيشون في بيروت أو في أصقاع الدنيا التي هاجروا إليها بعد الحروب. كنت أعشق دخول منازلهم حين كنت صغيرة وأتراخى مستمتعة بحكاياتهم عن الحصاد والقمح والزيتون والجنّيّات والملائكة والضباع، وكلّ ما يحكونه لي.

جميعهم رحلوا ومن بينهم أهل سعاد وعزيزة وجدّتي أمينة وجارتها جميلة وعمّي محمود وعمّتي رُقيّة. الحياة القديمة المعشّشة في روحي راحت. الغبار الكثيف الذي يغطّي البيت حسبته كفنًا أبيض. ولا أدري لماذا شعرت بأنّ أرواح الدار تختبئ فيه. أحسست بوجودها، لكنّي لا أملك القدرة على رؤيتها.

كلّ ما في المنزل عتيق، عتق فستان أمّي الأوّل. عتق له روائح الأشياء الأولى، تتناغم فيه تضاريس المنزل ومحتوياته مع طريقة بنائه الحجري القديم في جزء منه، والإسمنتي في جزء آخر، ما يشي بأنّه شُيّد على مراحل. جلتُ ببصري على الدار وحديقتها، ثم على غرفها المطليّة قديمًا باللون الأخضر الفاتح أو الزهري، أو تلك المتروكة على طبيعتها ويغلّفها الباطون اللامع في قبو جدّتي في الطابق السفلي.

راحت الصور تتراقص أمام عينيّ لمّا وقفت في بهو الدار أمام الرمّانتين. أصوات قديمة رحت أنبشها في أذني. مقعد أمّي الخالي منها كأنّه راح يشكو لي غيابها وشوقه إليها. رادیو أبي الترانزيستور العتيق الذي كان يستمع عبره إلى أمّ كلثوم، يحنّ إلى أصابعه

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

وأذنيه. رأيت أمام عينيّ طربوش أبي وعصاه، ومشية أمّي في البيت وتنّورتها المزركشة، وشممتُ رائحة طعامها الذي كانت تُعدّه. حياة بكاملها رحتُ أستعيدها في بيت خاوٍ وموحش مع الهجران، مثل قلبي. هذا الهجران الذي أكل كلّ شيء، ومسح كلّ شيء. تملّكني إحساس غريب بأنّ الأمكنة لا تحنّ إلى ساكنيها فقط، بل تثأر وتنتقم لغيابهم إلى حدّ الانتحار.

صمتُ المكان بدا أشبه بخرَس سعاد، وغموض مشاعر أمّي، وذلك الانتظار اليابس في عينيها لرؤية الشيخ المنذورة له. جدران البيت بدَت لي كأنّها قطعت مرحلة الانتظار لساكنيها. الغرف تيبّست عطشًا لدعسات أصحابها ودفئهم وملّت خائبة من لا جدوى الجواب.

لم أشعر أنا بالغربة عن المكان، بل أحسست كأنّ البيت نسيني ولم يعد يعرفني. بدا كأنّه يستغربني، ويسأل من أنا. إحساس البيت بي بدا بأكثر من عتب عليّ. بدا ببساطة أنّه لم يعد يتذكّرني. كأنّ رؤيتي له في مناماتي لم تكفه كي لا يستغربني. مناماتي التي غالبًا ما أزوره من خلالها بين فترة وأخرى.

تفقد الأمكنة إحساسها بساكنيها. استقبالها لهم يصير باردًا، تمامًا مثل عشّاق افترقوا، ما عاد الواحد منهم يتذكّر الآخر، أو يتعرّف إليه. وددتُ لو أنّ شيئًا يتلهّف إليّ: الرمّانتان مثلاً، أو التراب الذي كنت أدفن تحته قصائدي. تطلّعتُ إلى السماء، لعلّي أرى النجمة العالية التي كان يراها أبي وهو يستمع إلى أمّ كلثوم، فلم أعثر عليها. حسبتُ أنّ أبي أخذها معه إلى المكان الذي ذهب

إليه، لكنّي أحسست بلهاثه الساخن القديم في البيت، وابتسامته الدائمة الجميلة المضيئة التي كانت تزيدني افتتانًا بالضوء المنتشر في فضاء البيت والقرية.

تطلّعتُ أيضًا إلى الجيل الجديد من أشجار الزيتون والتّين، الذي لا يعرفني، وإلى الأشجار الأخرى الصغيرة التي نَمَت إلى جانب دارنا، فخُيّل إليّ أنّها ورثت أمّهاتها كما ورثت بيت أمّي، لكن أمّي وأمّهات الأشجار يعشنَ في الغياب.

غابت عنّي صورة الضيعة القديمة في الضيعة الجديدة. فقصورها المستجدّة التي شُيّدت على أطرافها، لا تبدو نابتة في الأرض، كتلك البيوت العتيقة عتق القرية. بدت لي بشعة ومرسومة، تفتقر إلى النبض الحقيقي والحيّ. مصطبة القرية أيضًا مهجورة، تشتاق إلى عجائز القرية ونسائها. حتى الحيوانات الأليفة، من دواجن ودوابّ وغيرها، لم تعد تظهر كما في السابق، والفلل الجديدة مغلقة بلا سكّان. احتجبَ عن عينيّ كلّ شيء، بينما صور الشهداء على مداخل القرية منتشرة. صور لشبّان فتيان بلحى ليسوا جزءًا من ذاكرتي. خُيّل إليّ أنّهم وافدون جدد. لكنّي عدت وسألتُ نفسي من هو الوافد: أنا أم هم؟ من هو الغريب: أنا أم هم؟ كأنّ ثمّة معنى جديدًا للموت، معنى لم أعرفه، كذلك لم تعرفه قريتي من قبل.

خلال مروري بالسيّارة وتطوافي في القرى المجاورة، امتلأت عيناي بالضوء القديم وأنا أغادر. غصّت حنجرتي بصمت جارح. الهواء كان يتلوّى ببرودة لطيفة، والفضاء الذي يتقمّص دور النور

تمنّيت ألاّ ينساني. من عينيّ سال لعاب الشوق إلى أبي وأمّي، ومن حنجرتي ارتفعت بصمت صلاة العطش لسماع صوتيهما، ولو في المنام ليلاً. وطوال طريق العودة إلى بيروت، لم يفارقني وجه جدّتي أمينة. رحتُ أستعيد حكاية نهايتها الوحيدة في النقبو، التي امتثلت أمام عينيّ ما إن فتحت بابه العتيق.

كانت جدّتي أمينة قد أنجبت تسعة صبيان، إلاّ أنّهم سرعان ما كانوا يموتون لأسباب غامضة، حتى إنّ بعضهم مات فجأة أثناء اللعب. نصحها أهل القرية بأن تسمّي مولودها الجديد على اسم حيوان لتنقذ ذريّتها من الصبيان. وهكذا، وُلد أبي وسمّته فهد... وعاش!

أُصيبَت جدّتي بالعماء بعدما أُصيبت بالصمم. في آخر أيّامها، كنت أسمعها تحكي وحدها كلّ عصرونيّة في قبوها، وخاصّة بعدما انقطعت صديقتها جميلة عن زيارتها بسبب طرشها. كنت أستغرب لماذا كانت تصمت بمجرّد دخولي عليها. تسلّلت مرّة إلى غرفتها على رؤوس أصابعي، ولمّا أحسّت بوجودي جمدت وصمتت. بعدما تأكّدت من أنّني نهلا، سألتُها مع من كانت تحكي، ولماذا صمتت بعد دخولي، فلم ترد. فقلتُ لها ممازحة:

ـ ما دام ما بدّك تقولي مع مين كنت عم تحكي، لكن إنتِ يا ستّي خرّفتي، وعم تحكي مع حالك، ولازم ناخدك ونحطّك بشي دار عجزة.

ـ أنا يا بنت ابني خَرّفت؟ حرام عليك. إنتِ كمان بدّك تظلميني؟ طيّب، رح قلّك شو الموضوع. السرّ بيني وبينك يا ستّي،

لمّن إنتو بتروحوا كلّكن وبصير لحالي ومش قاشعة شي بالدنيا، في صالحة بتحنّ عليّ. بتجي هالمرا بتسلّيني وبتحاكيني وبتخبّرني أخبار الضيعة كلّها. معش عندي رفيقة غيرها من يوم جميلة ما عادت تزورني، قال لأنّي طرشت. الله يسامحها.

منذ أخبرت أمّي وأبي والجميع بحكايتها مع الصالحة، لم أعد أسمع جدّتي تحكي. دخلتُ ذات عصرونيّة غرفتها فوجدتها جالسة على طرّاحتها وحيدة وحزينة وصامتة. ولمّا سألتها عن السبب، أجابتني والدموع تملأ عينيها اللتين يغطّيهما البياض:

ـ ليش عملت فيّي هيك يا ستّي. كانت هالمرا تجي تسلّيني وتحكي معي، ومرّات بشوفها مع إنّي عمية ما بقشع، ضاهرة من الأوضة ولابسة أبيض بأبيض، بعد ما تحكي معي وتونّسني. راحت وما عادت إجت لأنّك فضحتيني. إجا لي علي أمير المؤمنين بالمنام، وقال لي: سرّك انكشف يا أمينة، والمرا ما عاد تجي لعندك. ليش كشفتي سرّك؟

ثم راحت تحكي وحدها وتقول: يا علي، يا أمير المؤمنين، أخدتلّي ونيستي ليش؟ شو ذنبي أنا إذا نهلا حكيت، وشو عملتلّك لتحرمني منها؟

تذكّرتُ جدّتي، لاحت ابتسامتها العريضة التي كانت تحتلّ وجهها لمّا أنجح بتفوّق في المدرسة وأنا ألاعب حفيدتي في ذلك الصباح، قبل أن تأتيني سعاد وتنضمّ إلينا هدى لتهنئة ابنتي بمولودتها الثانية. تجهّمت قليلاً لمّا تماهيتُ بجدّتي وأنا ألاحق

حفيدتي وأحضنها بابتسامتي، وأراقصها بيديّ.

الجدّات يَهِمْنَ بأحفادهنّ، إلاّ أنّهنّ في لحظة من اللحظات ينفرْنَ من دور الجدّات لأنّه يذكّرهنّ بأنّهنّ كبرنَ في العمر. لكنّ اللحظة الوحيدة التي أنسى فيها العالم وأنسى نفسي وهاني، هي حين أكون مع حفيدتي.

قُلت ذلك مرارًا لسعاد، ولهاني أيضًا في لقائي الأخير به. هزّ رأسه موافقًا، ويومها ضحكنا كطفلين شعرهما أبيض، وكان متشبّثًا لأنّه أصبح جدًّا.

لا أذكر أنّي ابتهجتُ بأولادي مثلما ابتهجتُ بأحفادي الذين يأخذون عقلي. هل لأنّهم من ذريّتي، وأولاد ولديّ، يجمعني بهم الحبّ فقط بدون سلطة الأمومة أو الإحساس المباشر بالمسؤوليّة، أو الخوف الذي كان يسيطر على مشاعري تجاه ولديّ، ونكتشف مع العمر أنّه لم يكن من داعٍ له؟ أم لأنّني كنت أصغر ومنهمكة بهما، ولم أدرك متعة كيف يكبران في الحياة أمامي، أم لأنّني من خلال أحفادي أستعيد شبابي وعلاقتي القديمة بولديّ حين كانا تحت جناحيّ، أم كوني أسترجع من خلالهم الماضي، والعلاقة بالحياة التي نحسبُ أنّها صارت خلفنا مع التقدّم في العمر؟

سألت هذه الأسئلة لسعاد لمّا جاءتني بعدما أجلستُ حفيدتي على ركبتي. ابتسمَت في وجهي كعادتها، ثم سرحَت كأنّ روحها انفلتت وشردَتْ من عينيها، ثم نظرت إلى جسمي نظرات غامضة كما تفعل أحيانًا قبل أن تشلح قميصها مُبقية على التي شيرت الكاشفة عن زنديها. شعرتُ بأنّها تفعل ذلك أمامي كلّ مرّة، كأنّها

تقصد أن تدعني أرى آثار مرضها الجلدي وتفتّقات بشرتها...
أحسست بالغضب منها وسألت نفسي لماذا تتعمّد أن تفعل ذلك، ولماذا تعطي لنفسها الحقّ في أن أرى بشاعتها؟ هل لأنّ زوجها يرفض جسمها وتريدني أن أقبله، أم أنّها تتصرّف كما لو أنّها تريد أن تُطلعني على سرّ لتتخلّص منه في الوقت الذي لا تدرك فيه أنّها تولّد لديّ نفورًا حين تفعل ذلك؟

إحساس بالذنب عاد وتملّكني لنفوري منها. انقهرتُ من نفسي، وتضايقت من شعوري بأنّني لم أحسب ولا مرّة أنّ سعاد جزء منّي إلاّ وهي ترتدي كلّ ثيابها التي تغطّي جسدها. وأظنّها تدرك ذلك، إذ سألتني مرّة، وهي تحدّق فيّ لتعرف الجواب: ليش يا نهلا لمّن بتشوفيني بتيابي الطويلة بتوسع ابتسامتك وبيصير وجّك شي تاني؟

وما لفتني أنّ سعاد عادت وارتدَت قميصها لمّا جاءت هدى لتهنئة ابنتي بمولودتها.

• • •

كان البيت يغلي، وقلبي يفور لأنّني سأرى هاني مساءً بعد أن اتّصل بي وزال خوفي من فقدانه. حماة ابنتي مشغول بالها لماذا لا تريد فاتن أن تُرضع مولودتها. هدى الممتلئة بأحاسيس أنثويّة وأمومة وقدرة هائلة على احتواء الآخرين، وضعت يدها على صدرها وأدمعت عيناها لمّا حضنت ابنتي فاتن ثديها الأيسر المحتقن بالحليب براحة يدها، وأغمضت عينيها على دمعة، وغرزَتْ أسنانها في شفتها، وأنّتْ بصوت خفيض من الألم.

كانت هدى على أحرّ من الجمر لتعرف آخر أخباري مع سليم.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

الأسبوع الماضي شعرتُ برغبة ملحاحة في أن أجلس معها وحدنا. كنّا أنا وهي وسعاد في السرفيس عائدات من المقهى إلى بيوتنا، فتابعنا طريقنا إلى بيتي بعدما نزلت سعاد أمام منزلها في الصنائع. كانت لديّ رغبة في أن أستمع إليها وهي تحكي عن علاقتها بزوجها بعدما شكوت إليها سليم.

الحقيقة أنّي دائمًا أفكّر في هدى، في أيّام هجران هاني، وفي الأوقات التي أملّ فيها من انتظاره ومن الشعور بالفراغ والضجر بدونه. يخطر في بالي زواجها السعيد، ورغبتها التي لم تنقطع تجاه زوجها، والتسوية التي تعقدها في زواجها.

مرارًا فكّرت في أن أتعلّم منها كيف تحبّ المرأة زوجها، لعلّي أقوم بتسوية مع سليم.

دمعة رقيقة رِقّة ورقة السيجارة ظلّلَت عينيها حين قالت لي إنّ طارق مُصاب بالبرد، قبل أن تحكي لي عن علاقتها به.

قالت لي إنّه حين يضع يده على عضوها تشعر بأنّه موطن الأمان والسعادة والتوازن. اعترفت لي بأنّ الجنس بينهما صار أحلى، لأنّ الأجسام مع العِشرة تصير تعرف بعضها البعض. الألفة تكشف أسرار المتعة ودهاليزها الخفيّة. وطارق ساعدها على قبول جسمها والتصالح معه لمّا سمنت، وصار يغازل ثدييها اللذين تهدّلا، ويقبّل التجاعيد الخفيفة المتعمشقة بينهما. صارت هدى تستمتع أكثر لأنّه صار يعطيها بطريقة أخرى، يعوّض عن تأخير وصوله وضعفه الجنسي الآن بمداعبة جسمها أكثر. صحيح أنّه لم يعد يدخلها بسرعة كما كان أيّام زمان، حين كان يتحرّش بها وهي واقفة وراء

المجلى أو المكوى، أو لمّا كان يزركها على الحائط في البيت فجأة ليمارس معها الجنس وهو واقف، إلاّ أنّها صارت تعرف المتعة أكثر، لأنّها صارت تعي جسمها وحاجاتها أكثر، فالمرأة تُدرك جسدها بعمق في متوسّط العمر.

تساءلت هدى أمامي لماذا صارت تفكّر في أن تأخذ أكثر ممّا تعطي، بل إن بقي له شيء تعطيه، هل لأنّها صارت أكثر جرأة، ولم تعد تخجل من الأخذ، أم لأنّ إحساسها بجسمها صار أقوى، أم لأنّ الإنسان يصير أنانيًا كلّما تقدّم في العمر؟

عادت هدى وقالت لي إنّ التواصل بينها وبين طارق ينتفي. يغلق على نفسه، وتغلق على نفسها، ويصير يتجنّب التقاء نظراته بنظراتها، لمّا ينام معها ولا يستطيع الانتصاب. لكنّ الأمور تعود إلى مجاريها حين تضبط معه. لذا، لم يعد لديها أيّ مانع في أساليب إثارته، وليس لديها أيّ حذر لمشاهدة فيلم بورنو معه، إذ ما المانع الذي ينقصها لتعلّم مداعبة معيّنة بحركة جديدة وجميلة، كما قالت لي.

كانت علامات الرضى بادية على وجهها، وابتسمت لمّا قالت لي إنّها الآن تهتمّ بجسدها وصحّتها، لأنّ الجسد يعاتِب ويحاسِب، ويتخلّى عنكِ بلؤم، إذا ما عاندتِه، ويكسرك ما لم تهتمّي به.

أخذتُ دوشًا بعدما خرجت هدى، ثم اتّصلت بسليم وسألته إذا كان يريد أن نتعشّى معًا. قلت له إنّني سأعدّ عشاءً مميّزًا على الشرفة، ثم نلعب الورق، ونفعل أيّ شيء يريد.

فكّرت في الجلسة الحميمة لعلّي أنسى هاني، ولأنّني لم أكن أنفر جنسيًّا منه. وقلت في نفسي ليس بالضرورة أن ينام معي، فهو لم يقربني منذ زمن طويل لضعفه الجنسي. يكفي أن نتحابب ونتلامس، ثم ما المانع من المحاولة. ربّما بعدما كبر في العمر يقول لي كلامًا يشبه ما يقوله لي هاني. وربّما أشعر تجاهه ببعض ما أحسّ به نحو هاني.

خذلني سليم لأنه لم يستطع أن يكون رومنسيًّا، ولو للحظة واحدة.

«أوه، أوه، شو هالعظمة يا مرا. شو هالطاولة الغير شكل»، قال وهو يهلّل للطعام. ثم راح يأكل ويغمّس يديه في الصحن كأنّه لم يأكل منذ ألف عام بدون أن ينظر إليّ. عيناه الكبيرتان الجاحظتان صارتا خارج مكانيهما وهو يستمتع بالأكل، ويُصدر من فمه أصواتًا غريبة ويهمهم. شعرت بأنّني جالسة مع رجل عاش عمره في غابة أو في قرية بدائيّة نائية في التاريخ، بدون أن ينسى الحديث عن الفوائد الصحّيّة لكلّ صنف من الأصناف، وتلك التي ستزيد الكوليستيرول والسكّريّات والدهنيّات في دمه. ولمّا جلسنا أمام التلفاز، رفع جانبًا من مؤخّرته في وجهي وضرط، كما صار يفعل في المدّة الأخيرة بدون أن يقول حتى عفوًا.

لم أحتجّ كما فعلتُ صباحَ أمس، لمّا انتشرت في الغرفة رائحة كريهة بعدما فعلها، وسألته لماذا لا يدخل الحمّام ليرتاح، فأجابني بعصبية:

ـ شو؟ ولّو إنتِ مرتي، شو وِحدي غريبة. وبعدين بلا ما

تقوليلي يا رجّال شو هالريحة اللي متل المسك والعنبر لأنّك جوزي، بتقوليلي فوت على الحمّام اعملها.

منذ أن فقد قدرته على الانتصاب صار يقوم بأشياء منفّرة ولا يُقدم على أيّ تصرّف يحتاج ولو إلى جهد بسيط. يتصرّف بعيدًا عن الإغواء أو أيّ سلوك ليجذبني أو ليُكنّ لي أيّ احترام ما دام هو غير قادر على النوم معي، ولم أعد بالنسبة إليه لا أنثى ولا إنسانة، بل فقط جزءًا من ممتلكاته الخاصّة، وليس أكثر.

• • •

تطلّع سليمّ إلى فاتن بعدم اكتراث، وهي تبكي من ألم ثدييها المحتقنين بالحليب قبل أن يغادر البيت في اللحظة التي خرجت فيها هدى.

لم أحاول أن أقنع ابنتي فاتن بالرضاعة، مثلما فعلت حماتها، ولم أقل لها إنّني كنت أتباهى أمام سعاد وعزيزة وجميع صديقاتي بأنّي أستعمل لبّادات تحت السوتيان لكثرة ما ينزّ حليبي.

هي قرّرت ألاّ تُرضع خوفًا من أن يصيب ثدييها التهدّل. ثم إنّ مشاهداتها الكثيرة عالم الحيوان الذي تبثّه «الناشيونال جيوغرافي» على الشاشة الصغيرة جعلها تنفر من الرضاعة لاعتبارها أنّها ستكون حينها شبيهة بأيّ أنثى حيوان، وهذا ما يقزّزها.

حماتها التي أتت تزورها في بيتي بعد خروجها من المستشفى قالت لها:

ـ ديمان هالحليب يا كنتي. في وِحدي بالعالم ما بتتباهى

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

بحليبها، وما بتحبّ تعلن للعالم كلّه إنّها بترضّع؟

صمتت ابنتي ولم تجب. كانت قد هدأت وعادت الابتسامة إلى وجهها بعدما جدّبتُ لها صدرها بالآلة، وأعطيتها الدواء الذي وصفه لها الطبيب. اطمئناني عليها دفعني إلى التوجّه إلى غرفتي لتحضير نفسي قبل لقاء هاني. أخرجت من الخزانة فستاني الموف الذي اشتريته ووعدتُ نفسي بألاّ أرتديه إلاّ أمام هاني. لمّا تعرّيت أمام المرآة، شعرت بأنّ جسدي ما زال مشتهىً عندما لاحت في ذهني تبقّعات جسم سعاد غداة شلحت قميصها أمامي. عاودني إحساس مختلف بجسمي برغم تبدّلاته، لكنّي فكّرت في الوقت ذاته كم هو حقيقي حكي النساء عن حرّيّة أجسادهنّ، وكم هنّ مستعبدات أجسادهنّ، وإذا كانت ما تزال تحت وصاية الرجل، لأنّ هاني كان حاضرًا وأنا أتطلّع إلى المرآة وأفكّر كيف سيرى جسمي بعدما تواعدنا على اللقاء.

تحسّست ثديَيّ. حملتهما بين يديّ وقرّبتهما أحدهما من الآخر، وتذكّرت أيّام كانا أشبه برمّانتين مثل ثديي ابنتي تمامًا. وكم خجلت حين رآهما هاني متهدّلين بعد استعادة العلاقة في منتصف عمري. فكّرت وأنا أمارس الحبّ معه إذا ما كان يتخيّلهما أيّام كانا مشدودين، وهو يقبّلهما مغمض العينين، أم أنّه ما زال يجدهما مثيرين.

سقط السؤال من رأسي لمّا اكتشفت أنّ أحاسيسه ما زالت حارّة، وأنّ الحاضر لا يمكن فصله عن الماضي. ثم أنا نفسي لمّا ذهبت للقائه في اليوم الأوّل بعد استعادة العلاقة، رحت أتذكّر بشرته

السمراء الناعمة وآثار طعم الجدري في فخذه الشهي. أتذكّر عضوه النافر في بنطلونه الضيّق أيّام زمان، وكتفيه اللتين كانتا أكثر عرضًا، وخصره الذي سمن وما عاد نحيلاً، ومؤخّرته التي كانت نافرة وصارت الآن أبرز. لكنّي كنت متأكّدة، في كلّ لحظة، من أنّ تبدّلات جسمه لم تُفقدني الرغبة تجاهه، وأنّ شهوتي له لم تنتقص. وأذكر أنّني قبل خروجي للقائه يومها، تساءلتُ أمام سعاد إذا ما كان الجسم مع التقدّم في العمر يعبّر عن شهوته بطريقة أخرى، وعمّا إذا كان الواحد منّا يتعلّم تعبيرات جديدة عن الشهوة، أم أنّ الجسم ينسى تعبيراته السابقة، أو يتنكّر لها لأنّه لم يعد قادرًا عليها.

احتقان الحليب في ثديَيّ ابنتي كان لا يزال ماثلاً أمام عينيّ وأنا أدهن ثديَيّ بالكريم قبل أن أخرج للقاء هاني. الشعور بالوخز فيهما كان لا يزال وأنا أجذب حليب ابنتي من ثديَيها.

عاد إليّ الشعور بالسعادة والتباهي الذي كنت أحسّ به وأنا أرضعها، فابني أحمد لم أرضعه إلاّ بضعة أيّام، فحزني على موت والدي نشّف حليبي.

ثدياي أيضًا للحبّ والأمومة مثل عضوي.

كتب هاني بفمه ويديه على ثديَيّ وثيقة الغرام بيني وبينه وهو يقبّلهما ويداعبهما، والحزوز البيضاء التي ارتسمت عليهما بعد رضاعة ابنتي كأنّها وشم يذكّرني بأنّ فمها ويديها لن تفارق صدري إلى الأبد. تذكّرني بأنّ الرضاعة كانت وثيقة عهد بيني وبينها، وتؤكّد صلتها بجسدي.

اكتشفتُ أنّ الأمومة خلال الرضاعة أقصى درجات الأنانيّة، وأقصى محبّة النفس. كنت أحسب، وأنا أرضعها، أنّي في مكان الإلهة، وأنّ الكون مُلكي، بل كأنّ ثدييّ هما الكون وكينونتي وكلّ حضوري. تخطر في بالي صورة مريم العذراء وهي تُرضع سيّدنا المسيح. أتماهى بها، ينتفي العالم من حولي، وأصير أنا وإيّاها وحدنا في العالم.

كنت أركض إليها لمّا تبدأ بالبكاء، وأنا أقول لها: «يا مامي، يا حياتي، يا تقبريني». أضعها في حضني لحظة الرضاعة بتمهّل ورفق بدون أن أشدّ على لحمها وعظمها الطريّين. ثم أنظر بين لحظة وأخرى لأتأكّد من أنّها تتنفّس وهي ملتصقة بثديي، وحماتي تقول: انهبلت المرا.

كانت الرضاعة أشبه بخلوة كونيّة معها. أنفرد بها في غرفتها وأغلق الباب على موسيقى كلاسيكيّة ناعمة تؤنسها. كأنّ الرضاعة كانت تأكيدًا لمرحلة الحبل، وبأنّها امتداد لجسمي وأنا امتداد لجسدها، وليس فقط لتأكل وتتغذّى. بدّدَت غموض علاقتي بها لحظة نزولها من رحمي، كما كانت تزيل الإحساس بالتهديد الذي كان ينتابني أحيانًا بأنّها قد تُسرق منّي. كنت أشعر لحظة الرضاعة بأنّنا ما دمنا ملتصقتين هكذا إحدانا بالأخرى فلن يستطيع أحد أن يفرّقنا، إذ أنا هي، وهي أنا، والعلاقة أعمق من أن يخترقها أيٌّ كان، حتى سليم زوجي، وأنّه بعد أشهر من الرضاعة لم أكن أعرف أن أقول لها وأن أفهمها وهي تنظر إليّ وترضع بفرح وأمان: يا مامي، هيدا جسمي وأنا عم رضّعك ليصير إلك جسمك يا حياتي، بسّ ما في شي رح يفرّقنا ويفصلنا أبدًا.

أحاسيس كثيرة غامضة كانت تتماوج بي لمّا كنت أرضعها بحضور سليم. لا أدري لماذا كنت أشعر بغيرته أحيانًا، وهو جالس يتطلّع إلينا. وكثيرًا ما كان يقول لي وهو يتأمّلنا: «أنا كمان بدّي إرضع يا نهلا، تركيلي شويّة حليب». والحقيقة أنّ علاقته بثديي قويت آنذاك. صار يمصّ حلمتيّ أكثر أثناء الجنس. وأحيانًا كثيرة كان يبدو لي، وهو يتأمّلنا، أنّه يفكر في عدم قدرته على الحصول على مثل هذه اللحظة لا بينه وبين ابنته، ولا بينه وبيني. وكنت أتساءل إذا كان يكرهني لأنّه لا يستطيع أن يتمتّع بهذه اللحظة لأنّ الرضاعة فرادتي. كانت الرغبة بادية في عينيه في أن يكون طرفًا ثالثًا وهو يتأمّلني وأنا أُرضعها، لكنّه كان يدرك أنّه لا يستطيع. وأعترف بأنّ شعورًا بالتشفّي كان يُصيبني من إحساسه بأنّه بعيد ولا يستطيع أن يقربنا في هذه اللحظة. وأتساءل إذا كان الله قد وهب المرأة الرضاعة تعويضًا عن ظلم الرجال.

كنت أشعر بأنّ سليم لن يقربنا أبدًا لحظة الرضاعة، أكثر بكثير ممّا لم يكن يقربنا عندما كانت في رحمي. كنت أرغب كثيرًا في أن أقول له وهو يحدّق فينا: على شو شايف حالك إنّه عندك واحد بتزّل حليب بيعمل ولد. ما حليبي كمان بيعيّشه وبيعطيه حياة.

آه، كم كنتُ أنتظر لحظة استيقاظها من النوم لأرضعها، ويزول الألم الذي يسبّبه احتقان الحليب بثديي، مثلما كان يؤلمهما احتقانهما قبل الدورة الشهريّة.

كانت الرضاعة الطريقة لأعبّر لها عن كلّ الحبّ. أمسك بأصابعها الصغيرة التي تلاعب بها صدري وأنا أرضعها وأقبّلها،

فتبتسم لي وتتابع رضاعتها. وكم بكيتُ وتعذّبتُ مثلما بكت وتعذّبت قبل أن تتعلّم المصّ. فالخناق بينها وبين ثديي كان يُتعبها، ولا سيّما حين كانت لا تزال حلمتاي ممسوحتين، ولم تكونا بعد قد صارتا مروّستين وأخذتا شكل البيرونة بعد تعلّمها المصّ.

كنتُ أشعر لحظة الرضاعة بأنّي قبضت على لذّة الحياة مثلما قبضت هي عليها، لذّة تفوق اللذّة الجنسيّة وتجلب لي الاكتفاء الذاتي مثلما تجلبها لها. أتواطأ مع إحساسي باللذّة لأحيّدها، ويملأني شعور آخر بأنّ الرضاعة ضرورة لحياتها.

رحتُ وأنا أدهن ثديي بالكريم قبل خروجي للقاء هاني، أستعيد مشهدها وهي تفتّش عن حلمتي بعد أن ألصقها بصدري، والطريقة التي تتطلّع إليّ فيها، وهي تمصّ وتنظر إليّ بعينيها اللوزيّتين اللتين تشبهان عينيّ، ثم أتلهّف لتلتصق بي ثانية، كلّما تركت الحلمة لترتاح قليلاً.

كانت طريقة احتضانها تُذيبني، ومشهدها يجعلني مأخوذة من العالم إلى فمها لحظة تترك حلمتي وتدعه مفتوحًا قليلاً، بينما لسانها يبقى منحنيًا كإشارة إلى أنّه ما زال في وضعيّة الرضاعة، وأنّها لم تشبع بعد. كان يُخيّل إليّ لحظتها أنّ لسانها الصغير هذا يسألني: «إنتِ هون؟ عم تشوفيني؟ حاسّي فيّي؟ وعم تحسّي إللّي أنا حاسّي فيه؟»، وأشدّ عليها وألصقها بصدري، ولحظتها أرى ابتسامتها طريقها إلى الحياة. ابتسامتها التي كانت تُجنّنني حينما تنظر إليّ وأنا أرضعها ثانية. لم أكن أعرف بماذا تفكّر، وما سرّ

تلك الابتسامة وهي ملتصقة بصدري ترضع... تلك الابتسامة القريبة التي لن تتكرّر أبدًا.

كانت العلاقة الجسديّة وثيقة بيننا. كنت أشعر بأنّ أشياء كثيرة كانت تروح منّي إليها، وهي تمصّ ثديي. إحساس غريب بالجوع كان يُصيبني بعد رضاعتها، يشبه جوعي للشوكولا حين يغيب هاني عنّي. وعندما فطمتها في عمر السنتين تقريبًا أُصبت باكتئاب. مرضتُ وعلّت حرارتي وصرت أبكي لأتفه الأسباب. كأنّي شعرت بأنّها تتخلّى عنّي وأنّها لم تعد بحاجة إليّ. كأنّه كان الانفصال الأوّل عنّي وليس الولادة. صرتُ أشفط حليبي وأرميه، وإحساس بالمرارة يتملّك أحشائي. شعرت وكأنّ قصّة حبّ انتهت، لكنّ الإحساس باسترداد ثديي عاد وغلبني. استردادهما من ولديّ ومن زوجي الذي رفضت أن يقرب منهما في تلك المرحلة ليعودا ملكي.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

ـ ١٤ ـ

هامدة وكامدة كنت. مضى حوالى عشرين يومًا، لم أسمع فيها شيئًا عن هاني. صديقاتي كنّ يحكين بحماسة ويضحكنَ، فأشعرتني سعادتهنّ في لحظة من اللحظات بالوحدة.

قبل الذهاب إلى بيت عزيزة، ارتديتُ ثيابي بإهمال شديد والأسئلة تتقاذفني: هل انقطعت علاقتي بهاني هذه المرّة إلى الأبد، أم أنّ ظروفًا قاهرة أخرى هي التي تجعلها مرّة أخرى تمرّ في فترة كمود؟ وماذا يا تُرى يفعل هاني الآن: هل يلتقط السمّاعة ويحاول الاتّصال بي، ثم يغلق الخطّ مثلما أفعل، أم أنّه نسيني يا ترى؟ هل يحملني معه إلى السرير في عَينيه قبل أن ينام، ويغفو على صورتي، أم أنّني أتوهّم ذلك؟

قبل أن أغادر غرفة الأوتيل في منطقة جونيه، حيث التقيت به قبل عشرين يومًا، أمسك بيدي وهو يبتسم قائلاً لي: اتركي لي إيديك معي قبل ما تروحي.

اقتربت منه. لامستُ أنفي بأنفه بلطف وأجبته وأنا أبتسم بدوري: يلاّ خدُن، ما روحي وقلبي وجسمي كلّه معك، وحتى ذاكرتي كلّها معك كمان.

قرَصَ خدّي وراح يمازحني قائلاً:

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ـ أحلى شي الحبّ على كبر، ما هيك يا نهلا؟ وما في شي بيبعد الشيخوخة إلاّ الحبّ. ليكي إنتِ كيف عم تضوّي وزدتِ حلا بعد ما نمت معك.

ـ إيبه بتعرف، كلّ صاحباتي عم بقولوا لي ليكي العشق شو محلّيكي وشو عامل فيكي، رجعتِ كأنّك بنت عشرين.

كنتُ أحسبُ أنّ ثمّة نهاية لكلّ شيء، إلاّ لي ولهاني ولحبّي. لماذا لم يتّصل بي، هل أصابه مكروه أو لأحد من عائلته، لا سمح الله؟

لم أكن أعرف أنّ هاني أُصيب بنوبة قلبيّة، فهاتفه الخاصّ إمّا مغلق وإمّا لا يردّ. منذ استعدنا علاقتنا ربيع العام الماضي، ونحن نلتقي كلّ عشرة أيّام، أو كلّ أسبوعين، وأحيانًا أكثر من ذلك، إلاّ أنّه يكلّمني يوميًّا، ويرسل إليّ «ميسّاجًا» كلّما نهض صباحًا وقبل أن ينام. لم أكن أريد أكثر من ذلك. لم يعد هاجسي، كما أيّام شبابي، أن يبقى إلى جانبي طوال الوقت وأن نفعل كلّ شيء معًا، ليس لأنّ عندي زوجًا وأصبحتُ جدّة فحسب، بل ربّما لأنّ الحبّ صار بالنسبة إليّ أشبه بالحلوى، لكنّ الحلوى التي تهبني الإحساس بالسعادة التي طالما حلمت بها، والتي كانت مسروقة منّي، والشعور بأنّني أحيا، وربّما أيضًا لأنّني امتلأتُ به، وصار هاني موجودًا في داخلي أكثر، ولم يعد حضوره برّانيًّا أبدًا. ثم إنّ علاقتي به وبجسدي تغيّرَتْ في هذا العمر، كما تغيّرت علاقتي بالأشياء كلّها. عندما كنتُ صغيرة، كان همّي أن أكون المحور، أن يُحسّسني كم يحبّني وكم أنا حلوة ومختلفة. وكان فوران جسدي

يُملي عليّ ضجيجه. الآن لديّ حياتي وصداقاتي. وحتى هدى التي تموت حبًّا بزوجها، صارت تحبّ أن تمضي وقتًا أطول مع صديقاتها، وأن تسهر معهنّ. أشعر بأنّ فراغات كثيرة امتلأت بي، صار إيقاع حياتي أبطأ، وأصبحت تتملّكني قدرة هائلة على التأمّل، كأنّها رغبة عميقة نبتت فيّ في هذا العمر، أو كأنّها كانت أشبه بخليّة نائمة في داخلي أيّام فوران الشباب، وانتعشت الآن. الآن، أشعر بأنّ عمرًا كاملاً لا يمكن أن يكفي لتأمّل الجمال في حركة أوراق الشجر، أو إيقاع أمواج البحر، أو ظلّ شمس، أو حتى ضحكة حفيدتي، أو أيّ شيء في الحياة، برغم إدراكي أنّ هذا التأمّل بمتعة الحياة ليس إلاّ مراوغة للهروب من فكرة الموت، أو تأجيلاً لها. وبرغم ذلك كلّه، أدرك تمامًا أنّني سأقع في العجز، بل سأموت حقًّا إذا ما فقدته ثانية، ذلك أنّ غرامي به لم يخفت أبدًا. ما زلتُ أرتجف وأنا ذاهبة إليه، كما لو أنّي ما زلت صبيّة صغيرة. وعندما أراه لا أعرف ما الذي يرتجف بي: يداي، قلبي، رحمي، أم كلّ جسدي، برغم أنّه ليس ثمّة أيّ محظور بيننا، ونحكي لبعضنا البعض كلّ ما نحسّ به.

كلّ الإحساس بالزمن والعمر يزول حين أراه. المرّات الوحيدة التي أشعر فيها بأنّي كبرت تكون عندما أحسّ بأنّي سأخسره. فجأة، يبدو العمر على وجهي، وتتهدّل رقبتي. ثم حين أراه لا أعرف كيف تشتدّ عضلاتي، وأصير أكثر شبابًا.

كثيرًا ما سألتُ سعاد إذا كنت أعيش معه الحبّ بهذا الشعور القوي في هذا العمر، لأنّه الحبّ الذي تعرّض للقتل والبتر والإجهاض، أم لأنّني أقترب من الموت، أم لإحساسي كلّ مرّة

ألتقي به فيها، بأنّها قد تكون الأخيرة، أم ربّما لأنّني صرتُ أعرف ما الذي أريده من الرجل، وأدرك جسمي ورغباتي أكثر، أم السبب أنّ الحبّ هو ما يبقى من الحبّ بعد الجنس، أم لأنّه قدري كما تقول لي سعاد مرارًا.

انفرجت أساريري بعدما راحت سعاد تتفحّص ملامح وجهي. ابتسمتُ لأبدّد حيرتها وانشغال بالها عليّ في بيت عزيزة التي دعتنا إلى عصرونيّة في ذلك اليوم، كما دعت صديقات أخريات نلتقي بهنّ بين فترة وأخرى، إذ إنّ النساء الأكبر سنًّا يصرنَ يسعدنَ بلقاءات بعيدًا عن الرجال: يُقمن صبحيّات، ويسهرنَ مع بعضهنّ البعض في المطاعم و«النايت كلوبات»، ربّما لشعورهنّ بأنّهنّ لم يعدنَ مرغوبات من الرجال، وربّما ليخلقنَ عالمًا لهنّ لكثرة ما هنّ مهمّشات فيه.

ضحكات عزيزة ونكاتها لم تتوقّف، وكذلك رنّة هاتفها الخاصّ التي تصدح بأغنية للمطرب عاصي الحلّاني. سعاد المصبّرة مثل منحوتة من الصمت تلاحقني بنظراتها الحائرة لشعورها بقلقي، أمّا نادين وميرنا فخرجتا باكرًا لحضور معرض تشكيلي كانتا تتحدّثان عنه، ثم إنّ الجلسة لم ترُق لهما، وبدتا غريبتين وغير مرتاحتين.

وجوه الجالسات اللواتي دعتهنّ عزيزة كانت أشبه بدمى محشوّة خدودها. شفاههنّ منفوخة، إلاّ أنّ عدم تماسك عضلاتها بفعل التقدّم في العمر، جعل الرخاوة غالبة عليها، وخصوصًا في زواياها. الحياة بدت معطّلة والزمن كما لو أنّه متوقّف بعدما مسح

البوتوكس ملامح التعابير والانفعال في وجوههنّ.

مرّات كثيرة، تجاذبتني الرغبة في أن أفعل بوجهي مثلهنّ حين تتملّكني الرغبة في استعادة السحنة المشدودة ونضارة الشباب التي فقدتها. أشعر بغصّة في أنّ الرؤوس لم تعد تستدير إليّ، كأنّي خرجتُ من حلبة الحياة إلى هامشها. وازدادت الرغبة في أن أفعل مثلهنّ قبل أن ألتقي بهاني، إلاّ أنّي عدت وسألت نفسي السؤال الذي يخطر في بالي وأعود وأقهره: أليس هاني موجودًا في كلّ جسمي، أكان متهدّلاً أم مشدودًا؟ وألا يعطيه الحبّ، مهما تغيّرت ملامحه؟ بعد أن التقيت به، فكّرت أيضًا كم اشتهيتُ رقبته المتهدّلة التي طالما عشقتها وعشقت «الحساسين» الثلاث فيها، أيّام كانت مشدودة في شبابه.

الأحاسيس الدافئة طغت عليّ حين راحت الستّات يتحدّثنَ عن علاقاتهنّ بأزواجهنّ وأجسادهنّ، وسألتُ بيني وبين نفسي إذا ما عرفنَ الحبّ يومًا.

رُحنَ يقلّبنَ شفاههنّ التي تتراقص بفعل الرخاوة وهنّ يثرثرن على نسوة بيروت، ومَن تصاحب مَن على زوجها، ومَن تركَها زوجها أو طلّقها أو تزوّج عليها. أنداؤهنّ المحشوّة بالسليكون التي تكشف عنها الياقات الدالعة مكوّزة أمامهنّ، وهنّ ينتقدنَ هذه أو تلك التي تبالغ في ارتداء ما خفّ من ثياب لا تناسب عمرها. الرغبة في أن يكنّ مرغوبات ومعشوقات تفوح من أجسادهنّ ونظراتهنّ وكلامهنّ، إلاّ أنّهنّ غير قادرات على خوض التجربة خوفًا، فينتقمنَ ويثأرنَ لحيواتهنّ عبر حكايا الأخريات.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ولا أدري لماذا حاولتُ أن أكون صريحة معهنّ، وأكاشفهنّ بحيرتي، فسألتهنّ:

ـ بتعرفوا المرّة الماضية أنا ورايحة بالسيّارة من بعد ما التقينا، سألت حالي: شو بيجمعنا مع بعضنا البعض؟

فأجبنَني بصوت واحد: نحنا كمان فكّرنا هيك.

ـ «وشو طلع معكن؟» سألتهنّ.

جوابهنّ كان في مكان آخر، وجاء مختلفًا عمّا كنت أهجُس به. قلنَ إنّهنّ طرحنَ السؤال على أنفسهنّ، إلاّ أنّ شعورهنّ بأنّ الرابط قوي لأنّنا متشابهات. لذا، من الطبيعي أن نلتقي.

ابتسمتُ، ولم أجب بشيء. أحسستُ بأنّه ليس عليّ أن أطرح هذه الأسئلة ثانية، إذ لا أحد يعرف إلى أين توصل الصراحة بين الصديقات.

وبعد أن قلبنَ الحديث إلى كلام عن الريجيم المهووسات به، والذي لا يطبّقنه، عدنَ ثانية إلى سيرة الرجال وأزواجهنّ، فقالت صديقة لهدى مدعوّة معها:

ـ إيبه دخيلكن، ما تقولوا لي الرجّال بسّ يكبر بالعمر بينطاق. العمى الختيرة ما أبشعها. بالليل تشخير، وبالنهار بزاق وضراط. وما بسترجي أهرب ونام بأوضة تانية.

سألتها أخرى:

ـ وهوّي كيف جوزك؟

ـ «شو قصدك»، أجابت.

ـ يعني بالتخت.

ـ يعني، بتفّ تفّ مثل البزّاقة، وأنجأ. تصوّري نصحته ياخد فياغرا، اللي عم يحكوا عنها الرجال، قال لي «بدّك تموّتيني. إذا مش عاجبك استعيني بإصبعك». تصوّري وقاحته، اللي استحوا ماتوا.

فأجابتها عزيزة: بيه دخيلك ذكّرتيني بالمرحوم بسّ قلتِ إصبعك. كرهت إصبعي قد ما استعملته على أيّامه.

سعاد التي نادرًا ما تحكي، تحمّست للكلام، فقالت بصوت يرتجف ولا ينسجم مع نظراتها:

ـ مبارح أخدت حبّة منوّم، لمّن فقت الصبح لَقَيت حالي مرطّبة، وسألت جوزي إذا عمل شي قال لي: إيبه فِقْت وجّ الضوّ لَقيتْ حالي مهيّج، فنِمت معك من ورا. قلت له معقول هيك؟ قال لي اشكُري ربّك عمِلت لك واحد بلا ما شوف وجّك وإلاّ ما قدرت ليش إنتِ بينعمل لك واحد؟

صديقة لعزيزة في خمسينيّات عمرها وقعت في غرام شابّ يصغرها بعشرين سنة وتصرف عليه، جعلَت آثار الدهشة بارزة على وجوههنّ حين قالت: إيبه معقول أنا جوزي ما بيعرف شو الستريبغ، ولا بيعرف شي. إيبه أنا صرت عم بلبسه لصاحبي

ثم عضّت على شفتها وهزّت بيدها وقالت: أوم... ما أحلى الحبّ، يا لطيف اللي عم بضهر معه شو بيعملّي، وشو عم نساوي. شي ما شفته مع جوزي، إيبه هلّق صار فيّي قول عرفت اللذّة. صديقة لهدى رفعت يدها وقالت: لا، لا، ما تقولولي. أنا

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

بموت بجوزي. وهلّق عم بغسّل كلاويه وصار قدّ الكمشة وأنجأ فيه يمشي، بسّ بموت غيرة عليه حتى من الممرّضات.

إحداهنّ التي لم يبقَ شيء في وجهها بمنأى عن الجراحة التجميليّة، عادت وقلبت الحديث قائلة: مش معقول هالنسوان شو عم يعملوا بحالهن، وكيف عم يلعبوا بوجّن. ما في عمليّة إلاّ ما عم يعملوها.

وراحت تتحدّث عن جمالها أيّام صباها، وأخرجَت صورتها من حقيبتها وقالت:

ـ شوفوا يا نسوان قدّيش كنت حلوة.

كنتُ وأنا أستمع إليهنّ أفكّر كيف نتعاطى أنا وهاني مع جسدينا. يتملّكني الخدر اللذيذ. نقطف المتعة تدريجًا وليس دفعة واحدة في كلّ مرّة نمارس فيها الجنس معًا، وكثيرًا ما نحكي في أمور كثيرة في السرير ونضحك. مرّة واحدة لم يضحك وغيّر الموضوع بعدما سألته:

ـ ليش يا هاني، نحنا النسوان فينا نحسّ بالنشوة أكتر من مرّة وإنتو الرجال ما فيكن؟

كان السؤال الوحيد الذي لم يُجبني عنه. كانت المرّة الوحيدة التي شاهدت فيها ملمحًا شيطانيًّا في وجهه بعدما تقلّصت عضلاته.

خرجتُ من بيت عزيزة أنا وسعاد، وترافقنا معًا إلى بيتي، لتشرب الأركيلة التي اعتادت عليها مؤخّرًا على شرفتي. أخبرتها

كم بالي مشغول على هاني. وعدتني بأن تسأل عنه في الجامعة غدًا. ثم رحتُ أحكي لها عن أحاسيسي بعدما استعدنا العلاقة في هذا العمر. وسعاد تستمع إليّ وهي تمجّ الأركيلة، وتخزّن أسراري كما تفعل كلّما تستمع إليّ.

قلت لها إنّ الحبّ صار هو كلّ مشوار الحبّ. أنا على يقين الآن بأنّي لم أقطف المتعة من وسطه فقط. اللذّة ليست محصورة بمنطقة معيّنة في الجسد، ولطالما قطفتها من كلّ جزء فيه، ومن حضوره وملامساته وكلامه وصمته وأفكاره ونظرته ومشيته، ومن الدفء الذي يملأ قلبي بحضوره. واعترفتُ لها أيضًا بأنّ شعوري بالإثارة صار يحتاج إلى وقت أطول، وأنّ عمليّة الترطيب التي تلي مرحلة الإثارة الجنسيّة صارت تستغرق مدّة زمنيّة أطول من السابق، إلاّ أن غرامي به لم يتوقّف وكذلك الإحساس بالرغبة والمتعة.

أخبرتها عن لقائنا الأوّل الذي لا أنساه بعد استعادة العلاقة في هذه السنّ.

لم نستعر جسدينا الماضيين في هذه السنّ. طعم القبلة كان له مذاق خاصّ ما زال في فمي وتحت لساني. صحيح أنّها لم تطل مثل السابق، لكنّها كانت طيّبة من شفتيه وأطيب من أيّام شبابنا، حين كانت قبلتنا تتلاطم مثل أمواج عنيفة على شفاهنا أحيانًا، وأحيانًا أخرى كانت تصير كأنّ رياحًا هبّت عليها وكادت تقتلعها، لكنّ طعمها المختلف بدفئه لا أنساه.

حين نكبر يا سعاد يكبر حبّنا ويصير ناضجًا وحلوًا ويصير مذاقه طيّبًا كالعسل، ولا يعود فجًّا، وكأنّ الروح في هذا العمر تستردّ

مكانها في الحبّ والجسد تأخذ محلّها الذي حرمها منه فوران الحواسّ أيّام الشباب وأراحها جانبًا. كأنّ الاهتياج كان يسكن قمّة البظر، فلا يطيق لمسه. مجرّد التأهّب لملامسته كان كفيلاً بانفجار الشهوة، لكن في منتصف العمر، تبدو الشهوة كأنّها هبطت من الأماكن ذاتها إلى أماكن أكثر انخفاضًا، يصير مستقرّها جوّانيًّا. كأنّ القمم في الجسد هي أماكن الحسّ المحض أمّا المنحدرات أو الوديان، فتصير هي المكامن الحقيقيّة لتفجر الشهوة. حتى الشهوة لا تعود تُعنى بالانفجارات. يصير اشتعالها دفئًا وخدرًا لذيذًا أكثر من كونه شرقطة. كأنّ الشهوة تُبطئ سيرها، لا لأنّها اضمحلّت أو ضعفت أو دبلت، بل لأنّها صارت أكثر استواءً ونضجًا

سألتُ سعاد في ذلك اليوم عمّا إذا كان غرامنا قد صار غرام الخوف أو الهروب من النهايات التي لم تكن مطروحة، لا للجسد ولا للحياة أيّام الشباب، وحيث كانت قمّة بدايات دومًا. وقلتُ لها إنّه عندما نكبر تصير أيّ ملامسة أشبه بالعقد على الارتحال معًا، الارتحال المشتهى والمرتجى الذي لا ينفكّ، ربّما لافتقاد العشّاق الأكبر سنًّا للجنون، أمّا عقد الشباب فمعرّض دائمًا لأن يفكّكه الزمن.

غرامنا يا سعاد، قلتُ لها، جمرٌ بقي متوقّدًا، بدأ مشرقطًا جامحًا كعمرينا وكشبابنا، ثم تدريجًا راح يضخّ دفئًا. ما عاد غرامنا لاحقًا يلسعنا بجمرة الشهوة، بل بدفئها. نشوة لا يُحدثها لقاء جسدين فقط، بل تستمدّها من عناق يدفن فيه الواحد رأسه في حضن الآخر مغمض العينين. يشمّ رائحته، يُصغي إلى كلام قلبه، وصوت أنفاسه، ويقول هامسًا للآخر: يا سكني.

ـ ١٥ ـ

احتقن البيت بدبيب الوحشة. كلّ شيء فيه بدا غريبًا عنّي، قبل أن أتركه، وأتّجه إلى المطار للقاء هاني في باريس، كما اتّفقنا. صورة عرسي مع زوجي، المعلّقة في غرفة الجلوس، حسبتها كأنّها لامرأة غيري شاهدتها في فيلم سينمائي منذ زمن بعيد، أو ربّما هي امرأة عبرت في حياتي، تعرّفت إليها، لكنّي لا أذكر متى وأين التقيتها.

كلّ ما في البيت كأنّه انفصل عنّي، بدا ليس لي، أو لم يعد ملكي وصار غريبًا. حتى الأثاث الذي بدا أليفًا قبل هنيهات، صارت بيني وبينه مسافة من الغربة والهجران. حينما خرجتُ من الشارع شعرتُ بأنّي وحدي، وأنّ سكّان البيت والبناية والحيّ كلّه لم يبقَ لهم أثر.

لا أذكر رقم غرفتي في الطابق الثالث في الأوتيل الذي نزلنا فيه، لكنّ رقم غرفة هاني في الطابق التاسع ٩٠٣، لا يزال محفورًا في ذاكرتي.

صعدتُ إلى غرفته ما إن اتّصلتُ به لدى وصولي مباشرة، وتأكّدت من أنّه ينتظرني فيها. خلف الباب بقينا للحظات واقفين يحتضن أحدنا الآخر. كدت أبكي من الشوق والحبّ. جرّني إلى

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

السرير فورًا. سألته مجدّدًا إذا كان الجنس مسموحًا له، فأكّد لي، وهو يبتسم بفخر، أنّ الطبيب لم يمنعه من ممارسته.

تنهّدت سعاد وهي تروي لي ما حكته لها نهلا عن لقائها بهاني في باريس. أكملت الحكاية لي، وتابعت ما قالته لها نهلا بلسانها:

تمدّد فوقي وأحاطني بكلّ جسده، حتى قبل أن أطلب منه ذلك وأقول له كم أشتهي أن تكون فوقي تغطّيني بجسمك الشهيّ. أريدك فوقي بقوّة، ولنمارس الحبّ هذه المرّة مثلما مارسه الإنسان لمّا اكتشف الشهوة أوّل مرّة. أشتهي يا هاني العودة إلى البدايات. أحبّ أن أجرّب عيشها معك هذه المرّة، من جديد، وبشكل جديد. ربّما لأطمئنّ إلى أنّه في إمكاني شقلبة الزمن، وأنّ الزمن لا يزال تحت سيطرتي وفي قبضة يدي، أو أنّه في وسعي أن أجعل بدايتنا أجملَ كلّ مرّة. مارِس معي الحبّ يا هاني كما لو أنّني أوّل امرأة عرفتها، وأنّ جسدي هو أوّل من أيقظ جسدك وعلّمك الشهوة. شهوتي لك يا حبيبي تزنُ أطنانًا لم أعد أقوى على حملها. فأطعمني اللذّة واسقِني جسدك. خيّمْ فوقي، وأحِطني من جميع جهاتي. أطبِق عليّ وادخُل فيّ ليفيض ماءُ الكون داخلي فأحبل بك وألدك كما ولدتك مرّات لا تُحصى. التحمْ بي لأصيرَك وتصيرَني ولا نعود نعرف أيّ جسد منّا هو الآخر. غطّني بك يا هاني ودعني أرتعش وأغرق، أنتشِ وأطِر.

تلك اللحظة، توهّج وجه نهلا وصار مثل جمر متلألئ، ارتعش صوتها، وذاب قليلاً، فسألتها وقد غرقت في عرقي، أن تتابع

فأكملت: ظننتُ يا سعاد أنّ كلماتي التي كانت تطلع من جوارح شهوتي له سوف تشعل جسده الفاتر. جسده فتر فجأة يا سعاد، عضوه أيضًا حرن وهمد. شفتاه ظلّتا تسرحان فوق جسدي على إيقاع يديه المتوتّرتين. حاولتا أن تُوغلا في مكاني الحميم، أوجعني تصلّبهما فتأوّهتُ وصرختُ من الوجع، فهدأت يداه وتوقّف كلّ ما فيه عن الحركة، وأبقى على عينيه مغمضتين، فثارت فيّ الظنون. لم يسبق لهاني يا سعاد أن أغمض عينيه مرّة واحدة ونحن نمارس الجنس، بل كان يصرّ على التحديق مباشرة في عينيّ. يمسك بوجهي، يديره نحوه وتغطس عيناه في عينيّ. هجمت عليّ الأفكار المقلقة، وللحظة حسبت أنّه ما عاد يشتهيني. يعني يا سعاد ما عاد يحبّني. وفكّرت في أنّ السبب يكمن فيّ، وأنّني المسؤولة وقد هرمتُ وصرتُ بشعة. خفت! خفت وصرت كالمجنونة. أحسست بأنّي متّ أو اختفيت ولم أعد موجودة. فهاني حبّ حياتي يا سعاد. يعني فقدان حبّه يساوي فقدي حياتي. حاولتُ أن أقول شيئًا، أيّ شيء، لكنّ لساني تيبّس وتخشّب وصار كالحطبة. بقيتُ جامدة مكاني ممدّدة فوق السرير أنظر إليه وهو جالس على الكنبة بعدما جرّ نفسه إليها جرًّا وقد أحنى رأسه الجميل الذي طالما شبّهته برأس إله إغريقي. وكوّم جسده كأنّه يحاول أن يُخفيه أو يذيبه، جسده الذي أعبده بدا يا سعاد مهزومًا ومبلوعًا وضئيلاً. انعقدت كفّاه حول عانته. ربّما لتحجبا انتكاسة عضوه المتهدّل الذي لقّبته منذ مرّتنا الأولى بمولاي. لم أجرؤ على الاقتراب منه. خشيت إن فعلت أن يصدّني ويسيء الظنّ بي، ويُفسّر تودّدي بمحاولة يائسة لاستدراجه ثانية إلى الفراش كي أبلغ

وحدي نشوة ناقصة. ثم إنّ الإحساس بالذنب والخوف عليه غلبا رغبتي، فتمنّيت ألاّ يجرّب ثانية إذ يكفيني أن أكون معه. أشياء كثيرة رحتُ أفكّر فيها ولا أعرف كيف أتصرّف. لا أعرف يا سعاد لمَ صرت أفكّر كالمهابيل. أصابني شلل كامل عطّل كلّ حركتي ما عدا أفكاري التي راحت تغزل في رأسي وتتحرّك بسرعة الضوء. شعرت بأنّ أفكاري صار لها عيون ترى وآذان تسمع. فحدّقتُ في هاني، وأصغيتُ بكلّ حواسّي إلى هسيس أفكاره وتهيّأ لي أنّه يقول لنفسه ما عوّدني دائمًا سماعه.

لعينيك يا نهلا قدرات عجيبة على السمع واللمس والشمّ وحتى الذوق، لطالما قرأتني يا نهلا بعينيك. لم أستطع يومًا أن أخفي عنك شيئًا، أو أكذب عليك. دائمًا كنت تكشفين أمري وتعرفين عنّي ما أحاول أن أخفيه، أو أسكت عنه أحيانًا، فكيف يمكنني الآن أن أفعل؟ وكيف أبرّر لك ما حدث وأداري خجلي وعرق الخذلان والمذلّة يتفصّد من كلّ مسامّات جسمي، ويفضحني؟. عرقي بارد يا نهلا كبرودة شهوتي. الآن، أشعر شعور رجل تقليدي خسر معركته في امتحان الفحولة ففقد إحساسه برجولته، وخسر اعتباره لنفسه. أحسّ بأنّ حجمي ضامر وضئيل بحجم عضوي الضامر. مثله أنا الآن، مزموم ومبلوع وعاجز. مسكين هذا العضو الخائب الذي ما خذلني يومًا. أنقم عليه الآن وأقسو، أكرهه وأخجل منه، أجعله سبب ضآلتي، وأنصّل جسمي منه كأنّه ليس منّي. كأنّه مجرّد آلة جنسيّة أحرّكها متى رغبت فتستجيب وتلبّي غريزتي البهيميّة وأنسى. أنسى كم سخرتُ من فحول الجنس وعايرتُهم بفحولة البهائم. يا خجلي، كيف أصبحت واحدًا منهم.

أفكّر مثلهم، بل أنا أسوأ منهم. أظنّ في نفسي النقصان والضعف والخسران وفقدان الاعتبار لمجرّد أنّ عضوي خانني ولم ينتصب. هل ستقبلينني يا نهلا رجلاً ناقصًا؟ هل ستظلّين على حبّ رجل بعضو رخو خيّم فوقك لكن مثل جبل من هلام؟ يا الله غلبتني الأوهام، فظننتُ أنّي شُفيت من جسد الفحل وعقله... لن تصدّقني نهلا أبدًا بعد اليوم. نهلا التي تعرفني وتقرأني، لن أعود بالنسبة إليها فارس فراشها فقط لأنّني مالك قلبها. يا الله، خسرت القلب وخسرت الفراش. خسرت نهلا وانتهى الأمر.

أشياء كثيرة أخرى قالها هاني لنفسه وحدّثتُ بها يا سعاد. أشياء خلّعَتْ قلبي من مكانه وأوجعتني. لكنّ رؤيته وهو يرتعش أمامي كطائر فقد جناحيه فهوى على الأرض دفعة واحدة أفقدتني ما بقي لي من صواب. قفزت عن السرير كالمجنونة، وجلست على الأرض بين ساقيه، وأمسكت بيديه الباردتين ورحت أقبّلهما وأدفئهما بيدي. لكنّ نظراته كانت تتجنّب نظراتي.

في تلك اللحظة بدا لي وجهه غريبًا. وجه لم أعرفه من قبل. لا، لم يكن شاحبًا ولا غائمًا أو هزيلاً أو حزينًا. شيء فيه جعلني أخاف عليه. وجهه الذي عبدته بدا لي مغلوبًا. هذه هي المفردة بالضبط. جعلتني أقرّب وجهي منه، أحكّ أنفي بأنفه، ألصق خدّي بخدّه، وأمرّر شفتي فوق جبينه وبين عينيه وأهمس له: أعد إليّ وجهك يا هاني. أعد إليّ عينيك، فأنا أخاف إن عانقتهما عيناي ألاّ أرى فيهما السماء والشمس والبحر والقمر والنجوم والضوء

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ومروج الدنيا كلّها. عيناك هما الدنيا، فلا تدع الدنيا تهجرني.

سمعتُ صوته يناديني لمّا دخلتُ الحمّام. عدتُ وركضتُ إليه، فقال لي بصوت مخنوق: غطّيني يا نهلا، يبدو أنّي لستُ بخير. انتزعتُ الحرام من على السرير انتزاعًا، وأحطتُ جسده به، ورحتُ أزرع بالقبل كفّيه وركبتيه، ثم ألصقتُ وجهي بوجهه وهمستُ في أذنيه. لا، لم أهمس يا سعاد، بل صلّيتُ له ساجدة: أنتَ رجُلي يا هاني، وأنت سيّدي وستبقى حتى ولو ضمر كلّ شيء فيك. أعشقك في كلّ تقلّبات حالاتك وأحوالك. ومهما حصل فستظلّ وحدك روحي ودنياي وجنّتي. لا تهتمّ يا هاني ولا تعظّم الأمور. هي لا بدّ حالة عابرة، ثم عليك ألاّ تنسى أدويتك فهي كفيلة بتعجيز جمل. ارفع وجهك إليّ، فيكفيني أن أنظر إليك أو أن أجلس بين يديك، أو أن تلامسني عيناك كي أبلغ نشوة يعجز أيّ رجل عن أن يمنحها لامرأة. حبّنا يا هاني ليس حبًّا عابرًا، ولا شغفًا طارئًا، ولا هو عشق فراش. قم، قم، يا غرامي لنخرج ونتمشّى على جادّة السان جرمان. ألم تعدني بأن... ولم أكمل يا سعاد. لم يدعني أفعل، فقد أمسك بغتة برأسي بين يديه، رفعني إليه، عَصَرني، ثم أبعدني قليلاً طالبًا منّي الوقوف عارية كما أنا، وراح يتملاّني من قمّة رأسي إلى أخمص قدميّ. لا تتخيّلي يا سعاد كيف استعادت عيناه ألقهما وشهوتهما. وجهه الجميل لم يعد ستارة معلوكة متهدّلة ومُسدَلة، وجسده لا، لن تصدّقي يا سعاد. جسده الذي كان منذ دقائق فقط بحجم كومة لحميّة متقوقعة، اعتدل واستقام مسترجعًا كامل صلابته وزهوه، ومعه بالطبع استعاد «مولاي» انتصابه. حرص هاني يا سعاد على أن أرى انتصابه، بل جعلني أمسك به وأحيّيه

بلقبه المعهود، قبل أن يُطبق بجسده على جسدي مهمهمًا بأن ليس امرأة مثلي، ولا وجود لحبّ مثل حبّي. «يا سكّرتي، أنتِ جنّتي»، ونَم لي وعسل شفتيه يمرّغ شفتي.

تطلّعتُ فيه وابتسمتُ لمّا قال لي بفخر وارتياح وهو فوقي بعدما دخلني: معقول يا نهلا؟ والله الحكيم ما رح يصدّق. قلّي، أوعا يا هاني تجرّب لأنّه ولا يمكن تقدر من الأدوية اللّي بتهدّ الخيل. شفتي يا نهلا شفتي، كيف الحبّ بيغلب المرض؟

يومها يا سعاد أدركت عنّي وعنه أشياء كثيرة لم ألتفت إليها من قبل. أشياء عرّفتني أكثر إلى نفسي وإليه. عرفت يا سعاد أنّ الحبّ قد يُدرك الضعف إدراكه القوّة. وفي الحالين نزداد حبًّا. الرغبة يا سعاد قد تسقط في الامتحان حين تفشل في ترجمة نفسها جسديًّا، خاصّة حين يداهمنا العمر أو يُتعبنا المرض بدون أن يعني ذلك بالضرورة فتور الحبّ أو زواله. ففي الحبّ الحقيقي تتعلّم أجسادنا كيف تصبر وتقبل وترضى. وتصير تعرف كيف تشفق وترقّ وترأف ولا تعود تنسى أو تعقّ الحبيب. تصير أجسادنا وجدانًا صافيًا من الحبّ الخالص. هكذا فقط، يصبح الجسد كاملاً وقادرًا وواثقًا ولا يخاف الاعتراف... لا مجرّد آلة جنسيّة يوهمها فوران الشهوة وحماسة الرغبة أنّهما الحبّ ولا شيء عداهما، أو مجرّد أداة جنسيّة يُصيبها خلل ما فنستغني عنها ونستبدلها بأخرى موفورة العافية بحجّة أنّنا نريد حبًّا معافىً.

عرفت يا سعاد أنّ فينا جميعًا شيئًا من موروث بشع نبقى أسرى له ما لم ينكشف لنا ونعترف به لنغلبه، وليس لنتذرّع به. وموروثي

البشع لا يزال على ما يبدو كامنًا فيّ، يبعث الخوف، بل الرعب في أوصالي من ترهّل أفقدني شيئًا من نضارة جسدي وشيئًا من رشاقته، ومن تجاعيد صارت بارزة تقول عنّي ما لا أقبله فيّ منّي ولا من غيري. في داخلنا يا سعاد، حرب وهدنة، وما زال الصلح بعيدًا، قد نرضخ نحن النساء لهزيمة العمر ونتكيّف معها ونعتادها على مضض، لكن شرط ألاّ يلاحظها الآخرون. تصوّري أنّني كنت مذعورة وخائفة، بل خجلة ومحبطة من بدانة بطني الذي زاد بروزًا حين انحنيتُ عليه عارية، ومن ذاك التهدّل الذي أصاب ثدييّ. ظننتهما السبب المباشر لفتور رغبته فيّ. لم أكن أميّز يا سعاد من قبل بين الرغبة والقدرة على ممارستها في السرير مع من نحبّ. لم أفكّر يا سعاد للحظة في أنّه مخادع وكذّاب ومنافق وخائف، وأنّه استعاد هيجانه ثانية لسبب واحد هو أنّه استحضر في خياله صورة لامرأة صبيّة تثيره ويشتهي النوم معها. لكنّني أحسستُ في لحظة من اللحظات أنّه يستعيد أمام عينيه مشهد جسدي وأنا صبيّة. شعرتُ بذلك للحظات ثم عاد ورأى جسدي كما هو عليه اليوم. ولأقُل لكِ الحقيقة: لم أستطع التخلّص من وساوسي كلّها إلاّ حين سألته أن يُبقي عينيه مفتوحتين تحدّقان فيّ تمامًا كما كان يفعل دائمًا حين نمارس الحبّ، مصرّة على أن يناديني باسمي مرّة ثم مرّتين ثم أربعًا... ثم لم أعد أذكر عدد المرّات يا سعاد. تكشّفت لي كما أكشف لك الآن هواجس الخوف من عمر جسدي أمام حبيبي، إلاّ أنّ عين الحبّ جمّلت ما أفسده العمر، بل ربّما رأته جميلاً كما هو عليه. لكنّ السؤال الذي آلمني بعدما عدت إلى غرفتي وتمدّدت على سريري، هو: هل من الممكن أن يفقد هاني ذاكرة جسمي إذا

انتهى تقاربنا الجسدي، وهل من الممكن أن تفرغ ذاكرته منه لأنّه لم يعد قادرًا على الولوج بي، وليس لأنّ الحبّ انتهى؟

ما طمأنني وجعلني أغفو أنّ الحبّ بيننا لم ينته. بالعكس، فغرامي به له أسماء كثيرة. وقد أُضيف إليه اسم جديد لكثرة ما كان حبّنا حارًّا وساخنًا اليوم. حبٌّ عَقَدَ بيننا عقد غرام جديدًا لم أهتدِ على مفردته بعد. يكفي أنّني أحسستُ به، وسوف يناديني هو باسمه وحده لاحقًا.

الآن يا سعاد أعرف أنّ لشعورنا برغبة الآخر فينا، ولو عجز واحدنا عن ترجمتها جنسيًّا، مفعولاً أقوى من منقوع شرش الزلّوع الصالح بالطبع للرجال والنساء معًا...

لو رأيت يا سعاد مدى زهوي وغبطتي وأنا أمشي إلى جانبه على إسفلت الشارع في السان جرمان، يُمسك بيدي، فأخطف نظري بين الحين والآخر إليه ثم إلى نفسي وأشعر بقامتي تشمخ وتطول، وبجسدي يزداد خفّة ورشاقة.

فتحة قميصي أبرزت لي ملتقى ثدييّ، فتبسّمتُ يا سعاد بشقاوة صبيّة في عشرينيّاتها، ودغدغني الإحساس بأنّهما أقلّ تهدّلاً ممّا تصوّرت، وبأنّ بدانة بطني في أوضاع معيّنة ليست بالقدر الذي اعتقدته. ثم ما همّ! سأجعلها له أجمل وأنعم وأرقّ وسادة في الكون. دعساتي، آه من دعساتي! صارت مزغزغة وواثقة ولها على الأرض يا سعاد رنّة زغرودة، فتطلّعت إلى السماء، ومن جذلي ضحكتُ ملء قلبي بصوت عالٍ.

• • •

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

قرّصتني ضحكة نهلا. انتشلتني من صمتي الطويل، وقد عادت تجلجل كجرس العيد، بحبور امرأة طلعت للتوّ من نشوة مُسكرة. سألتني ممازحة وبعتاب، متى سأتكرّم عليها بتعليق يناسب مقام لقائها الغرامي العظيم، فعاد جسدي يتململ من جديد. جسدي البليد الصامت الساقط في الكوما منذ زمن بعيد، كان أحيانًا يفيق ويخفو، ثم يفيق ويغفو، وفي معظم الأحيان كان يبدو لي غارقًا إلى ما لانهاية في تجربة موته. مرّات أحسّ به قبرًا مفتوحًا ينتظر ساعة دفني ليُدفَن ويرتاح منّي، ولا يعود بعدها مُجبَرًا على حملي وتحمّل الصبر المرّ الذي أذيقه إيّاه. جسدي الخامل الصموت والمكبوت هذا، كان يغار من نهلا. أحاديث غرامها الملتهب كانت تردّه لحظات إلى الحياة، فينتعش ويتململ في قبره يحاول أن ينبّهني، وأن يعيدني إليه لنحيا معًا كما يحيا جميع الناس مع أجسامهم، يكرهونها مرّات، ومرّات يتصالحون معها. وأنا قلّما عرف جسدي معي حالة صلح منذ زواجي. أكرهه ويكرهني، يقرصني فأقرصه، يعضّني فأعضّ عليه، يصفعني فأخربشه، أخدشه وأكتم كلّ نفس فيه. نتبادل أرذل الشتائم، وأصفه بأقذر الصفات فيردّ لي الصاع صاعين، ويتّهمني بالقبح والبشاعة. لكنّي دائمًا كنت أهزمه وأنتصر عليه، فيهرب منّي خائفًا، ويعود مثل الفأر إلى وكر التراب، بانتظار أن تفور نهلا بالأحاديث من جديد فيهتاج ويتململ ويهمّ بالصراخ...

لا أفهم لمَ لم يتجرّأ عليّ جسدي إلاّ عندما يتوثّب جسد نهلا وهي تحدّثني عن الغرام، ويصير جسدها يفور بكلام يتدفّق عبر فمها كزبد البحر، فأحسّ بأنّ نهلا وجسدها يتلاثمان، كأنّهما

عاشقان لا ينفصلان أبدًا. يحبُّ أحدهما الآخر ويتواطآن على اجتناء كلّ ما يسعهما من ملذّات الغرام، فتدبّ الغيرة في جسدي وأنصتُ إلى نشيجه المحموم يذكّرني بأيّام الوداد، زمن كنت وإيّاه في صلح وحبّ ووفاق. زمن كنت أزهو به ويزهو بي، لا أخجل به ولا يخجل منّي، ألبسه ويلبسني ويزغرد كلّما زغردت، ويغرّد حين أغرّد. يا الله كيف تتغيّر الأجساد حين نتغيّر، إلاّ جسد نهلا الذي لم تهجره ولم يهجرها لأنّها لم تنسه مرّة. حرصَتْ دائمًا على إرضائه والإنصات إليه. تمهّلته لمّا حملت وأنجبت فانصاع لها وصبر، لكن ليس لوقت طويل.

كانت نهلا تحكي لي كيف تغيّر جسدها، وتسألني إن كنت أشعر مثلها. تقول إنّه صار أنضج وأعقل، أو ربّما تخلّت بعض الشيء عن جموحه وجنونه. في السابق كان وحده الغاية والهاجس، وله وحده المكان كلّه، حتى في أحلى لحظات الغرام مع هاني تتصوّر أنّ جسدها هو بركان اللذّة ومنه يغرف هاني لذّته. كانت تحسّ به فلكًا مفردًا وكلّيًا تنجذب إليه نجوم شهوة هاني وتتّحد به ليصيرا كتلة مشتعلة من اللذّة الصافية. لذّة لا يمازجها أيّ إحساس آخر، ولا تفسح مكانًا لأيّ شيء آخر. بدأ تدريجًا بداخلها إحساس جديد لم تعرف له في البداية اسمًا، إلى أن اكتشفت لاحقًا أنّه يشبه الأنس. حين تكبر الأجساد يا سعاد تتخلّى عن طيشها أو عجرفتها وتفقد شيئًا من تباهيها واكتفائها بذاتها. حينها فقط تفسح المكان لذاك الإحساس اللطيف الذي يصير يصحب اللذّة. إنّه الأنس يا سعاد. الأنس الرقيق في الغرام لمّا نتقدّم في العمر، الذي يجعلك تشفين، ويفتح عينيك على دنيا الجسد الواسعة والعجيبة. كانت

نهلا تتحدّث، وهي تتنهّد وتعضّ على شفتها السفلى كأنّها تُكافئ نفسها على اكتشاف يخصّها، أو ربّما لتعرب عن حسرة لذيذة باتت تعوّض بها زمن اللذّة الصافية.

لنهلا حسرتها التي تمتّعها وتُبقي جسدها حيًّا ينبض بالشهوة ويستجيب للغرام، ولجسدي رائحة خزانة عَطِنة، وصوت عظام تطرْطق طرطقة هيكل عظمي أجرد. أسمعها وأجفل فأتلمّس ساقيّ وذراعيّ وكتفيّ وفخذيّ وسلسلة ظهري، وأشعر بأنّني ألملم عظامًا هشّة، عظامًا جافّة ناشفة ومنخورة، أخاف أن تتفكّك وتسقط منّي إن وسوستُ لنفسي بفعل ما تفعله نهلا، أو حتى أن أفكّر مجرّد تفكير في الغرام مثلها.

أمتنع عن جسدي وأعاديه، وكلّما عذّبني أو حاول الإفلات منّي أمنعه وأذكّره بهشاشته وبشاعته. وحين أجلس بين نهلا وعزيزة وهدى ونادين، أحرص على البقاء جامدة كأبي الهول. أنكمش وأكوّم عظامي وأروح أراقب ليونة أجسادهنّ، وكيف تُطاوعهنّ على الغنج والتمايل، على إيقاع أغنية طربيّة أو موسيقى راقصة تصدح في المقهى الذي اعتدنا الاجتماع فيه. أوزّع نظراتي في السرّ بينهنّ، ثم أدعها تستقرّ على جسد نهلا ينثني ويتلوّى خفيفًا كالريشة، طروبًا ومنتشيًا، كأنّ للموسيقى أنامل بشريّة تدغدغه، تؤرجحه وتدلّله، فتُغمض نهلا عينيها وتتأوّه، بينما ترتفع ذراعاها لتلوّحا في الهواء غير آبهة للعيون الفضوليّة. يهرب جسدي إلى الماضي ويتذكّر لطافته، يتذكّر رشاقته وخفّته ومهارته في الرقص، فأسخر منه. أذكّره بصوت القرقعة فيهمد من جديد.

يا الله، كيف تغيّر جسدي وصار بشعًا. صار همًّا أحمله غصبًا عنّي. منذ متى لم أمتّعه ولم أتمتّع به كما أحبّ ويحبّ؟ لم أعد أحصي السنين. ربّما منذ ما لا يزيد على الشهر الأوّل من بداية زواجي. لا، لم يكن ما شعرت به في خلالها متعة، بل كان إيهامًا بها. سراب لذّة كاذبة لا تشبه أبدًا ما سبق أن جرّبته. منذ ذلك الحين وجسدي يموت يومًا بعد يوم. أقرف منه وأوبّخه، وأستكثر عليه حتى لذّة السرّ والخيال. لجسدي حكاية لا أجرؤ على البوح بها، وحقيقة أحرص على إخفائها. ما من أحد يعرفها سوى نهلا. بالتأكيد، لا تعرف تفاصيلها كلّها أو ربّما كانت تعرف وتحاول أن تتغاضى. كانت نهلا تراعيني وتجعلني أصدّق أحيانًا أنّ أجسادنا تستأهل منّا الحبّ والثقة والاعتراف مهما كانت بشعة أو مريضة أو حتى مشوّهة. الجسد هو الجنّة. كانت تقول، فلمَ نعتبره تابوتًا. ليت لي جسدًا له ولو القليل من ثقتها بجسدها وحبّها له. ليتني كنتُ مثلها قادرة على الرأفة بجسدي والقبول به.

منذ اختفائها وأنا أغور يومًا بعد يوم. أغور أكثر فأكثر في قبري، وأحاول أن أتقرّب إلى جسدي. أن أعتذر إليه، وأعترف له. ألامسه بحنان وأشجّعه على الصمود. أسأله أن يقبلني ويعلّمني الصبر على الانتظار.

خذي، خذي الأوراق واقرأي، فنهلا لم تترك شيئًا لم تكتبه. وأظنّها كانت تعرف عنّي أكثر بكثير ممّا تصوّرت. اسمعي قبل أن أنسى ما قالته لي نهلا قبل نحو شهر على اختفائها: «تحت شجرة

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

الرمّان، في بيتنا في القرية، كدسة أوراق كنت قد دفنتُها هناك. الغريب أنّني كتبتُ فيها عنكِ يا سعاد. كتبتُ أشياء لم أكن أعرفها عنك. أقسم إنّني لم أكن أعرفَ. حدسٌ غريب كان يحملني إليك، يجعلني أفكّر فيك وأكتب بعض ما كتبت. هل تعتقدين أنّ الكتابة تجعلنا نعرف الأشياء قبل أن تحدث؟ هل تسافر بنا الكتابة إلى المستقبل؟ آه يا سعاد، هل سيكتب أحد قصّتي ويعرف عنّي ما لا أعرفه عن نفسي؟ أنسى أشياء كثيرة يا سعاد. كيف سأتذكّر أنّها أشيائي، وأنّها قصّتي، إلاّ إذا طاوعتني علويّة فعلاً وكتبت عنّي واستهدت إلى ذاكرتي وقصّتي؟ أشعر يا سعاد بأنّ ذاكرتي تتضاءل. أنسى الوجوه والأسماء، وأنسى أحيانًا من أكون.

- ١٦ -

لم أُرِد أن أخفيها في الرواية، وأن أرسم لها هذا المصير.

ولم يعرف أحد شيئًا عنها.

فُقدت نهلا واختفت قبل أيّام من حرب تمّوز، بعدما التهم الألزهايمر ذاكرتها. وأدركتُ حينها أنّها حكت لي حكايتها ليقينها أنّ ذاكرتها ستختفي.

نهض سليم ذات صباح فلم يجدها في البيت. فتحَت الباب وخرجَتْ وضاعَتْ، ولم تعد تعرف كيف تعود. أو أنّها لم ترد أن تعود. جميع محاولات التقصّي وعمليّات التفتيش عنها، في المخافر والقرية والأماكن التي تقصدها، لم تكشف لها أثرًا. في البداية، حاول زوجها وأولادها إخفاء السرّ، إلاّ أنّه عاد وشاع. وسعاد لفّت المدينة شارعًا شارعًا، ولم تدع زاوية كانت تقصدها برفقة نهلا إلاّ وذهبت إليها، لكن عبثًا.

كانت سعاد قد اتّصلت بي مرارًا تسألني إذا ما عرفتُ شيئًا، أو إذا كانت نهلا قد اتّصلت بي. جاءتني ذات صباح، وقفَتْ أمام باب بيتي دامعة العينين بدون أن تقول شيئًا، حكت عيناها كلامًا غير مفهوم ثم أدارت لي ظهرها وذهبت. ثم عادت واتّصلت بي.

لكنّها لم تردّ لمّا رفعتُ سمّاعة الهاتف. ضاق خلقي بعدما كرّرتُ سؤالي عمّن المتكلّم وقلت:

ـ يا عمّي، مين عم يحكي، يا بتقول مين يا بغلق الخط.

ـ «أنا... أنا سعاد»، أجابت بصوت مخنوق.

ـ أهلاً سعاد، كيفك؟

ـ شو هالسؤال؟ يعني كيف بتتصوّري كيفني ونهلا مختفية؟ قوليلي وين برأيك اختفت، ما خلّيت محلّ ما دوّرت فيه. إنتِ كاتبة ومفروض مخيّلتك واسعة، شو بتقولي؟ وشو رح تعملي وتكتبي؟

ـ «لا أعرف»، أجبتها.

لم أكن أتوقّع لها هذا المصير. صحيح أنّها حدّثتني كثيرًا عن النسيان، وقطعت اتّصالاتها بي بعد مجيئها من باريس، إلاّ أنّ اختفاءها صدمني. وسعاد أخبرتني عن صدمة هاني عندما علم بمرضها. قال لها: نهلا ألزهايمر؟ معقول؟ ثم وجد نفسه يقول، اطمئني يا نهلا. ذاكرتك معي، وحبّنا لن يموت ويختفي وينسى.

لو كان لها قبر لذهبتُ إليها ووقفتُ أمامه، وقرأتُ لها الفاتحة، وقلتُ لها إنّ حكايتها لن تختفي مثلما اختفتْ هي، ومثلما هي حكايا الناس تحت الأنقاض. ولكنت سألتها ما إذا كانت قد أخذت أوراقها القديمة المدفونة تحت التراب لمّا ذهبت إلى قريتها في زيارتها الأخيرة، واختفت مع اختفائها، أم أنّها لم تفعل لاعتقادها أنّها تحلّلت مع حكاية طفولتها وطفولة سعاد ونادين

وعزيزة... ولكنتُ سألتها إذا ما ذهبت وهي فاقدة الذاكرة إلى قريتها، ولم تستطع أن تعود بسبب الحرب، فراحت تحت القصف، وصارت مدفونة تحت أنقاض البيت، أو تحت التراب مع أوراقها القديمة.

هي قالت لي يومًا إنّ الكتابة استشراف للمستقبل، وإنّها كتبت حياة سعاد في أوراقها القديمة. والحقيقة، لا أعرف ما إذا كانت قد كتبت قصّة اختفائها أيضًا، أم أنّ جزءًا من يديها دفنته مع الأوراق هناك منذ زمن طويل، ولم تكتبها.

سألتني نهلا مرّة، وهي تروي لي حكايتها، لماذا الخوف من فقدان هاني، ولماذا لا أطرح على نفسي قصّة خوفي من فقداني، وعندي مليون مبرّر؟

وهاني ضاع. شعر باختفائها. كأنّه أضاع ذاكرة جسمه وفقدها. أحسّ أنّه ضعيف، وأنّ حبّها كان يجعله قويًّا. ضعفه بدا خفيفًا مثل ريشة، لكنّه ضعف قوي ويهدّ جبالاً. باختفائها، شعر بأن حناجر العصافير أُفرغت من تغاريدها، والبحر أُفرغ من مائه وزرقته، والهواء من شفافيّته، والقمر من نوره، والنجوم من سمائها. وأحيانًا كان يشعر بالاختناق، كأنّها شربت كلّ الهواء في صدرها، وأطبقت عليه ورحلت.

كان هاني قد دخل بيتها للمرّة الأولى بعدما شاع خبر اختفائها. كان البيت ممتلئًا بعائلتها وبالأصدقاء والصديقات، وبمعارفها الذين توافدوا إليه للسؤال عنها بعدما عرفوا بالخبر. وكانت نادين

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

وعزيزة وهدى غارقات في صمتهنّ وذهولهنّ.

جلس هاني إلى جانب سعاد، وهمس لها إذا ما عرفت شيئًا جديدًا عن نهلا. هزّت له برأسها نفيًا، ثم راح يحدّق في أشياء البيت وأثاثه كأنّه ينتظر أن يراها. انخطف لونه، وصار قلبه يدقّ بسرعة، عندما نظر إلى ابنتها فاتن التي تشبهها كثيرًا حين كانت في عمرها. فكّر في أنّه كان من الممكن أن تكون ابنته. انفعل مرتبكًا - مثلما حصل معه حين التقى بها أسفل البناية وصعد معها في المصعد. الألم شلّ ركبتيه والذهول ملأ عينيه لشدّة شبهها بأمّها.

راح هاني يبلع ريقه وهو ينظر إلى صورة نهلا المعلّقة على حائط الصالون، بعدما مرّ ببصره على زرّيعة الشرفة التي كانت تحدّثه عنها. كان هاني قد أهداها الصورة في عيد ميلادها الأربعين بعد استعادة علاقتهما إثر قراءته رواية «الحبّ في زمن الكوليرا». كان طلب من رسّام لبناني مشهور، صديق له، أن يرسمها، بعدما أعطاه صورتها. كانت ابتسامتها محدّدة وأضيق بكثير من ابتسامتها التي تتّسع لسهول وشموس وأقمار وطيور وأشجار وبلاد. الحياة كانت تطلّ من عينيها بهيّة كريمة. جمالها من داخلها كان يشعّ كنجم، وعادة الصدق الرهيبة بادية في نظرتها وتعابير وجهها، والحبّ في ملامحها بدا ممهورًا ببعض الحزن. قبّة فستانها الأحمر تكشف عن كتفها. كانت غصّة نهلا في قلبها كبيرة لأنّ هاني لم يرها في هذا الفستان الذي اشترته يومًا قبل استعادة علاقتهما آنذاك. وعندما بدأ الألزهايمر يضرب رأسها، طلبت من سعاد أن تفتح الخزانة وتُلبسها إيّاه ليراه هاني عليها.

عاد هاني وزار منزلها مرّة أخرى. في تلك المرّة كانت الكهرباء مقطوعة، فقصد شقّتها في الطابق الحادي عشر صعودًا على الدرج. ولمّا وصل، كان العرق يتصبّب منه، وقلبه يدقّ. وقف على سفرة الدرج، وصار يرتجف، ثم عاد بدون أن يدخل. وسعاد فعلت ذلك مرّات، لكنّها لم تعد تذهب إلى بيت نهلا منذ أن دخلته في أحد الصباحات، ووجدت زوجها يضع عطرًا قويًّا يفوح منه للمرّة الأولى بعد غياب نهلا. وفي الصالون رأت أخت جارة نهلا العانس تضع ماكياجًا كاملاً وترتدي تنّورة مثل تنانير نهلا، وكانت تشرب القهوة مع زوجها المرتدي الروب فوق البيجاما. شاهدت بعينيها اهتمامه بها، فخرجت ووجهها يرتدي أكثر الملامح حزنًا، شعرت بأنّ أحدًا ما عضّ قلبها، وفكّرت أنّه لا يكفي غياب نهلا لبضعة أسابيع حتى ينساها، بل لا يجب أن ينساها أحد قبل أن تنساها هي.

عذاب هاني لم يكن أقلّ من عذاب سعاد حين كان الألزهايمر قد بدأ يهجم على نهلا. تنسى هاني ثم تنساها، ولمّا تعود وتتذكّر تصير تبكي ويصيبها الاكتئاب. قبل أن تروح ذاكرتها عادت تروي لسعاد طفولتها، وتنادي أحيانًا أمّها أو أباها أو جدّتها أمينة، ثم تعود وتنساهم وتنادي أولادها. وكثيرًا ما أخطأت باسم زوجها، ونادته بهاني.

كم تعذّبت نهلا قبل أن تفقد ذاكرتها كلّيًا، وكم تألّم هاني. كان يضع يده على فمه، ويصمت. يعتريه الذهول لمّا تتطلّع إليه فجأة ولا تعرفه، حين يكونان معًا.

كان هاني قد تجنّب أن يراها بعد عودتهما من باريس خوفًا من أن يخذله جسده، لكنّه بقي على اتّصال دائم بها. وأثناء مرضها فقد صوابه. صار يراها برفقة سعاد.

ونهلا تتعذّب، تشعر بأنّها تفقد شخصيّتها رويدًا رويدًا وسجلّ حياتها وذكرياتها وجميع الذين تحبّ. تحسّ أنّها وحيدة في الهواء، بلا ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل. دمعت عيناها مرّة لمّا قالت لسعاد وهي تبتسم، إنّها تخاف أن تخرج من البيت وحدها، وتضلّ الطريق، وإنّها تفكّر في أن تضع في حقيبتها رقم تليفونها ورقم هاني ورقم ابنتها فاتن، مع ملاحظة أنّه يجب الاتّصال بالأرقام فورًا إذا ما نسيتُ من أنا وأضعتُ طريقي. ثم ابتسمَت عيناها مرّة أخرى لتغطّي حزنهما أمام سعاد بعدما قالت ذلك.

لكنّها لم تفعل، خافت أن تصير مفقودة حتمًا.

كانت نهلا تعي حالتها قبل أن تتدهور. لمّا تعود إليها ذاكرتها بعد ضياع، تصمت أحيانًا لشعورها بأنّها قد تخطئ في كلماتها، ولا تستطيع التركيز. وعندما كانت تبدأ بالخربطة، تعيش أحيانًا حالتها كشابّة وطالبة في الجامعة، فتبدأ بالتصرّف مع هاني كعشرينيّة تضجّ حيوية وتفاؤلاً ونشاطًا. تعيش حبًّا تؤمن به. ومرّة قالت له وهي معه:

- يلاّ، قوم خدني على الأورانج (مقهى قرب الجامعة، كانا يرتادانه في السبعينيّات)... قوم بدّي شوف سعاد ونادين ناطريني هونيك.

ألحّت عليه بحماسة شديدة. تطلّع هاني إليها فرآها تلك الطالبة الصغيرة، البنت التي أحبّها، خفق قلبه، ثم انتبه إلى أنّها ضائعة وتضيّعه. لكنّه لم يُحبّ أن يخذلها، وربّما أحبّ أن يعيش تلك المواقف والأيّام ثانية.

لكنّه في الوقت ذاته كان يؤلمه أنّه يضحك على نفسه وأنّها مريضة، وأنّه صار ضائعًا بضياعها.

أخذها مرّة برفقة سعاد إلى مقهى الأورانج، الذي تغيّرت كراسيه البرتقاليّة وطاولاته واسمه، وكلّ شيء فيه، وكذلك المسؤول والموظّفون. دخلوا المقهى الذي كان يعجّ بطلاّب وشبّان وشابّات. نظر هاني إلى ثنائي يجلس في زاوية منه. كانا يضحكان ويتعابثان. شعر بأنّهما يعيشان ماضيه وماضي نهلا، وربّما لا يعرفان أنّهما يومًا ما سيكونان مثلهما، وربّما يُصاب أحدهما بالألزهايمر. ضحكت يومها نهلا بصوت عالٍ جذب انتباه الطلاّب، فشعر هاني وسعاد بالألم والخجل من أجلها.

مرّة ثانية أرادت أن تذهب إلى كلّيّة التربية لترى الأصحاب. راحت تسبق هاني وسعاد لتنزل راكضة بشقاوة على ذلك الدرج الصغير المؤدّي إلى الكافتيريا. كان لدى نهلا شوق إلى تلك الأماكن القديمة، كأنّ في أعماقها حنينًا جارفًا لذلك الماضي البعيد:

- «وين أسعد؟» سألت بصوت عالٍ.

تذكّر هاني أسعد بضحكته المجلجلة ونكاته الجريئة وصوته العالي وسندويشاته الشهيّة عند الجوع. وتذكّر صوت فيروز الذي

www.mlazna.com
KRAYAHEENA^

كان يظلّ صادحًا في قاعة الكافتيريا الكبيرة.

تصرّفت نهلا كبنت صغيرة، وسألت عن جورج صاحب المطعم القديم، لكن لم تجد أحدًا بهذا الاسم. فَتَرت حماستها وأُصيبت بخيبة. حاول هاني أن يهدّئها، لكنّها عادت إلى حالة انكماش داخل نفسها، مثل سلحفاة خائفة حذرة تنكمش في بيتها. وبعد فترة صمت طويلة بينهما، تغيّرت ملامحها وعادت ذاكرتها إليها. تطلّعت إلى سعاد، وفي عينيها نظرة حزن وألم، وقالت لها:

ـ شو جابني لهون. بليز قومي خديني على البيت.

حين كانت نهلا تُصاب بنوبة نسيان، كانت تظلّل عينيها غمامة فترتبك نظراتها، وترتجف، وتبكي أحيانًا، فلا يملك هاني إلاّ أن يحتضنها بقوّة وحبّ والألم يعتصره. وفي آخر مرّة رأته فيها، بكت وهي تسأله إن كان يظنّ أنّ حبّها يصنع معجزات، فأدمعت عيناه. ثم امتنعت عن لقائه، وما عادت تردّ على اتّصالاته لمّا شعرت بأنّ وضعها صار حرجًا، ودخلت في نفق كآبة وحزن لم تخرج منه. وفي لحظات وقوعها في النسيان، كانت سعاد تقرأ لها قصائدها الحميمة التي كتبتها لهاني، ورسائل هاني إليها، لكنّها كانت تنظر إليها بصمت لا يشبه أيّ صمت آخر في الدنيا. وفي لحظات تعبها، كانت سعاد تُقنعها بالإيمان، وأن تعتصم بحبل الله لتعود إليها الطمأنينة، وتستعيد الآمال المفقودة وتتجدّد. وكانت في لحظات الضعف هذه تسلّم بإيمانها وتقتنع.

* * *

اختفت نهلا، وسعاد جُنّت. بقيت طوال حرب تمّوز والأسابيع

التي تلتها تفتّش عنها ولا تعرف أين تجدها.

«أين أنتِ، وأين أعثر عليك؟ صوتك في أذني، وحياتي اختفت مع اختفائك»، تحدّث سعاد نفسها وهي تسير في الشوارع على غير هدى، تقف عند المنعطفات، وعيناها تبحثان عنها، لكن عبثًا.

تتوالى أسابيع الحرب وسعاد لا تعرف أين تجدها. طرقات بيروت لفّتها شارعًا شارعًا. تسير مفعمة بالألم. تتساقط حبّات العرق منها، وتسأل نفسها ما إذا كانت نهلا بين المفقودين تحت الأنقاض، أو في أحد التوابيت التي شاهدتها على الشاشة ليلة أمس، تفترش ساحة مدينة صور. أمام عينيها كان صوت وملامح المرأة الواقفة إلى جانب تلك التوابيت تولول. سألها مذيع «الجزيرة» ما إذا كان ينقص الناس طعام أو أدوية أو ماء أو أيّ شيء، فأجابته: لا ينقصنا سوى التوابيت، فليرسلوا إلينا المزيد.

تسير سعاد، ولا تعرف أيّ طريق تسلك. أكتاف الرجال تراها كأنّها حاضرة لحمل التوابيت. القامات شاردة كأنّها تفتّش عن أجساد ضائعة منها. العيون لم تكن كالعيون. إنّها مجبولة بروائح الموت والدم والفقدان والكبرياء. تشمّ في أجساد العابرين روائح كثيرة ممزوجة بروائح جنس أيضًا. تسأل نفسها لماذا تصير في الحروب روائح الجنس نفّاذة. تسأل ذلك وهي ترى بعض الرجال العابرين أوّل المساء في الشوارع، يحكّون أعضاءهم التناسليّة. تتلفّت إلى المقاهي المكتظّة في شارع الحمرا بالناس وبالكلام المكرور ذاته. تقف عند المنعطفات وعيناها تبحثان عنها. تحدّق في المارّة لربّما تلمحها. تفكّر وهي تقطع الطريق من طرف إلى آخر

أمام السيّارات العابرة: تُرى، هل يعرف هؤلاء الناس كلّهم إلى أين يذهبون، وهل اتّجاههم محدّد، أم هم مثلي لا يعرفون؟ والشوارع التي تعبرها، تشعر كأنّها تفتّش بدورها عن مخبأ، فتسأل نفسها ثانية: أين أنتِ يا نهلا؟ كنتِ تتحدّثين عن الشوارع أيّام الحروب، كيف تفرغ وتصير أشبه بهياكل عظميّة، والأرصفة كأنّها أجساد عارية: الشارع مثل البشر يخاف ويئنّ ويتوجّع. كنتِ تقولين إنّك كنتِ تشعرين بأنّه يصير في الحروب يشبهك، وحيدًا ومهجورًا مثلك، وكنتِ تقولين إنّ الشارع ينتظر أن يمرّ هانيّ، ويمرّ العشّاق لينشط ويتشيطن ويعبث.

تدخل سعاد زواريب تملأها خيم الناس الذين لجأوا إلى بيروت هربًا من الحرب. تسمع ضجيج البعض وصمت بعضهم الآخر. ولمّا تعبر في شارع فارغ كليًّا، ينبّهها وقع حذائها إلى فراغه. تحسّ أنّ دبيب الحياة سيعود إليه. وقع حذائها المنفرد ربّما كان يؤنسه. تفكّر في التراب الذي تحته. هل تحته تراب أم شيء آخر؟ صارت جميع الأشياء المغطّاة تثير شبهتها، تجعلها تفكّر في ما تحتها منذ إختفت نهلا، ومنذ تكاثرت أنقاض البنايات المهدّمة. تتأمّل حبّات الإسفلت الترابي أمامها، يتراءى لها أنّه عالم بحدّ ذاته، تصادف على الأرصفة التي ما عادت أرصفة، أكوام العابرين.

ذهبت سعاد أيضًا إلى كلّ الأمكنة التي تجمّع فيها المهجّرون. قالت في نفسها ربّما تجدها هناك بعدما نسيت اسمها، وضاعت عن حالها، ولم تعد تعرف من هي. قالت ربّما تكون خائفة

ومتّسخة «وطلعت» رائحتها، أو ربّما أخفت شعرها تحت قمطة، أو أنّها تلبس مثل الشحّاذين. شعرت بأنّ الدمعة التي بلعتها أشبه بحبل التفّ على عنقها وراح يخنقها لمّا تخيّلت أنّها ربّما تكون مشرّدة. أحسّت بأنّ حواسّها مهدّدة. أمرتها بأن تكون في قمّة استنفارها بعدما خطر في بالها أنّها ربّما تكون على هذه الحالة. الأمور تزداد التباسًا عند سعاد وهي تفتّش عنها. كانت كلّما لمحت عينًا باكية خُيّل إليها أنّها عينا نهلا، وكلّما سمعت بكاءً أو ضحكًا حسبتهما ضحكتها أو بكاءها. كأنّها رأتها موزّعة بين الناس كلّهم. وفكّرتْ لو كانت نهلا موجودة لسألْتُها من سيكتب قصص البشر الذين راحوا تحت الأنقاض، وراحت معهم حكاياهم. ابتسمَتِ ابتسامة يتيمة للمرّة الأولى منذ اختفاء نهلا حين شاهدتْ صبايا وشبّانًا في حديقة الصنائع يمشون ويحاولون إغواء بعضهم البعض برغم مآسيهم. وفكّرتْ كم الحياة تستمرّ برغم كلّ شيء.

وتذكرتْ أيضًا أنّ زوجها نام معها برغم حزنها على غياب نهلا، مع أنّه لم ينم معها منذ سنين. ابتسمت برغم الحزن، وقالت لعزيزة: قَوْلك بدّي إنتظر الحروب لينام معي وَيتهيّج عليّ هالحيوان؟

تنهّدت عزيزة التي كان الحزن باديًا عليها لغياب نهلا. كانت متوتّرة، ولونها أصفر، ولديها آلام في جسمها ورأسها. عزيزة التي لا تهتمّ بالسياسة والحروب، بقيت ملاصقة ليل نهار لمتابعة الأخبار. ولمّا شكت إلى سعاد كم هي مريضة، أجابتها بأنّها عليها أن تخفّف من مشاهداتها الحرب وسماع أخبارها، لأنّها بالتأكيد

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

مريضة بسبب ذلك. لكن عزيزة فاجأت سعاد بجوابها وهي ترفع حاجبيها:

ـ لأ يا سعاد. إنتِ مْفكّرة إنّي مريضة من متابعة الأخبار. لا أبدًا. بصراحة أنا متضايقة لأنّه بدّي رجّال.

قالت ذلك وهي تضع يديها على عانتها. ولمّا عادت وشربت كأسًا في الليل، فقدت رشدها كما تفعل كلّما شربت. نسيت نهلا، ونسيت هدير الطيران ودويّ القصف، وانقلبت على ظهرها من الضحك، وسألت سعاد:

ـ بتعرفي شو أحلى شي بالرجّال؟

ـ شو يا عزيزة؟

ـ أحلى شي فيه إنّه عنده واحد (وتقصد العضو الذكري).

تركتها سعاد ومشت.

وطوال الحرب، بقيت تتجوّل في الشوارع نهارًا بحثًا عنها، وفي الليل تتسمّر أمام الشاشة، تحدّق فيها. كلّما رفع أحدهم قميصًا من تحت الأنقاض، أو أشلاء، أو أحدًا من أحبّائه، أو أولاده أو ذكرياته، يخطر في بالها أنّها ربّما تكون هي. ثم صارت تراها في جميع الذين راحوا تحت الأنقاض، وتفكّر في أنّهم حتمًا ينتشلون شيئًا من ذاكرة نهلا الضائعة. حتى الجثامين التي كانت تُنتشل كان يُخيّل إليها أنّها جثمان نهلا. وكانت تنتظر الصباح لتقرأ الصحف، لربّما تجد اسمها وصورتها بين الضحايا والشهداء. وكانت في كثير من الأحيان تعنّف نفسها لمّا تنتبه إلى أنّها تفكّر في نهلا فقط

وتنسى كلّ هذا الموت والتهجير والدمار. وفي أكثر الأحيان، تشعر بأنّها منشطرة إلى أجزاء، وغير قادرة على احتمال شعورها بالانفلاش والتفكير في الضحايا والمحاصرين في القرى. وفي الوقت ذاته تحسّ بالعبث عند التفكير فيها.

مرّة سألت نفسها أيُمكنُ أن أفكّر في مصير نهلا وأمامي هذه المصائر المأساويّة كلّها؟ يا الله، أممكن أن تختصر نهلا جميع المفقودين، وأن تصير وحدها كأنّها ساحة المعركة بالنسبة إليّ؟

كأنّ حرب تمّوز أخذت مصير نهلا أيضًا. مرارًا حاولتْ أن تهدّئ نفسها، وأن تفكّر في أنّ الواقع أكبر من نهلا، فأين إحساسها بالآخرين؟ لكنّ صوتًا في داخلها كان يقول لها إنّ نهلا أخذت معها أحاسيسها كلّها.

• • •

أكل التلفاز وجه سعاد والتهم عينيها، وليس فقط أذنيها. طوال حرب تمّوز وهي تتابع أخبار المعارك. وذات مساء، بعدما لفّت الشوارع بحثًا عن نهلا، دخلَت البيت فرأت زوجها يلعب الورق مع أصدقائه. ولجت غرفتها لترتاح، ولمّا فتحتْ خزانتها لتلبس بيجامتها، وقع نظرها على فستان كانت نهلا قد أهدتها إيّاه في عيد ميلادها قبل أن يستفحل مرضها. أغلقت الخزانة وارتخى جسدها بعدما دخلت الحمّام. بكت دموعًا أطول من قامتها، ولمّا حاولتْ أن تغسل وجهها، امتزج دمعها بالماء. خرجتْ بعد ذلك إلى الشرفة، وراحت تتطلّع إلى السماء التي تعبرها الطائرات الإسرائيليّة لقصف الضاحية الجنوبيّة. شعرتْ بأنّ أحشاءها تتمزّق بسبب

القصف، وكذلك لألمها على نهلا. كان القمر ليلتها أبيض ومستديرًا، وكان نوره الفضّيُّ ساطعًا. فكّرت في أن تدخل بيت جارتها، ففي الحروب وحدها تُفتَح أبواب الجيران على بعضهم البعض، ليتخفّفوا من شعورهم بالخوف، كأنّ الإحساس بالجماعة والأنس يضمن إبعاد شبح الموت ويخفّف من وطأته. دخلت شقّة جيرانها وجلست بين قاطنيه المحتشدين في غرفة الجلوس. نشرات الأخبار كانت كأنّها تولول، والعالم شعرت به يجنّ، بينما أسماء الشهداء والضحايا تتوالى، ومقاومة شرسة للقوّات الإسرائيليّة التي لم تستطع التقدّم على الجبهات. صراخ النسوة الجالسات وأصواتهنّ أشبه برشقات تُصيب الشاشة. عيونهنّ كأنّها تخرج من وجوههنّ، وأياديهنّ تشبّر وتولول أيضًا. لكن، لمّا بدأ السيّد يخطب، صرنَ صامتات متأهّبات لسماعه. هدأ فوران عيونهنّ، ونظراتهنّ صارت كأنّها تتنهّد مثل صدورهنّ. بَدَونَ مسحورات وذائبات. وحين قالت إحداهنّ وهو يرفع يده إنّ السيّد يلبس دائمًا قميصًا تحت عباءته ويبكّل أزراره، ليش؟ أجابتها أخرى: إيبه أكيد، على طول بيلبس هيك، وبيكّل أزرار القميص منيح. بشو إنتو يا نسوان، الناس بالناس والقطّة بالنفاس.

ثم عدنَ وتنهّدنَ جميعًا تنهيدة عميقة لمّا رحنَ يُبدينَ غيرتهنّ من المرأة التي طلبت عباءته وأرسلها إليها. راحت أصواتهنّ تتوالى: نيّالها، يا ريت فيني شمّها مثلها، بتكون ريحته معلّقة عليها. نيّالها ونيّال قلبها وجريها.

ولمّا طلب جارها من زوجته أن تأتي بقهوة للجيران المجتمعين، أجابت بأنّها لن تتحرّك قبل أن يُنهي السيّد كلمته، فصرخ بها: شو

خصّك إنتِ بالسيّد، قومي فوتي اعملي قهوة للجيران.

ركضت إلى المطبخ خوفًا منه، لكنّها راحت تقول بينها وبين نفسها: أنا إللّي خصّني بالسيّد. ليش هوّي بيجي ليه السيّد بالمنام مثلي؟ لو بيعرف كيف أنا بعبطه وكيف بعدّلُه أصابيع إجريه وإيديه. أنا اللّي خصّني فيه، مش هوّي.

دخلت سعاد غرفة نومها مباشرة بعدما تركت الجيران. كان جسمها باردًا برغم حرارة تمّوز، فغطّت جسدها بحرام صوفي خفيف. شعور بالضيق في التنفّس، وبأنّها تختنق تحت الأنقاض، وبأنّ التراب والغبار والبارود والحديد الذائب والحجارة المفتّتة لمنازل كانت واقفة، تملأ صدرها، ولون الدم النازف طافح من عينيها، جعلهما أشبه بجمرتين مشتعلتين. عادت وفتحت التلفاز لتتابع أخبار المعارك، ثم غفت قليلاً وهي تهذي، وتحكي وحدها بعدما شاهدت أنقاض قرى بكاملها ومجازر ومقابر جماعيّة واستغاثات مصابين تحت الأنقاض.

في تلك الغفوة، رأت في منامها النبيّ موسى يلبس عباءته ويُمسك بعصاه، يلوّح بها يمينًا وشمالاً، يضرب بها الطائرات والدبّابات، ثم يمسح الأرض بها وهو يعبر الجبال والقرى، فتعود واقفة ببيوتها وأشجارها وناسها وعصافيرها. وكلّما لامَسَت الأموات عصاه عادوا أحياء. نهضت من غفوتها، ومشهد النبيّ موسى من الخلف يعود إلى السماء مرسومًا في عينيها. لم تستطع أن تبكي برغم أنّ مشاعرها كانت مشتعلة مثل نار حامية. هبطت

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

فقط من عينها دمعة واحدة خرساء. وأحسّت أنّ جسدها هابط وثقيل برغم شعورها بالغضب الشديد، بينما سابقًا كانت أغلقت جميع أبواب الغضب. لكنّ منامَ النبيّ موسى هدّأها، مثلما فعل منام ستّنا مريم العدرا الذي حلمت به بعد مجزرة قانا. رأتها واقفة تحمل ابنها يسوع الذي كان يمدّ يده إلى كلّ طفل يلوح مثل الخرقة ليعود ويحيا. كانت العدرا تبتسم، وهي ترى بعينيها كيف يستردّ الأطفال الضحايا حيواتهم الصغيرة، ويستردّون أجزاءهم المبتورة والمقطّعة، وكيف يعود الحسّ إلى الأطراف. وما أدهشها أنّها كانت ترى ابتسامة العدرا في عينيها حين تتطلّع إليهما، بينما حين تنظر إلى شفتيها تجدهما مُطبقتين. استغربت السرّ، وراحت تسأل نفسها كيف تبتسم العدرا إن لم تفعل أيضًا بثغرها. ثم أدركت بعد أن تفحّصت وجهها أنّ ابتسامتها لم تكن عاديّة. هي فقط تعبّر عن شعور رضى الأمّ على ولدها، وهو يعيد الحياة إلى الأطفال.

متابعات سعاد للشاشة الصغيرة والصحف والمجلاّت لم تنقطع حتى بعد انتهاء الحرب لأسابيع، لعلّها تعثر على أثر لنهلا بين المفقودين من ضحايا الحرب تحت الأنقاض، لكن لا أثر لها.

• • •

إحساس بالعري الكامل أمام اختفائها. عري السماء والأرض والأشياء كلّها. وذات صباح مشرق في الخريف، سألت نفسها وهي تتأمّل الفضاء على شرفة منزلها، أليس الاختفاء ذوبانًا في الشمس والريح والماء والشجر والأغنية والموسيقى والشعر الجميل الذي عشقته نهلا؟

هل يمكن أن تكون نهلا قد تخفّت في الريح أو في هدير الموج، أو في ضوء الشمس أو القمر، أو في رائحة الورد، وفي دمع العشّاق وفي ابتسامات طفل؟

هل صارت طيرًا، أم شجرة كما اشتهت مرارًا أن تكون حين كانت طفلة؟

ربّما تخفّت نهلا في الشجر الذي صارت علاقتها به أقوى في منتصف العمر. كانت تقول لسعاد إنّ عمرًا واحدًا لا يكفي لتأمّل شجرة. وعندما ذهبت إلى قريتها آخر مرّة قبل أن يلتهم الألزهايمر ذاكرتها كلّيًا، راحت تتأمّل الأشجار في السهول والهضاب، وتلك المزروعة أمام أكثر المنازل ومصاطب البيوت. وحين وقفت أمام الشجرة إلى جانب مصطبة جدّتها أمينة، أحسّت أنّها تحمل شيئًا من روحها ومن رائحتها، خاصّة أنّها لم تكن تفارقها لكثرة جلوسها على المصطبة إلى جانبها.

وأثناء عودتها إلى بيروت، لفتَ نظرها مشهد شجرتين واقفتين وحدهما على طريق نائية بعيدة وأرض غير مسكونة. كانت واحدة أعلى وأكبر من الأخرى، فروعها منحنية عليها، كما لو أنّها تمدّ كفّها إليها وتحتضنها. خُيّل إليها أنّ الشجرتين واقعتان في غرام بعضهما البعض. تمنّت أن تتحوّل هي وهاني إلى شجرتين مثلهما، يتحابّان ويتعانقان ويتبادلان القبلات. فالناس لا ينتبهون إلى غرام الشجر، ولا يعتقدون أنّ الأشجار تقع في الغرام، وأنّها بقدرتها الهائلة على الحبّ تُضيف اسمًا إلى الغرام لا تعرفه أبجديّة البشر. تمنّت أن تكون هي وهاني شجرتين تتضاجعان، تتداخل جذورهما

ببعضها البعض تحت التراب، وتحتهما حشائش تؤنسهما. يريان معًا كيف ينبت الربيع حولهما، وكيف يتعرّيان في الخريف عريًا جميلاً، وفي برد الشتاء يتألّمان معًا، يلقيان المصير ذاته، ويصيب الحشائش ما يصيبهما.

ربّما تحوّلت نهلا إلى شجرة، أو ربّما صارت نجمة.

تذكر سعاد أنّها قالت مرّة لهدى قبل زواجها، إنّه عندما تنظر إلى السماء، تستأنس بوجود نجومها، لكنّها لم تحاول ولا مرّة أن تحصيها، لأنّها لو حاولت فستفشل بالتأكيد. لذلك، تفضّل أن تحصي النجوم من داخل شبّاكها. لكن لم يحدث أن استأنست بوجود نجمة في السماء مثلما حدث بعد اختفاء نهلا.

لفتتها نجمة وحيدة في السماء من شرفة الصالون المقابلة للكنبة التي اعتادت الجلوس عليها في بيتها. تكرّرت الأيّام التي رأتها فيها بعد اختفاء نهلا، فتولّدت لديها قناعة بأنّ بيتها في المكان الذي تراه فيه. ثم أخذت هذه النجمة شكل وجه نهلا بعد أشكال مختلفة رأتها فيها. صارت تتفقّدها يوميًّا، تستأنس وتشعر بالراحة بعدما تولّدت لديها قناعة بأنّها نهلا. وبعد أيّام ظهرت نجوم عدّة حولها فضاعت منها وتاهت عنها. حاولت كثيرًا أن تعثر عليها لكنّها لم تستطع. ولمّا عادت النجوم واختفت كلّها، شعرتْ بأنّ السماء تنقص وأنّها باتت مهجورة مثل الأرض بعد فقدان نهلا.

أينما كانت تحضر نهلا، كان يحضر الحبّ. قالت لي سعاد لمّا التقيتُ بها يومًا بعد اختفاء نهلا. طاقته الهائلة في جسدها، تجعل

الأمكنة، حتى الصغيرة والمغلقة، أكثر اتّساعًا لتستوعب البهجة التي تُحدثها هذه الطاقة.

حضورها كان يفتح الأبواب والشبابيك المغلقة على الدنيا. لم تكن ممتلئة بالحياة فقط لكثرة ما كانت تعشقها، الحياة أيضًا كانت ممتلئة بها. كانت لها أشكال ابتسامات لا تنتهي، وتعابير من الحبّ على وجهها لا تُحصى. كان يمكنها أن تُضحك صديقاتها للحظة حين يكنّ حزينات، وأن تُبكيهنّ بلمح البصر.

حياتها القصيدة التي عاشتها ولم تكتبها، قالت لي سعاد.

كلّ النصوص التي كتبتها خارج هوس النشر، كانت تعتبرها كتابة حقيقيّة. تشعر بأنّها تستردّ الزمن من خلال الكتابة، بإحساس حقيقي لتنشأ وتكبر من جديد. لكنّها، بين فترة وأخرى، كان يداهمها شعور بأنّ هذه الكتابة، بقدر ما هي نابضة بالحياة، فإنّها لن تُستكمَل، برغم أنّ نهلا حينها لم تكن تفكّر في محوها أو اختفائها أو موتها. فكّرت في ذلك، لأنّ الأشياء الحقيقيّة كلّها، التي قامت بها بالصدق والعصب الحارّ ذاتيهما، راحت أو ضاعت، ولم تستطع أن تستردّها أو انطمرت تحت التراب.

كأنّ الأشياء الحقيقية تبقى ناقصة، ولا تُستكمل، قالت لسعاد.

* * *

كانت نهلا لا تسكت حتى وهي صامتة. تحكي مع جميع الأشياء الجميلة، إن لم يكن بلسانها، فبعينيها ويديها وقلبها. تلمع الحيرة في مقلتيها حين تتطلّع إلى الأشياء الجميلة حولها، فتبدو كأنّها تريد

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

أن تتشرّبها كلّها بعينيها دفعة واحدة. وكثيرًا ما لمحت سعاد هذه الحيرة فيهما، على شرفة منزلها، حين كانت تحدّثها عن هاني أو أحفادها أو صديقاتها. ترد خصلات شعرها الأماميّة إلى الخلف، ونظراتها تتنقّل من البحر أمامها، إلى عصفوريها في القفص، إلى شتلات الزرع واللوحات الجميلة المعلّقة داخل الصالون قبالة الشرفة، والأقمشة التراثيّة الرائعة التي زرّعتها في زوايا البيت.

كم كانت نهلا عاشقة للجمال! وكم كانت حرّة، قالت لي سعاد! فرض أهلها عليها الزواج، لكنّها عاشت أحاسيسها بكلّ عمق وشفافية في الحبّ والأمومة والزواج. ولكثرة ما كانت تؤمن بحرّيّتها، كانت تكتشف جسدها في حالاته كلّها، وبقدرة هائلة على الحبّ. لم تكن تؤمن بالواجب، متحرّرة من أيّ قيود، وحبّها لأولادها وزوجها كان غير حبّها لهاني.

كانت تقول لسعاد إنّها تعشق هاني لأنّ ثمانين في المئة منه وأكثر «حنّية»، والبقيّة عظام ولحم ودم وجلد.

كان يُخيّل إلى سعاد أنّها تعرف جسمها، لكنّه كان يُفاجئها وتكتشفه باستمرار. حين كانت نهلا تحكي عن إحساسها بجسدها الطاغي عليها، وهي في الخمسينيّات، كانت سعاد تستوضح منها تفاصيل علاقتها به، فيتبدّد لديها ذلك الشعور بأنّها تتصرّف على نحو اصطناعي. يتأكّد لها أنّ رغبتها صاعدة من جسمها، وموجودة فيه، وأنّها لا تشحن جسمها بها.

كم كانت تحبّ أن يشعر الآخرون بإحساسها بجسمها! أخبرتني سعاد.

«يا الله»، قالت لي، وهي تتذكّر أوّل مرّة قصدت فيها بيتها بعد زواجها.

وصلتُ إلى منزلها كما تواعدنا، كانت الخامسة بعد الظهر تقريبًا. قرعتِ الجرس، ورأتِ الشغّالة تفتح باب البيت لها، وتقول:

ـ المدام ناطرتك جوّا بأوضة النوم مثل ما وصّتني.

تسمّرت سعاد مكانها، والدهشة ملأت وجهها. كيف ستدخل غرفة نومها، وهي تزورها للمرّة الأولى في بيتها بعد زواجها، ولماذا تريد أن تستقبلها هناك؟

وجَدَت نفسها تسير خلف الشغّالة عبر ممرّ قادها إلى باب غرفتها المفتوح. كانت نهلا واقفة قبالة مرآة التواليت، تسوّي شعرها بيديها، وتتلفّت يمنة ويسرة. رأت سعاد من المرآة، أدارت ظهرها، ثم عَبَرَت من جانب التواليت التي اصطفّت عليها أدوات الزينة في اتّجاهها، وهي تبتسم وتتأمّل بها. الروب المفتوح الذي تلبسه كشف عن جسدها العاري إلاّ من سوتيان راقية مصنوعة من الدانتيل النبيذي، وكيلوت «ايشنكريه» من اللون ذاته. ذُهلت سعاد لسلوكها، إلاّ أنّها أدركت بسرعة تصرّفها الطفولي. هي تريدها أن ترى ثدييها المكوّزين، وبطنها الأملس، وساقيها المفتولتين الممتلئتين، ومساحة صدرها الواسعة. فتحت روبها أمام سعاد لترى جسمها. فعلت ذلك، وهي تنظر إليها وتبتسم بعينيها اللوزيّتين المشحمتين، المائل لونهما إلى الأخضر اللوزي، وتزيد من جاذبيّتهما رموشها السوداء الغامقة.

لم تكن مشاعر نهلا في موضع الالتباس بالنسبة إلى سعاد، برغم اندهاشها، حتى لمّا جلست في غرفة الجلوس، وراحت تزيح الروب قليلاً بين لحظة وأخرى، وتملّس على ساقيها. بدا واضحًا لسعاد أنّ نهلا تريد أن تسمع منها أو ربّما من أيّ شخص آخر، الكلام الذي تردّده لنفسها، والذي تغازل نفسها به.

لم تفكّر سعاد، في أيّ لحظة من اللحظات، أنّ سلوكها هذا ينمّ عن رغبة في النساء. كانت متأكّدة من أنّ نهلا لا علاقة لها أبدًا بأيّ ميول تجاههنّ، وأنّها لم تكن في هذا المكان أبدًا. هذا الميل رأته سعاد في عيني نادين، عندما شاهدت ميرنا للمرّة الأولى في بيت نهلا، وكانت حاضرة. راحت عيناها تخبران وتحكيان قصّة رغبتها تجاهها. ضوؤهما بدا كأنّه سَحَبَ الطاقة من جميع حواسّها وتجمّع فيهما، ففحّت رائحة الرغبة منهما، وبدت نظراتها كأنّه صار لمقلتيها يدان تمتدّان وتلمسان جسدها. ولمّا فارقت ميرنا الحياة، انطفأ ذلك الضوء في عينيْ نادين. غارتا إلى الداخل، لكأنّهما حاضرتان لترقد ميرنا فيهما وقدتها الأخيرة. قالت لسعاد وهي تبكي، إنّ السرطان لئيم وحقير يا سعاد. أكلها والتهمها، وصارت قدّ الكمشة. مُرعب هذا المرض يا سعاد. وحش غريب يلتهم الجسم بين أسنانه ويأكله. وحين ذهبت سعاد إلى بيتها لتعزّيها، كانت عيناها شاخصتين، كأنّهما تتطلّعان إلى شيء غير مرئي. كأنّها تحاول أن ترى عين الموت وتسأل من هو، وأين يكون، وتريد أن تراه. بدا الخيط واهيًا بين الموت والحياة عندها، ولم تعرف نادين، في أيّ منزلة هي فيهما، بعدما أخذ الموت ميرنا منها. الحزن كان متجمّعًا في عينيها اللتين انطفأ بريقهما، ورابضًا في

ذهولهما وشرودهما، وبادِيًا في كتفيها وعنقها. أمّا شفتاها، فقد أحسّت سعاد أنه جعلهما رقيقتين وأفقدهما انتفاخهما.

لو رأتها نهلا لجُنّ جنونها. نهلا التي كان قلبها أوسع من قلبي، وأكثر سماحًا حين يتعلّق الأمر بالحبّ، قالت لي. كم كانت سعاد تستغرب محبّتها لزوجة هاني وأولاده، كم تألّمت حيال خضوع سوسن زوجته لعملية استئصال ثدييها، طلبت منه أن يقبّلها فيه، وأنّه يداعبه أكثر. كانت تحبّ هاني أكثر عندما يتكلّم على سوسن بمحبّة أمامها. لم تكن تغار منها برغم أنّ نهلا لكثرة عشقها له ورغبتها الدائمة في الالتصاق به، كانت تغار بعنف من جميع الأشياء التي تلامسه وتقترب منه. تغار من لسعة الهواء التي تدخل صدره، من عطره الذي يمتزج برائحته، من ضوء يلتقي على خدّه، ومن قميصه الذي يلامس جسده، ومن ياقته التي تلتفّ على عنقه بدلاً من يديها. وكم كانت سعاد تستغرب حين تراها تحسب حساب عائلة هاني من المونة التي تأتيها من القرية. ومرّة سألتها:

- يا نهلا، ما بتغاري من سوسن مرتُه؟

- لأ، أبدًا يا سعاد صدّقيني. بحبّه وبحبّ مرتُه وولادُه، وبنبسط طعميهن من أرضنا.

كثيرًا ما قالت نهلا: إننا لا نستطيع أن نبعد آلام الحبّ عن القلب مدى العمر. قد لا ننجح في ذلك يا سعاد. لكنّ هاني كان أشبه بألم دائم في جسدها ويدفئه دائمًا أيضًا. كانت سعاد تدرك أنّ العلاقات العابرة القليلة أقامتها بسرعة لأنّها لم تستطع أن تلتقط

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

الحبّ الوحيد الحقيقي في حياتها. وبرغم ذلك كثيرًا ما سألت نفسها إذا ما كانت نهلا تشتهي رائحة الرجال.

كانت تسأل هذا السؤال عندما ترى جسمها يزوْبع كلّما فاحت من رجل رائحة رجولة. إلاّ أنّها كانت متيقّنة من أنّ جسمها لا يُبادر إلى الاشتهاء من تلقائه. استيهاماتها حول رغبة الرجال فيها هي ما يحرّض جسدها على الشهوة. لكنّ الأمر كان مختلفًا مع هاني. العاصفة التي تهبّ في كلامها وعينيها حين تحدّث سعاد عن رجل استحلاها، كانت تهدأ في صوتها وملامح وجهها حين تتحدّث عن هاني. يصير صوتها كأنّه يتشلل مفرداته من بئر حنان في قلبها، ويصير كأنّه سابح في محيط لا حدود له من الحبّ. الحبّ الشديد الخصوصيّة، والاستثنائي، وغير المشروط لا بجسد ولا بقلب فقط.

قالت مرارًا لسعاد إنّ حبّ هاني هو قَدَرها. جسمها يعرف جسمه، وجسده يعرف جسدها. وأكثر ما أحبّت جسدها وهي معه. ومرّة قالت لها بفخر إنّ هاني اعترف لها بأنّه استمتع مع اللواتي أقام علاقات معهنّ، إلاّ أنّ متعته معها كانت هي الأجمل والأكمل.

كانت نهلا تحكي لسعاد عن جميع رغباتها، لكن سعاد لم تكن تتحدّث أمامها عن رغباتها إلاّ نادرًا، وإن كانت تلحظ انفعالها ولمعة عينيها حين يقترب الغارسون في مقهى «السيتي كافيه» ليسألها ماذا تريد. اللمعة ذاتها في عينيْ سعاد تشعّ حين كان الحاجب في الجامعة يركض ليغلي لها القهوة بمجرّد أن تدخل غرفة الأساتذة.

كثيرًا ما كانت سعاد تأخذ قرارات بينها وبين نفسها بأن تستجيب لمشاعرها الدفينة تجاه أولئك الرجال، لكنّ هذه الاستجابة لم تكن تشبه سوى فتحات صغيرة، وعمرها قصير، في الجدار الذي يفصلها عن جسمها، سرعان ما تعود وتُغلقها. الشيء الوحيد الذي لم تكن تحكيه لنهلا هو حاجتها إلى الحبّ، ليس لأنّها كانت فاقدة الرغبة، بل لأنّها لم تكن تريد أن تشعر بالضّعة اجتماعيًّا في هذا المكان، ولا سيّما بعد الإحساس بالقذارة التي شعرت بها لمّا مارست الجنس مع بائع البالية. لكنْ بعد اختفاء نهلا، تمنّت لو كانت حكت لها عن جميع رغباتها، ولامت نفسها لأنّها لم تنتبه إلى أنّ نهلا تُسقط كلّ الاعتبارات حين يتعلّق الأمر بالحبّ.

• • •

قبل اندلاع حرب تمّوز، كان مضى حوالى أسبوع على اختفاء نهلا، لمّا أحسّت سعاد برغبة شديدة في الذهاب إلى الجامعة الفارغة من الطلاّب. فاجأتها رغبتها هذه لإحساسها طوال الأيّام التي مضت بدون نهلا، بأنّها مهجورة، وبأنّ الكون يملأه الصقيع. لم تعرف سبب رغبتها، وإن كانت تراهن بلا وعي منها على تخفيف وطأة الفقدان عليها. بدت لها الجامعة المُقفَلة أكثر صقيعًا وبرودة لمّا دخلتها، وازداد شعورها بتخلّي الكون عنها. حاولت أن تدخل غرفة الأساتذة، لكنّها وقفت أمام بابها للحظة. ابتسمت ابتسامة مُرّة قبل أن تغادرها وتعود إلى بيتها. فكّرت طوال الطريق، وهي تقود سيّارتها، كم كان يؤنسها في السابق الشعور بأنّ الطلاب لا يعطّلون انسياب محاضرتها في الصفّ، وأنّ أحدًا منهم لا يقطع هذا الانسياب لمحاورتها. وفكّرت أيضًا في أنّ الجدار الذي أقامته

بينها وبين زملائها الدكاترة، كان الوحيد الذي يحميها. تخيّلت مشهدها وهي جالسة في غرفة الأساتذة تستمع إلى حواراتهم ومناقشاتهم عن الحرب من دون أن تشارك فيها. رأت حالها كيف تبدو كأنّها غير موجودة استجابةً لمشاعرها، وليس لأنّ زملاءها يحيّدونها عن المناقشات، وتخيّلت ضحكتها وكيف بدت لمّا اقترب زميل منها أواخر العام الدراسي وهمس مازحًا في أذنها:

ـ أنت يا دكتورة سعاد بتتجنّبي تمدّي حديث مع حدا لأنّه بتخافي إنّه يلطّشك وتوقعي بغرامه.

فكّرت في أنّ هذا الدكتور ربّما كان على حقّ. هي أغلقت الباب على حالها، وامتنعت عن فتحه في وجه أيّ كان، حتى لا تقع في حبائل أحد.

عندما وصلت إلى البيت شلحت ثيابها وتركت شعرها ينسدل على كتفيها أمام المرآة، بينما دمعة راحت تطفو بين لحظة وأخرى في عينيها. شرعت تقول لنفسها أمام مرآتها إنّه لم يكن أحد مثلها ماهرًا في إهدار الفرص لتحيا حياة كالتي عاشتها. راحت تعيد التفكير في طبيعة العلاقة التي جمعتها بنهلا. وسألت حالها، وهي تفرك وجهها بيديها وتمسح دموعها بالمخدّة، فيما استلقت على بطنها فوق السرير، لماذا كانت نهلا محور حياتها دائمًا؟

راحت تتذكّر ذلك اليوم الذي رافقتها فيه نهلا إلى بيت جدّها في البقاع يوم عرس ابن خالتها. انتبهت كم صارت تعنيها كلّ الأمكنة التي تجمعها بنهلا، ولا تعود محايدة تجاهها. سألت نفسها لماذا تحبّ كلّ الأشياء التي لها علاقة بنهلا، ولماذا كانت شبّاكها

الوحيد الذي تُطلّ من خلاله على الدنيا؟ علمًا بأنّ نهلا كانت تعيش حياتها بصخب، وبشكل حقيقي، وكانت تعطي نفسها حقّ العيش وفق رغباتها. سألت روحها عمّا إذا كان يمكن وجود كائن غيرها يفترض أنّ رغباته تتحقّق من خلال آخر مرتبط معه بعلاقة صداقة، بينما رغبات هذا الآخر ليست لها علاقة برغباته الأساسيّة، أمعقول أن تصير رغبة الآخر رغبته، ولا يحصّل منها إلاّ الاكتفاء بكونه متفرّجًا؟ هل كنت أحقّق رغباتي بالواسطة، وأنا أشاركها إيّاها بالمشاهدة والسمع لأحفظ طهارتي؟ سألت حالها.

يا الله، كم كان الأمر يلتبس عليّ دائمًا، قالت.

في لحظات كثيرة، كانت تنظر إلى المرآة، وتقول إنّ هذا الجسم جسمي، وليس جسم نهلا، وتأوّهاتي ليست تأوُّهاتها، وجرأتي ليست مثل جرأتها.

وكانت نهلا تسألها خارج أيّ شعور بالأمومة أو بالوصاية وهي تبتسم مازحة:

ـ ولي ليش يا سعاد إنتِ ملمومة عليّ. اعترفي. بسّ إعمل شي ما بتفكّري بشرفك إنّه إنتِ عملتيه؟

كانت نهلا تقول لها دائمًا إنّ علاقتها بها فيّاضة جدًّا. تعترف لها بأنّها تُصادر منها أذنيها ووقتها. وعندما كانتا تذهبان إلى أمكنة تجتمعان فيها مع الآخرين، كانت سعاد تبدو كأنّها غير حاضرة. ومرارًا سألتها:

ـ فيكي تقوليلي يا سعاد، وين إنتِ بهالعلاقة بتواكبيني؟

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

أحيانًا كانت تجيبها بأنّها لا تعرف، وأحيانًا أخرى كانت تزجرها بنظراتها.

• • •

شحّ نظر سعاد بعد أشهر قليلة من اختفاء نهلا. صغُرت عيناها وصارتا أشبه بحبّتي عدس في وجهها. كلّ شيء فيها تضاءل وتناقص، ولم تعد ترى أحدًا بعدما يئست من العثور على نهلا. وذات يوم، اتّصلت بها فاتن ابنة نهلا، وقالت لها:

ـ تانت سعاد، جوزي مسافر، وأنا شويّ تعبانة وبدّي نام عند البابا. الله يخلّيك مشتاقتلك، تعي نامي عندي، وأنا بوجودك بحسّ إنّه ماما موجودة.

توتّرت سعاد وامتلأت عيناها بالدموع. فكّرت في ألاّ تروح، لكنّها لم تستطع أن ترفض لفاتن طلبًا.

كان البيت غارقًا في الصقيع والبرودة بغيابها. أوّل دخولها لفتتها أوراق الزرّيعة اليابسة والميتة، كأنّ الروح انسحبت منها، مثلما انسحبت روح نهلا من البيت. وما باغتها أنّها رأت على أرض الشرفة كومًا من أوراق الحبق والورد والغاردينيا والفلّ، وأوراق زرع أخرى متناثرة قرب بعضها البعض، ومختلطة في ما بينها. لكأنّها من فرط ما ثرثرت عن فقدانها أنامل نهلا وصوتها، هرّت ووقعت. قالت سعاد ربّما تكون ثرثرة النباتات أكثر صدقًا وتعبيرًا من ثرثرات البشر، لأنّها تحبّ بدون شرط وبدون مقابل، ولأنّها تعرف أنّ بقاءها مرتبط بحضور الآخر. الغياب يؤلم النباتات أيضًا، يُحزنها، يُثير شهيّتها للكلام. وكلام النباتات فيه شيء ممّا

سمعته عن فقدانها صوت صاحبتها وملاطفاتها.

افتقدت سعاد رائحة الحبق بصورة خاصّة، فهي الأشدّ نفاذًا بين روائح وورود شرفة نهلا ونباتاتها. سألت نفسها أين ذهبت روائحها؟ كأنّ النباتات صرّت روائحها ورحلت بحثًا عن رائحة نهلا.

وفي الليل دخلت غرفة نهلا لتنام. كلّ شيء فيها كان لا يزال كما هو، حتى رائحتها لم تكن قد فارقتها بعد، أو هذا ما ظنّته سعاد. لكنّ تلك الليلة كانت الأقسى في حياتها.

إلى جانب السرير، كانت صورة نهلا تضحك الضحكة ذاتها التي أطلقتها عندما راحت تحكي لها، كيف صار طبيب الذاكرة يتغزّل بها.

لمن أسمع وأحكي لغير الصورة التي تحدّثني؟ قالت وهي تمسح دمعتها، ثم قامت وفتحت الخزانة وتطلّعت إلى ثيابها التي ما زالت معلّقة كما هي. اشتمّت رائحتها العالقة فيها، الممزوجة برائحة عطرها، ذلك العطر الذي كان يعشق جلدها، يلتصق به لوقت طويل بعدما تضعه. أغمضت عينيها وهي تشمّ رائحتها بعمق، ثم أغلقت الخزانة. عادت وتمدّدت على السرير، وراحت تتأمّل صورتها مرّة ثانية. شعرت بأنّ ملامحها قاسية ووجهها بعيد وغائب لكثرة ما تبدو ناسية. ووجدت سعاد نفسها تقول «أوف، أوف يا نهلا، وجّك شو قاسي قد منُّه ناسي». ولمّا حدّقت في الصورة أكثر، رقّت ملامحها، لمّا شعرت بأنّها عادت تتذكّر، فقالت بدون انتباه: «رجعت، رجعت نهلا. كأنّه رجعت». ولمّا انتبهت إلى أنّها تهذي، شعرت بدوار من يقع في حالة التباسيّة، ولم تعد تعرف إن

كان وجه نهلا في الصورة حاضرًا أم مختفيًا، كما لم تعد تعرف أين هي: هل هي في غرفة نهلا، أم في غرفتها؟ هل الوجه الذي تراه في الصورة هو وجهها قبل اختفاء نهلا، أم وجه نهلا بعد غيابها؟ هل تسألها نهلا في الصورة إن كان قد صار لها وجه بغيابها، أم أنّها تسألها عن وجهها أيضًا الذي اختفى؟

نهلا أيضًا فقدتْ وجهها حين لم تعد تراني، ولم أعد أسمعها، قالت سعاد لحالها، ثم تهاوت على السرير وشعرت بأنّها تغيب، وأنّ عينيها لم تعودا تريان شيئًا سوى وجه نهلا الغائب. بدون أن تشعر فتحت درج الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير، فوجدت دواء ذاكرة نهلا ما زال موجودًا. فتحت العلبة وأخذت حبّة. شعرت بأنّ ذاكرتها تنهشها، كما لو أنّها مليئة بالقمل. مرّرت يدها على وجهها وتذكّرت هاني بدون أن تعرف لماذا تذكّرته. هل لأنّها نائمة في سرير نهلا الذي كان جسدها وذاكرتها يتمدّدان عليه، أم يا ترى لأنّها اشتهت أن يحبّها رجل كما أحبّ هاني نهلا؟ هل يمكن أن تكون اشتهته يومًا من خلال كلام نهلا عنه؟ تذكّرت الرسالة التي أرسلها هاني إلى نهلا معها بعدما فقدت ذاكرتها، وكانت لا تزال في حقيبتها. قامت وفتحت الرسالة، وراحت تقرأ ما كتبه: «النسيان هو الموت يا نهلا. فأرجوك لا تموتي. أنتِ ذاكرتي وجسمي، بل حياتي. رحمك بيتي، وإلى رحمك أريد أن أعود».

كانت سعاد قد قرأت رسالة هاني إلى نهلا قبل اختفائها، لكنّها صارت تتطلّع إلى سعاد كما لو أنّها غائبة عن سمعها وبصرها، ولا تعرف من الذي يحكي معها، وما الذي يُقال.

أعادت سعاد الرسالة إلى حقيبتها. تمدّدتْ على السرير وأطفأت النور.

وفي الصباح، هزّتها فاتن. نادتها، لكن لا حياة لمن تنادي. نامت نومتها الأخيرة في سرير نهلا، ولم تفتح عينيها ثانية أبدًا.

ماتت سعاد.

كلّ واحدة من صديقاتها المذهولات قالت شيئًا عن موتها.

ذات يوم صادفتُ عزيزة ونادين وهدى في مقهى الروضة. كنّ جالسات بلا كرسيَّي نهلا وسعاد. تركتهما عزيزة وجاءت إليّ. سألتها من تكون، فأجابتني بأنّها عزيزة صديقة نهلا وسعاد. حكت أشياء كثيرة، أعرف بعضها، وأشياء أخرى شممتُ لها رائحة الكذب. لكنّ الشيء الوحيد الذي لم يكن كذبًا، هو موت سعاد.

سألتها بحزن لماذا ماتت، وكيف؟ فأجابتني:

ـ صارت تنوص مثل الشمعة حتّى انطفت. كلّ يوم تجي عِند وحدي منّا، تُوقف على الباب تبكي وتروح وما تفوت، لحدّ ما ماتت بتخت نهلا.

ـ طيّب شو اللّي موّتها؟

ـ ما بعرف. كلّ وِحدي منّا قالت شي. حَدا قال إنُّه القصّة قصّة أرواح، وإنُّه بتلحق بعضا، وحَدا قال إنُّه نهلا ما قدرت تقعد بلا دينَيْن (أُذُنَيْن) سعاد. وحَدا قال إنُّه أصلاً هي مختفية من وقت ما اختفت نهلا، وما فيها تعيش وتحسّ بحياتها بلا نهلا، وحَدا قال إنُّه لحقتها ليكفّوا الحكي اللي ما خلص بيناتهن.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ـ ١٧ ـ

اختفت نهلا.

لو كنت أعرف أين هي لذهبتُ إليها، وحكيتُ لها حكايتها. من يدري؟ ربّما تعود إليها ذاكرتها، وأنا أقرأ لها ما كتبته عنها. إلاّ أنّني أخاف، إذا ما التقيتُ بها، ألاّ تعرفني أيضًا. تتطلّع إليّ بعينين حائرتين تائهتين وفارغتين، وأنا أروي لها حكايتها، ثم تتابع طريقها إلى النسيان والتوهان، بدون أن تعرف أنّ الحكاية حكايتها، وأنّ اسمها نهلا، وأنّها أضافت اسمًا إلى أسماء الغرام لم تُرِد أن تأخذه معها إلى النسيان.

الحقّ أنّي لا أعرف إذا ما كانت سعاد تتمنّى أن تكون نهلا ميتة أو مختفية، قبل أن تلحق بها.

جاءتني مرّة بعد اختفاء نهلا، إلى ذلك المقهى المحاذي للبحر في منطقة الروشة الذي أكتب فيه أحيانًا. كان لونها قريبًا من لون الموت، ورائحتها غريبة، مزيجًا من روائح الصمت البارد الدّبِق والحزن والوحشة والحيرة. وضعتُ أوراقي التي أكتب عليها جانبًا، ورحّبتُ بها ما إن وصلَتْ وجلسَتْ قبالتي أمام الطاولة. منذ اللحظة الأولى، سألَتني إذا ما كان الغياب يشبه الموت، وأيّهما أصعب.

لم أعرف أن أجيبها ولم تنتظر منّي جوابًا. أسندَت خدّها على

راحة يدها، وضغطت بكوعها على الطاولة، وقالت: لا، الموت نقطة وخَلَص. الغياب يطرح جميع الاحتمالات، تجتمع فيه علامات الوقف كلّها: الفاصلَة، النقاط، علامات التعجّب والاستفهام.

قالت ذلك، ثم برَمَتْ وجهها وتطلّعَتْ إلى البحر، وسرَحَتْ في الأمواج. وجهها تماوَجَ بكل ألوان العطش للّحاق بنهلا. قالت لي إنّ الموت يخلّف ويولّد في رحمه النسيان الذي يكبُر مع الوقت، ويكنس عن الصدر نثار الزجاج المتكسّر فيه بفعل الحزن، ويزيل الأشواك الجارحة فيه. لكنّ التفكير في أنّ نهلا ماتت يُشعرها بأنّ جزءًا من حياتها قد رحل معها، إن لم تكن حياتها كلّها. والغياب يجعلها في المقابل على قلق دائم، يبقيها واقفة. الغياب يمرجح، يدوّخ، ولا يترك مجالاً للحزن ليستقرّ أو ينزوي ويخمد.

أذكر أنّها قالت لي بعد أن زَفَرَتْ زفرةً طويلة:

ـ أوف، قدّيش الواحد ما بيقدر يعطي رأي صحيح بشي إلاّ إذا كان بخصُّه، وشعر إنُّه بيعنيه.

والغريب أنّها سألتني عن رأيي في نهلا، ولماذا هي كانت متعلّقة بها إلى هذه الدرجة. ثم كرّرت سؤالها لي إذا ما كنتُ أعتقد أنّ نهلا ماتت أو اختفت.

السؤال تركته لي على الطاولة وذهبت.

وهي لم تعد تسأل كثيرًا. لكن، عندما كان يهجم اشتياقها إليها وإلى كلامهما معًا، كانت تفتح باب بيتها وتخرج. أحيانًا، تمشي في الشوارع تتلفّتُ يمينًا وشمالاً، كأنّها تفتش عن شيء ضائع

منها. وفي الأوقات التي كانت معتادة فيها على الذهاب إلى بيت نهلا، كانت تقصد بيت عزيزة أو نادين أو أخيها جواد أو منزل فاتن ابنة نهلا. لكنّها أينما ذهبت كانت تقف أمام الباب لمّا يفتح لها أحدهم، تملأ الدموع عينيها، ثم تعود وتذهب بدون أن تدخل بيت أحد. وعندما تكون جميع الشبابيك مغلقة في وجهها، لم يكن أمامها سوى التفكير في شبّاك نهلا. من شبّاكها كانت تستطيع أن تطلّ على الحياة بدون تردّد، وأن ترى. في تلك اللحظات، كانت تتخطّى العقبات والجدران، ولا تعود تميّز بينها وبين نهلا، ويزول الشعور بهزالها ووهن عظامها. تشعر بأنّها صارت أقوى، وتصير تنسب إلى حالها قدرة لم تكن تملكها إلاّ عندما كانت نهلا إلى جانبها. في تلك اللحظات وحدها، كانت تفكّر كم أنّ الذين نحبّهم يهبوننا الطاقة والقدرة. يلوح في ذهنها أنّها باشتياقها إليها، ربّما هي مشتاقة إلى تلك القدرة التي فقدتها. لم تعد تستطيع أن تتحمّل الجدران الواقفة أمام عينيها. وكانت في كثير من الأحيان، تجد نفسها تغمض عينيها فجأة، مراهنةً على أنّها بإغماضتيهما تزول الجدران من أمامها. في تلك اللحظات، كانت ترى عيني نهلا ضاحكتين دائمًا، ومثل شلاّل الماء المتدفّق بقوّة والذي لا يقف أمامه شيء. عينان قادرتان على إزالة جميع السواتر والحيطان. لكنّها لكثرة ما أغمضتهما بعد اختفاء نهلا، صارت تخاف أن تستمرّ في الحياة وهي مغمضة العينين.

بدا لها كأنّه مكتوب عليها بعد غياب نهلا، ألاّ ترى الحياة وهي مفتوحة العينين. وعند إغماضتهما الأخيرة شعرت بأنّهما عينا نهلا، وأنّها ترى إلى الحياة كأنّها مغمضة العينين.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

هل كانت سعاد تحدس بموتها، أم أنّ نهلا حدستْ به في الأوراق؟ لماذا حين سلّمتني سعاد الأوراق، طلبت منّي أن أقرأها بسرعة؟ ارتسمتْ حينها على وجهيَ علامات استفهام، وسألتها:

ـ وليش مستعجلة لأقراها؟

ـ «لأنّه الواحد ما بيعرف أيمتى»، أجابتني بذلك، ثم أضافت بعد أن سكتت قليلاً:

ـ هول الأوراق ماضي، ومش دايمًا في الواحد يرجع للماضي، ولا بأيّ وقت بيقدر يواجهُه.

أكّدتُ لها أنّي سأقرأ، ولم أعد أسمع منها شيئًا قبل أن تروح وتغلق الباب خلفها، لمّا جاءت ذات يوم إلى بيتي أواخر حرب تمّوز، كنت أفكّر في الحرب الدائرة ومجريات ما يحدث.

قالت لي يومها إنّها جاءتني بالأوراق لمعرفتها أنّ نهلا لم تحكِ لي كلّ شيء، ولم ترَ لي سوى ما استطاعت تذكّره قبل أن تفقد الذاكرة كليًّا. وأخبرتني أنّ قصص الناس لا تُروى بهذه الطريقة، وأنّ البطل يجب أن يحكي كلّ حكايته، وأنّ الكاتب عندما يكتب عن أبطاله يجب أن يعرف كلّ شيء عنهم.

أعطتني الأوراق وذهبتْ. لكنّ الشكوك والأسئلة تروح تطاردني كلّما تذكّرتُ نظراتها وهي تعطيني إيّاها. صحيح أنّها أعلنت عن رغبتها في أن أكتب حكاية نهلا، لكن في الوقت ذاته قرأتُ في عينيها رغبة خفيّة لم أستطع أن أعطيها اسمًا.

كان من الصعب قراءة الأوراق بسهولة. بدت الكلمات مكتوبة في لحظات هذيانيّة. لكنّي بعد قراءة المذكّرات والقصاصات

بصعوبة، اكتشفتُ أنّ حكاية سعاد موجودة مع حكاية نهلا. لكنّي لم أعرف مَن الذي كتب، وما إذا كان الخطّ خطّ سعاد أم نهلا. وفي بعض الأوراق ثمّة خطان في الكتابة. ولا دليل يؤكّد خطّ من فيهما. أيُمكن أن تكون نهلا كتبت، ولأجل ذلك قالت لي عندما هزّتني: «حتى لو عرفتيني، مين قلّك رح تعرفي كلّ شيء عنّي. اكتبي بتستهدي». هل كتبت سعاد لتضيف أشياء لم تقلها نهلا، أم كانت لديها رغبة دفينة في الكتابة لتتماهى بنهلا الشاعرة، وكانت الكتابة حلمها، لذلك كانت الأذن لنهلا لتسمع منها كلّ شيء؟ وهل تخيّلتْ نهلا مصيرها ومصير سعاد، وهي التي تعتبر أنّ الكتابة استشراف للمستقبل؟

أنا لا أعرف من التي كتبت، ولا أعرف شيئًا عن مصير نهلا، وما إذا كانت اختفت أم ماتت. رحتُ أشكّك في الخبريّة كلّها. كان لديّ إحساس بأنّي سأجد نهلا. ربّما تكون في مكان ما تمارس حياتها. لكنْ كان عليّ أن أصدّق سعاد قبل رحيلها، فهي الوحيدة التي استمرّت علاقتي بها بعد اختفاء نهلا. وفي الوقت ذاته، لا أصدّق سوى الذي أعرفه، ولا أكتب إلاّ ما أريد أن أكتشفه. أصدّق ما قالته لي نهلا: «اكتبي بتستهدي». أنا على يقين من أنّ الكتابة تأخذنا إلى المعرفة، وليست المعرفة هي التي تأخذنا إلى الكتابة. وسعاد قالت لي إنّ نهلا اختفت، والأوراق تقول ذلك أيضًا. والأوراق تقول إنّ سعاد ذهبت إلى بيتها لتنام عند فاتن. دخلت سرير نهلا ونامت. تأخّرت صباحًا في النوم، وحين دخلت فاتن لتوقظها وجدتها ميتة في سرير نهلا.

• • •

لماذا لا تُعرَف القصص أو لا تُكتَب إلاّ بعد موت أصحابها أو اختفائهم؟ سألتني نهلا يومًا، وهي تحكي لي حكايتها.

هي تكلّمت لتكسر القاعدة. اعترفتْ بحقّها في أن تروي حكايتها، وتُثبت أنّها امتلكت الجرأة قبل أن يملأها النسيان. قالت لي إنّ محمود درويش يقول إنّ من يحكي حكايته يملك أرض الكلام. وهي تريد أرضًا لكلامها.

أشياء كثيرة لا يكتبها الكاتب إلاّ بعد موت الأبطال أو غيابهم حتى لا يجرحهم. ربّما يفعل ذلك ليستردّ جزءًا من حرّيّته حين يموت أبطاله، وليصوغ حياتهم ومصائرهم على ذوقه. لكنّي كنت حزينة بعد اختفاء نهلا برغم حزني في الحرب وفقداني صوابي. الحرب التي جعلتني أهذي ويبتلعني الضياع وأنا أكتب ولا أعود أدرك إن كنت حقًّا أعرف امرأة، اسمها نهلا، وأكتب حكايتها، أم أنّني أتخيّل قصّة امرأة راحت تحت الأنقاض، وأكتبها. تختلط الأمور في رأسي كما اختلطت في رأس سعاد. بدا الزيح واهيًا عندها بين الكتابة والحكاية، لمّا يئستْ من البحث عن نهلا، وسقط حلمها الأخير بالعثور عليها. قالت لي في آخر مرّة رأيتها حين جاءت إلى بيتي، وهي تتطلّع إليّ بنظرة غريبة كأنّها تستنجدني:

ـ شوفي شو بدّك تعملي. القصّة بإيدك. أنا يئست إنُّه لاقيها. إنتِ الكاتبة وإنت خفيتيها، وشوفي كيف بدّك تلاقيها بالرواية.

طلّبتْ منّي أن أجدها وأن أقرّر مصيرها ومشَتْ، ولم أعد أراها.

شعرتُ بالتأفّف والامتعاض، لكنّي لم أردّ عليها. لم أقل لها إنّ

المصائر تُزعجني، وباتت تخيفني. الكتابة عن الحيوات هي ما يهمّني. هي كالسباحة في الحياة، بينما المصائر تقذفني إلى خارج بحرها. كما لم أعد أريد أن ألعب دور القاضي، أو الانصياع للمصائر التي يريدها أبطالي. أنا لا أستطيع أن أكتب إلاّ إذا غطست بالحياة متحرّرةً من كلّ ما يطلبونه منّي. ولا أريد أن أكتب عن مصائر محتومة، فهذا مكان للاستبداد، وأنا لم أعتبر ولا مرّة أنّ فعل الحرّيّة في الكتابة يتمّ عبر مصادرة مصائر الآخرين، وأنّ كتابة الأحداث ببداية ونهاية، ليست إلاّ إملاءً من الكاتب. لكنّ المفارقة أنّ الكاتب يكتب، وقد يتخيّل لأبطاله حيوات ليست لهم. والغريب أنّه لا يسأل نفسه إلى أيّ حدّ تتضارب السلطة التي يعطيها لنفسه ويمارسها على أبطاله مع قناعاته، وهو يصادر مصائرهم ويقودها إلى مهالك معيّنة قد تُنهي حيواتهم، أو يُغيّبها الموت.

الحقّ أنّي لا أعرف مصير نهلا، وما إذا كانت فقدت الذاكرة وصارت مفقودة، أم اختفت، أم ماتت. وليس ذلك كلّه إلاّ وجوهًا للموت. لو عادت وظهرت وصارت على قيد الحياة، لأدركتُ أنّي أسرق حيوات الأبطال، لكن ليس لأكتبها، بل لأرى قدرتي على اللعب بالمصائر التي أخافها، ولاكتشفتُ أنّه برغم معرفتها هي وسعاد إحداهما بالأخرى، وصداقتهما الطويلة والحميمة، فإنّهما لم تعرفا بعضهما البعض، وهذا ما أخافني.

هي قالت لي: «اكتبي بتستهدي».

ستخبرها حكايتها أشياء كثيرة لم تكن تعرفها في حياتها.

وبرغم يقيني في أنّ حياة الواحدة لا تشبه الأخرى، فلا أدري ما الذي سرقته من حياة كلّ منهما وألبسته للأخرى. ربّما فعلتُ ذلك

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

لأكتشف ماذا يحدث إذا ما قلبتُ الأدوار، وأيّ مصير سيكون لكلٍّ منهما.

قالت لي نهلا يومًا إنّ الكاتب سارق، وإنّ الكتابة تشبه اللعب، وحذّرتني من أن أغيّر لعبة المصائر.

تمنّت عليّ ألاّ أغيّر مصيرها، مثلما فعلت في رواية «دنيا». وسألتني إذا ما كنت سأهرب من مصيرها لأنّي أخاف النهايات. وقالت لي إنّها تعرف دنيا وتعرف حياتها، فلماذا صارت حكاية أخرى حين كتبتها؟ أخبرتني أنّ دنيا قرأت الرواية وضاعت، ولم تعد تعرف أنّ مصيرها الذي قادتها إليه الرواية هو الحقيقة، أم أنّه المصير الذي تعرفه وتعيشه في الحياة. لكنّها لمّا قرأت الرواية بكت واكتشفت كم أنّ العالم قاسٍ ومزلزل، وكم هي ضعيفة وسجينة ومشلولة. هربتْ من النصّ، انتقامًا من قدرها ومصيرها في الرواية. لكنّها حين خرَجَت منه لم تعد تعرف حالها. اكتشفَتْ أنّها داخل أسر جديد ليس ثمّة أصعب منه لأنّها لم تعرف أن تقف على ساقيها وأن تلتهم الحياة بحرّيّة. قلت لها: جرّبي بتستهدي. لكنّها خافت التجربة. صارت ترى مصيرها الذي رسمته لحالها بمعزل عن حياتها التي رفضتْ أن تراها في الرواية، مثل «كروكي» جامدة ليس فيها إمكان الانتعاش والعيش، فعادت إلى النصّ لتحيا وتكتشف حالها من جديد.

كانت دنيا قد أدمَنَتْ على حبوب الاكتئاب والأعصاب على نحو مخيف. طلبتْ الطلاق في مقابل أن تتخلّى عن أولادها وتركتْ مالك والبيت. عملتْ في صالون حلاقة وتعلّمتْ فنّ التجميل الذي

تهواه لترسم ماكياجها وماكياج النساء مثلما تراه في وجوه العارضات في الإعلانات على شاشة التلفاز وفي المجلاّت. تعرّفتْ في الصالون إلى شابّ اسمه جوزيف يصغرها بستّ سنوات، أحبّها وأحبّته. صارت تلبس الديكولتيه والميني جوب ليرى جمال جسمها. هي أخبرته أنّها مطلّقة، لكنّها لم تعترف له بأنّ لديها أولادًا كي لا يعرف عمرها الذي أخفته عنه. أحبّها جوزيف حبًّا أشعرها بكيانها وجسدها، وصارت ترى العالم مليئًا بالألوان والبهجة. حين قرّر جوزيف أن يطلب يدها للزواج، جُنّ جنون أهلها. لم تستطع أن تفرض رأيها مثلما حدث معي، وخافت أن يتخلّى أهلها عنها كما هدّدوها، وهي التي تخلّت أيضًا عن أولادها.

وكي تبتر رغبتها في جوزيف وتردع نفسها عنه، تحجّبت. فلا شيء يحول بينها وبينه سوى الحجاب وارتدادها إلى الإسلام، واعتبار زواجها به حرامًا يُدخلها النار.

تركَت الصالون واتّصلَتْ به وواعدته على اللقاء في أحد مقاهي بيروت. اهتمّتْ بشكلها وماكياجها ليحتفظ بصورة جميلة لها في خياله. كان ينتظرها على أحرّ من الجمر في الزاوية الداخليّة في المقهى لمّا دخلتْ ترتدي حجابًا رماديًّا وتضع ماكياجًا رماديًّا مخلوطًا باللون الزهريّ الفاتح، فتفاجأ بمشهدها وجمدت عيناه في محجريهما. قالت له إنّهما يجب أن يقطعا العلاقة ويتركا بعضهما البعض لأنّها تحجّبت. وهو دمعت عيناه لمّا قال لها إنّه لم يعد يستطيع أن يشعر برغبة تجاهها لأنّه صار يراها مثل مريم العذراء.

بكت دنيا لمّا أخبرتني عن نهاية قصّتها مع جوزيف. لكنّ الغريب أنّها قالت لي:

ـ بسّ أنا اللّي قاهرني يا نهلا، إنّه ما شاف ولا مرّة بزازي قدّيش حلوين. كان بخاطري يشوفهن. وضلّ هالشي حسرة بقلبي، وصراحة يا ريت فرجيتو عليهن قبل ما إتحجّب.

والأغرب أنّ دنيا زارت مالك في المستشفى قبل وفاته. طلبتْ منه أن يسامحها لأنّها تخلّت عنه، ثم سألته:

ـ في بقلبي سؤال يا مالك، بليز جاويني عليه بصراحة.

ـ شو هوّي يا دنيا؟ قال لها وهو يحرّك عينيه.

ـ إنتَ خنتني شي مرّة لمّن كنّا مجوّزين قبل ما تتكرسح؟ بخاطري إعرف، وإذا خنتني قلّي.

ـ لا، أبدًا ما خنتك، أجابها كاذبًا بعد صمت، قبل أن يُغمض عينيه.

ـ لَكَنْ، الله يسامحك على كلّ شي عملتُه فيّي.

قالت له ذلك، قبل أن يُغمض عينيه للمرّة الأخيرة وتنهّدتْ. كانت تريد أن تسمع منه هذا الجواب، وتكذب على نفسها، وهي التي تعرف أنّه كان دائم الخيانة لها. ثم عادت لتقرأ الرواية مرّة أخرى بعد موته، وتكشف مصيرها الذي قادتها إليه الكاتبة.

تذكّرتُ نهاية دنيا، وأنا أقترب من نهاية الحكاية التي لم أرِد أن أصل إلى النقطة الأخيرة فيها، لأنّني أخاف المصائر والنهايات.

حين اقتربتُ من النقطة الأخيرة للرواية، أحسستُ بأنّني محاصَرة. أذرعُ نهلا وسعاد وعزيزة ونادين وبطلات الرواية

وأبطالهم كلّها التفّت حول عنقي. كدتُ أصاب بالاختناق، ولم أعد قادرة على احتمال الجلوس أمام مكتبي. تركتُ الأوراق وهربتُ من البيت. هبطتُ على الدرج بعدما وجدتُ المصعد مشغولاً، ولم أكن قادرة على انتظاره. صعدتُ في سيّارتي واتّجهتُ بحرًا، حيث كنت أحتاج إلى فضاء مفتوح وأفق بلا نهايات. سمعتُ طنينًا في رأسي وأنا أقود السيّارة بسرعة للوصول إلى البحر. كانت الساعة الخامسة بعد الظهر، ومطر خفيف يتساقط أوائل الخريف. إيقاع حركة مسّاحات الزجاج يتردّد في أذنيّ برتابة وانتظام. لكنّ سؤال ما إذا كنت مستبدّة في تحديد مصائر أبطالي، كان يلحّ في رأسي ولا يدعني أرى أو أسمع شيئًا. والعجيب أنّه برغم خوفي من المصائر، غمرتني سعادة داخليّة كبيرة وأنا أرسمها. إلاّ أنّ ما كان يُقلقني وما كنت أخافه هو النقطة الأخيرة الحاسمة التي لا أستطيع بعدها تغيير أيّ من المصائر.

في تلك اللحظة تذكّرتُ ما قالته سعاد عن قسوة الفقدان والموت، والفرق بينهما. أفكاري كانت مشعّثة، تشبه شَعري في مرحلة الكتابة. لم أشعر بما يشعر به من أنجز قصّة، ولم أشعر بأنّ اكتمال النصّ يُشبه الولادة. لم أجد نفسي أغنّي أو أبكي بشكل عفوي كما أفعل عادة بعد الانتهاء من كتابة الرواية. كنت باختصار مرتبكة، حولي تتقافز عيون أبطالي حين هبطت بسيّارتي نحو منطقة الروشة، ووصلت إلى مفترق يُفضي إلى منعطفين. التفتُّ يمينًا ثم يسارًا، فإذ بي أتفاجأ بوجود باخرة على الشاطئ بمحاذاة الشارع الذي بدا متّصلاً بالبحر، وحيث لا وجود للرصيف الذي أعهده ولا لـ «الدرابزين» الذي يفصله عن الشاطئ. كأنّ المدينة مدينة أخرى في أربعينيّات القرن الماضي، والشارع كأنّني شاهدته في «كارت

بوستال» عن بيروت أوائل الأربعينيّات. الحمّام العسكري لا أثر له في مكانه. كان الفرنسيّون قد أقاموه في منطقة الزيتونة ما بين السان جورج ومقهى عجرم. والمنارة لا أثر لها أيضًا. كانت لا تزال في منطقة قريطم مقابل مدرسة «الكولّيج بروتستانت» على التلّة. اختلطتْ عليّ الأشياء، والتبسَ عليّ الزمن. نظرتُ إلى الساعة في يدي، كانت معطّلة، لم أعرف لا التوقيت ولا التاريخ. وفي اللحظة التي التفتُّ فيها إلى مقدّمة السفينة الملاصقة للشارع، بعدما تقدّمت بسيّارتي في اتّجاهها، رأيت أمرًا لا يمكن تصديقه. لمحتُ امرأة مرتدية ثوبًا أحمر تتطلّع إليّ وتبتسم وهي واقفة على مقدّمة السفينة. حدّقتُ فيها مليًّا لأتأكّد مَن هي، فلم أصدّق عينيّ. هالني أنّها نهلا بشحمها ولحمها. في تلك اللحظة، شعرتُ بأنّي فعلاً سقطتُ في الزمن عموديًّا على عكس لحظة الكتابة، حين أعود إلى الوراء وأنا أتداعى وألعب به. رحتُ أحدّق فيها وفي المكان، ثم أتطلّع إلى سيّارتي وثيابي والأشياء تختلط عليّ أكثر: في أيّ زمن أنا؟ هل نهلا هي التي أراها أمامي، أم أنّي قرأت المشهد في الأوراق التي أعطتني إيّاها سعاد؟ هل سعاد اتّصلَتْ بي، وقالت لي إنّها ستصل بالباخرة، أم أنّ سعاد ماتت، وأنا أتخيّل ذلك؟

• • •

الأسئلة تساقطت والدهشة تملّكتني وأنا أرى نهلا أمامي. رحتُ أقول بيني وبين نفسي: معقول نهلا ترجع من بعد اختفائها، وتظهر؟ يا عمّي والله هاي نهلا. أنا متأكّدة إنّه هاي هيّ. بسّ ليش راجعة بزمن الأربعينيّات؟ ويا الله، كيف راجعة بجسمها مثل ما عاشته بشبابها وبكلّ عمرها.

عيناي صارتا تهرولان في اتّجاهها لأتأكّد ممّا إذا كنت أهذي أم أنّها حقًّا هي. لكنْ لم يكن من مجال للشكّ. عيناها اللوزيّتان المحدّقتان فيّ، وابتسامتها، أزالتا أيّ ريبة عندي. خفت أن أنزل من السيّارة وأسير في اتجاهها. وفي الوقت ذاته لم أجرؤ على تحريك رأسي ولو قيد أنملة. والعجيب أنّها بدت كأنّها واقفة بمحاذاة شبّاك سيّارتي المفتوح إلى جانبي.

بدت لي نهلا كنساء الأربعينيّات بثوبها الطويل وماكياجها وتسريحة شعرها التي تشبه تسريحة مارلين مونرو. وفي لحظة من اللحظات، تمايلتْ أمامي، ثم انحنتْ على الأرض كأنّها تلمّ شيئًا وقع منها. خُيّل إليّ أنّها التقطتْ رسالة هاني لها بعد فقدان ذاكرتها وقصائد حميمة وكتابات أعطتها لهاني ولم تنشرها. ولمّا أدارت ظهرها لي ملتفتة إلى البحر، لحظتُ ثنيّة ثوبها من الخلف وذيله الذي يشبه الأجنحة ينسحب وراءها. لا أدري لماذا تراءى لي أنّ في إمكان نهلا أن تطير، وأنّها ستفعل. لكنّها عادت والتفتت إليّ وابتسمَتْ ثم فجأة، سمعتُ صوتها. بدا قريبًا جدًّا، كما لو أنّها واقفة إلى جانبي تمامًا برغم المسافة بيني وبينها. صارت تحكيني بصوت خافت، ثم صارت نبرته تعلو شيئًا فشيئًا. انتبهتُ إلى ما كانت تقوله: يا إلهي، كم نافذة تقود إلى الغرام. ثمّة نافذة للشغف، ونافذة للعشق، ونافذة للجوى، ونافذة للوله، ونافذة للهوى... وأنا أطلّ عليك من جميع النوافذ. ما أكثر شبابيك الغرام وما أكثر أسماءه! لكنّي أنا وهاني فتحنا نافذتنا التي لن تنغلق أبدًا. ثم انتبهَتْ إلى أنّها راحت تحدّثني عن الرغبة، وتقول لي: هي الرغبة. أنا الآن في قلب الرغبة يا علويّة. هل تفهمين؟ رغبتي تُبقيني على قيد الحياة لأنّني أعيشها وأقف تمامًا في عمقها. أنا لا

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ألاحقها أبدًا، فلا داعي لعمليّة اللحاق. حين تلحقين برغبتك، تشكّين في أنّك تعيشين الغرام. أنا لا أعيش مثل هذا الالتباس، أنا حيّة، صدّقيني. أنا حيّة. ما ظننتموه حول اختفائي، كان عمليّة غرق في الرغبة. لماذا حين يغرق الإنسان في رغبته، يعتقد الآخرون أنّه اختفى، أو مات، أو انتهى؟

. على كلٍّ، لا شأن لك أينما أكون، ميتة، غائبة، أم مختفية. أعرف أنّك تهربين من المصائر، وأنّ سعاد قد ماتت. مسكينة سعاد. ظنّت أنّي متُّ، فسارعَتْ إلى خلع جسدها الذي تكرهه، وأتَتْ إليّ، حيث تظنّ أنّني موجودة على أمل أن تلتقي بي هذه المرّة بجسد جديد لا يرى إلى جسدي بمثل تلك الحسرة التي كنت أراها في عينيها كلّما التقينا. لحقَتْ بي لأسمعها مثلما كانت تسمعني كما قالت عزيزة. لا تهتمّي بمصيري أو بمصيرها. اكتبي فقط حديث جسدي، واسمعي يا أنتِ، سوف أقول لكِ كلامًا غريبًا: لا يهمّني أن يكون لي جسد حوريّة أو جسد بشري، لأنّني خارج جسدي امرأة بلا ذاكرة. دائمًا كنتُ أقول بلا خجل إنّ جسدي يعرف أسماء الغرام كلّها، وإن كان أمينًا وصادقًا مع هاني، فهو الذي علّمني أو تعلّمنا معًا هذا الذي اسمه الغرام.

مسكينة سعاد، لحقتني لتسمعني أحكي عن الغرام. ليتك تعرفين عمّا تتحدّث. مهما عرف الكاتب عن أبطاله، ومهما استهدى، فإنّ أشياء كثيرة لن يعرفها. وإن عرف فربّما لن يكتبها. معًا حكينا، ومعًا نُعيد كلّ العمر. معًا نعيش كلّ ما سبق، وما عايشناه معًا. أحدّثها وتحدّثني في غيابنا وفي أوراقك ومناماتك. نضحك كثيرًا، وأحيانًا نبكي. لكنّ العجيب أنّ بكاءنا يشبه السباحة. يُنشينا البكاء، لأنّه حتى في غيبتنا المزعومة التي تفترضونها، نحن بشر

نعيش كلّ الأحوال، وفي بعض الغياب حضور كثيف. هل تصدّقين أنّي أرى هاني وإن كان لا يراني. أحدّثه في رأسه، يخيّل إليه أحيانًا أنّي أسير خلفه أو أمامه أو إلى جانبه. وحين أنظر إليه يشمّ رائحتي، يفتح راحة يده ويحسّ أنّها تندّى بعرق جسمي. اكتبي يا علويّة، اكتبي. اكتبي الغرام. وصدّقيني، أنّك حين تروين عن رغبتي فسوف تحكين ما هو حقيقي، لا ما هو روائيّ.

لم أجرؤ على الإجابة. كنت في حالة ذهول كأنّه أبدي. ولم أصدّق عينيّ وأذنيّ حين رأيتها وسمعتها. كانت هي. وكان الكلام كلامها. لكن، لماذا عادتْ في زمن الأربعينيّات؟ وهل عادت لتقرّر مصيرها في الرواية، أم أنا التي فعلتُ ذلك؟

ضعتُ في الإجابة، ولم أعد أعرف شيئًا. عرفتُ فقط أنّها بدت سعيدة. بدت أصغر من سنّها بنحو عشرين عامًا. لم أسألها شيئًا. لكنّها أدركَتْ ما يجول في رأسي. عادت ونظرت إليّ، وقالت لي وهي تبتسم: يا ملعونة، لقد عرفتِ كيف تعيدينني إلى الحياة. وأنا أكثر منك «ملعنة»، عرفت كيف أعود بجسمي كما كان، وكما عشته. عندما تكتبين رواية أحد، فإنّه يعود صغيرًا ويبدأ بالعيش في الحياة مجدّدًا. كأنّه يعود ليستهدي إلى الحياة ويعرف كيف يعيشها. وحين يكتب الكاتب حكاية أبطاله، كأنّه يفتح بابًا للحياة لهم. وباب الحياة واسع إذا كنت في حالة غرام.

يا علويّة لا أعرف كيف أعبّر لك. كنت أتابع كلّ ما تكتبينه، كنت أسمع كلّ شيء. كنت أسمع صوت حبرك وقلقك وارتباكك. كنت أسمع صوت أفكارك وأنتِ تكتبين، وتهربين من الحرب لكتابة حياتي كي لا تصيري مفقودة مثلي، أو يصير اسمك مكتوبًا على

كيس بين ضحايا الحرب، وليس على رواية. وكنتُ مراهنة على أنّك ستستهدين إلى ذاكرتي وحياتي. مسألة واحدة لن تعرفيها، لها علاقة بما يحدث الآن. قد يكون ما كتبتِه قصّتي أو قصّة امرأة تحت الأنقاض تخيّلتِ حياتها، لا يهمّ. أكيد أنت تتساءلين بينك وبين نفسك: هل هذه نهلا التي تقف في مقدّمة الباخرة وتتحدّث إليّ بهذا القرب، أم أنّها نهلا في مخيّلتي وتصوّراتي؟ لا يوجد فرق كبير، وليس هذا مهمًّا. أريدك أن تعرفي، وأنت تقتربين من نهاية الرواية، أنّي لستُ أكيدة من حدوث كلّ ما جرى فيها. قد يكون ما حكيته لك ليس دقيقًا، وفي استطاعتك أن تشكّي في كلّ ما كتبته. لكنّ الشيء الوحيد الذي أنا على يقين منه، ومتأكّدة من حدوثه، هو الكلام على هذا الشيء الذي اسمه الغرام.

بدأ صوتها يخفت بعدما قالت ذلك. وعندما اختفى اختفت صورتها، كأنّ صوتها كان يصوّرها. عادت النقطة الأخيرة تتململ، فعدت أتساءل بيني وبين نفسي: هل رأيت نهلا، أم أنّ الأمر يتهيّأ لي؟

سؤال المصير وحده ظلّ يلاحقني، ويجعلني أتخيّل أشياء برغم يقيني من أنّي رأيتها حقًّا.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^